



نحو عقلية
إسلامية واعية

٤

هَافِي قَبْلَ السَّقُوطِ

وَسَقُوطِ صَاحِبِهِ

عبد المجيد صبح



هذا الكتاب

انتشرت على الساحة في الآونة الأخيرة ، دعاوى وأفكار دخيلة ، أطلقتها بعض الألسنة المستعجمة من أذعياء التغريب ودعاته ، لكي تنال من شريعة الله وأحكامه ، وكان الدكتور فرج فودة واحدا من هؤلاء فلم يكتف بمقالاته التي ينشرها من آن لآخر في أبواق الدعاية المفتوحة له ييثر فيها سمومه وأفكاره ، ولكن أخرج كتابا جمع فيه دواخل نفسه واعوجاجها .

فأعد الأستاذ عبد المجيد صبنح — أكرمه الله — هذا الكتاب « تهافت قبل السقوط وسقوط صاحبه » ففند أفكاره ودعاويه في أدب وعلم .. فنسأل الله أن يُعَمِّم به الفائدة والنفع وعلى الله قصد السبيل .

دار الوفاء — المنصورة

نحو عقلية إسلامية واعية (٤)

هَذَا فِتْقَةُ الْقَبْلِ السَّقُوطِ

وَسَقُوطِ صَاحِبِهِ

عبد المجيد صبح

صدر الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع

المنصورة - امام كلية الطب

ت : ٣٢٧٤٢٣ - ص.ب : ٢٣٠

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع

المنصورة - أمام كلية الطب

ت : ٣٢٧٤٢٣ - ص.ب : ٢٣٠

الإهداء

إلى من ورثت منه حب الإسلام
وتعلمت منه ، من العلم ، مالم أقرأه ، إلى اليوم ،
في كتاب
وتأديت على يديه بخلق سلك بي ، إبان الجهالة ،
في طريق الحق والصواب
إلى أبي مع الرقيق الأعلى
وإلى الذي ثبّت ذلك الحب على بصيرة
ونمى ذاك العلم على منهج قويم
ورعى هذا الخلق على صراط مستقيم
إلى الأزهر الشريف

وإلى كل محب للحق ناصلا من شوائب الهوى
والشبهات ثم إلى الذين يجادلون في آيات الله بغير
سلطان أتاهم والذين في صدورهم كبر ما هم ببالغيه
فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن الله يحب العبد التقيّ الغنى الخفى »

حديث شريف

* * *

إياك أن يكون تكيسك ، وتبرؤك عن العامة ، هو
أن تتبرى منكراً لكل شيء ؛ فذلك طيش وعجز .

وليس الخرق فى تكذيبك ما لم تستبين لك ، بعد ،
جليته ؛ دون الخرق فى تصديقك بما لم تقم بين
يديك بينته .

بل عليك الاعتصام بحبل التوقف ، وإن أزعجك
استتكار ما يوعاه سمعك ، ما لم تبرهن استحالتة
لك .

فالصواب لك أن تشرح أمثال ذلك . إلى بقعة
الإمكان . مالم يذك عنها قائم البرهان .

واعلم أن فى الطبيعة عجائب
وللقوى العالية الفعالة ، والقوى السافلة
المنفعلة ، اجتماعات على غرائب .

الرئيس ابن سينا

* * *

إن الجاهل بمنزلة الذباب ، لا يقع إلا على العقر
(= الجرح) ولا يقع على الصحيح . والعقل يزن
الأمور جميعا . هذا وهذا

شيخ الإسلام ابن تيمية

قبل السقوط

هو عنوان كتاب، كتبه كاتبه (يخاطب عقلك، ويؤرق ذهنك، ويحترق بك منطقة أشاعوا أنها محرمة). وبرغم هذا التحريم — الذى زعم — فإنه يقتحمها بالقارئ (مدركا أن العقل لم يخلق للامتحان، وأن مستقبل الوطن ليس ألعوبة بيد الساسة المتسربلين بالدين، الحالمين بالسلطة) وهو بهذا الاقتحام (لايبالى إن يخالف الجميع، ولا يحزن إن ارتفعت ضده الأصوات، أو لمعت السيوف، ولا يجزع، ولا يفزع إن خذله من يؤمن بقوله أو هاجمه من لا يؤمن به) لأنه (يخاطب أصحاب الرأى وأنصار المبدأ، وقصّاد الحق وأنصار الحكمة). ووعد فيه بكتاب آخر، تحت الطبع بعنوان: السقوط، وثالث: حوار حول العلمانية.

فمن هو المؤلف؟ وما هذه المنطقة المحرمة؟ وما موضوع الكتاب؟ ولماذا نحاوره؟.

أما المؤلف: فهو فرج على فوده. د. زراعى من مواليد الزرقا - دمياط. حصل على دكتوراه الفلسفة في الاقتصاد الزراعى من جامعة عين شمس، وكان معيدا بها، ثم مدرسا بزراعة بغداد، والآن يملك ويدير (مجموعة فوده الاستثمارية). انضم إلى حزب الوفد، ثم انفصل عنه. وصدر له سنة ١٩٨٢ كتاب: الوفد والمستقبل. وكما نجا هو بانفصاله يدعو قارئه إلى أن ينجو من شقى الرجا، كما فعل هو (ناجيا بدينه ودنياه بعيدا عن دائرة التعصب الطموح، أو الطموح المتعصب) (ص ٤٦).

والكاتب عارف بموضوعه، جامع لأطرافه، له قدرته على تحليله، وتعليله يستهدف غايته في وضوح بعيد عن الخداع والنقص في لغة متمكن منها، له خط من أسلوبها وبلاغتها، وله قدرته على اختيار عنوان موضوعه، وله عفة لسان، حتى وإن سخر!.

أما المنطقة المحرمة، واقتحامها: فيقصد بذلك الحوار في موضوع الإسلام والدولة وتاريخه وتطبيق الشريعة، ليعلن رأيه فيه بالرفض، ولا يرى أن الإسلام دولة، ويقبل الإسلام ديناً مكانه المسجد تلقى فيه العظات فهو يقول للإسلام: نعم لبعضه، ولا لبعضه. نعم للمصحف والدين، ولا للسيف والحكم!!

أما لماذا نخاوره؟

فبواعث ذلك: الواجب، الذى تفرضه طبيعة الحق، من وجوب أن يعلنه العارف به، وأن يجليّه، ويزيل عنه الشبهات، حتى يتحصص. وأداء لحق الإسلام الذى جوهر منهجه الحوار، والإقناع، وقياماً بواجب الوطن، الذى هو من مقتضى العقيدة، ووفاء لحرمة مصر، التى تشارك الكاتب حبها، وحمايتها وإن كنا لانشاركه، عبادتها فى محرابها (ص ٨٦)، لأننا لانعبد إلا الله، ولا نشرك بعبادته أحداً. ثم من بواعث هذا الحوار الاستجابة لطلب المؤلف، الذى طلب من قرائه أن يحاوروه مؤيدين أو معارضين، وأعلن سعادته بهذا الحوار (وإيمانه بأنه هو

السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق (ص ١٨٩)
الذى سيقضى— إن تحقق على الحضارة ويؤدى بالوطن
إلى كارثة، إذا ما طبقت الشريعة. وإنه لحق ما قال (إن
الكلمة أحيانا تمنع رصاصة، لأنها أقوى وأبقى)
(ص ١٨٩).

ومنهجى فى حوارهِ: هو المنهج الموضوعى، الذى
يتجرد للحق ناظرا ومناظرا بعيدا عن التعصب، فلا
يجامل ولا يتحامل، بعيدا عن الهوى الذى يتغشى
الصواب. ويتغيم الحق، كما يتجرد من العواطف المرسلّة
التي تعشو عما تكره، ولا ترى إلّا ماتحب، وتقذف
بكلمات المدح لما تهوى وكلمات القدح لما تكره.

ولا أتمثل، فى هذا الحوار، رأى فرد، ولا جماعة، ولا
حزب ولا أصدر عن توجيه خارج عن اقتناعى الذاتى،
ويقينى فيما أعتقد أنه الحق والخير الصواب وإن كان
ذلك لا يمنع النصفة فردا، أو جماعة إذا كان الحق
والصواب معهم أو كان الخير فى جانبها وجانبه.

وأسلوبى فى هذا الحوار هو الأسلوب العقلى والمنطقى الذى يصصح المقدمات ويقوم النتائج، والذى لا يترك متيقنا لمظنون، وإنما يستمسك باليقين، ويأخذ للظن احتياطه فى غير شطط، ولا اتهام بعيدا عن شقشقة البلاغة، وزخرف القول، وفصاحة البيان وسلاطة اللسان، مع الالتزام بحفظ كرامة الإنسان الذى كرمه الله بنصوص القرآن ولو كان مخالفا فى الرأى، محادّا فى العقيدة إلى أبعد مدى المخالفة والمحادّة مادام يبتغى الحق وينتهج الصواب، ولذلك نأخذ الكاتب بحسن الظن من غير توقع لرميه بالعظائم من التفسيق أو التكفير، ولا ادخار للمخاطرة له، ولا لولده، كما توقع هو وادّخر (ص ٣).

عرض الكتاب

والكتاب من خمسة فصول:

الفصل الأول يحتوى على مقالتين:

الأولى بعنوان: جهل القصد، وفحواها أن الناس يجهلون القصد الذى يستهدفه الذين يدعون إلى تطبيق

الشريعة الإسلامية، ويقوم هو بالكشف عن هذا القصد المتمثل في الاستيلاء على الحكم، بطريقة مباشرة (بتولى مناصبه) أو بطريقة غير مباشرة — (بفرض الوصاية عليه) أما دعوتهم الدينية ومطالبتهم بتطبيق الشريعة فما هي إلا وسيلة — فيما يرى — إلى الهدف (ص ١١ — ٣٣).

والثانية بعنوان: قصد الجهل — وخلاصتها أن الوقائع التاريخية الدامية والمفجعة التي ترتبت في رأيه — على قيام حكم إسلامي منذ الراشدين وعلى طول التاريخ الإسلامي لا يجهلها الدعاة ولكنهم — في رأيه يقصدون — إلى تجاهلها وإخفائها عن الناس حتى يتمكنوا من هدفهم في السلطة (ص ٣٧ — ٤٦).

الفصل الثاني يشتمل على خمس مقالات:

الأولى بعنوان: حوار هادئ في قضية ساخنة. ومضمونها أن المناداة بتطبيق الشريعة إنما هي رد فعل لمؤثرات خارجية، وأن هذا التطبيق — إن تحقق — سوف يهدد مصر. ويهدم الحضارة لما يترتب عليه من قيام حكومة دينية — تأبأها روح العصر (ص ٥١ — ٦٠).

والثانية: بعنوان: الحكم بالحق الألهى، يوضح فيها كيف أن تطبيق الشريعة الإسلامية ينتهى إلى دولة دينية تقود— فى رأيه— إلى (الحكم بالحق الإلهى) الذى لا يرى مصدرا للتشريع إلا القرآن والسنة والذى لا يتم إلا من خلال (رجال الدين) وتنقسم الدولة بسببه، إلى حزينين: حزب الله، وحزب الشيطان، وكل من خالفهم فهو من حزب الشيطان (ص ٦٣—٧٠).

والثالثة عنوانها: وأخيرا تسقط التفاحية: التى يقصد بها الحكم، وسقوطه فى يد من يسميهم (رجال الدين)، وهذا هو فى رأيه مقصدهم الذى لايعنيهم سواء (ص ٧٣—٧٧).

الرابعة عثون لها بقوله: الله يعلم. وفيها يردد احتمالات الدوافع وراء هذه الدعوة هل هم أئمة المساجد، أو الذين وصلوا إلى مجلس الشعب، أو دولة مجاورة أو دولة عظمى، وعلى أى احتمال فهى— فيما يرى — سياسة. ألبست ثوب الدين وديننا لبس ثوب سياسة (ص ٧٧) — ثم يعود لتأكيد أنه دعوة

سوف تمزق مصر ويقسم على أنه لن يترك التصدى لها
ماعاش (ص ٨١—٨٦).

والخامسة بعنوان: ولا يخلو الأمر من فكاكه. نقل
فيها من كتاب. أيها السادة لذكريا البرى. وزير الأوقاف
الأسبق. أن الوزير كَوّن لجنة من كبار مفكرى الدعوة
لوضع اقتراحاتهم فى الاحتفال بذكرى محمد عبده،
والأفغانى والإمام الغزالى وأن اللجنة اقترحت أن يكون
الاحتفال: بتوزيع حلوى: سد الحنك، وكشك الفقراء
والبسبوسة!! ثم يعقب الكاتب على ذلك بتعقيبات
ساخره (ص ٨٩—٩٣).

الفصل الثالث: ويشتمل على مقالتين:

الأولى بعنوان: مولانا الذى فى الجيزة. ويقصد به
الشيخ (صلاح أبو إسماعيل) ويذكر أنه أثر على حزب
الوفد حتى جعله يأخذ بفكرة الدعوة إلى تطبيق الشريعة
مع أنها لاتتفق وواقعه وتاريخه، ويزعم أن الاستعمار
والصهيونية من وراء هذه النية، وأن الشيخ صلاح يعلم

ذلك ، وأنه مطلوب منه ومن أمثاله محاربة فكرة : القومية المصرية (ص ٩٩ — ١٠٤) .

الثانية وعنوانها : مصرية .. مصرية ، وفيها يعقّب على بيان حزب الوفد الانتخابي ويقول إنه من صنع الشيخ صلاح ، الذى خلط بين السياسة والدين ، ونسى بعض طوائف المصريين وتاريخ مصر الطويل ، ثم يتبنّى الكاتب الدعوة إلى التصدى للدعوة إلى الشريعة (ص ١٠٧ — ١١٤) .

الفصل الرابع : السودان بين الجموح والطموح

وفيه ثلاث مقالات :

الأولى بعنوان : حديث الجموح . ويذكر فيها بنودا من تعديل الدستور السودانى بعد إعلان تطبيق الشريعة وينقل عن المنظمة العربية لحقوق الإنسان انتقادات فقهييه وقانونية لما صدر من أحكام بالسودان ويختتمه ببيان لنقابة المحامين بالقاهرة تستنكر فيه حل النقابات المهنية بالسودان (ص ١٢١ — ١٤١) .

والثانية بعنوان : حديث الطموح . ينقل فيها نماذج من تأييد العلماء والصحف الدينية للسودان في تطبيق الشريعة (ص ١٤٥ - ١٥٠) .

والثالثة بعنوان : وبينهما متشابهات . يناقش فيها دعوى انخفاض الجريمة فى السودان والسعودية ، كأثر لتطبيق الشريعة ، ثم يطرح أسئلة ، يرى أنها تؤيد استنتاجه من أن تطبيق الشريعة ينتهى إلى قيام حكومة إلهية .

الفصل الخامس

وفيه يصنف الاتجاه الدينى إلى ثلاثة أنواع
الاتجاه المعتدل ، وينسبه إلى الأخوان المسلمين ، ويبين أن أسلوب عملهم هو الاشتغال الهادىء بالسياسة .

الاتجاه الثورى (نسبة إلى الثورة) وينسبه إلى تنظيم الجهاد ، ويبين أن أسلوب عملهم هو القوة والعنف .

الاتجاه الثروى (نسبة إلى الثروة) وينسبه إلى أصحاب رؤوس الأموال تؤيدهم دولة مجاورة . وأسلوب عملهم

الاعتماد على قوة المال وتوظيفه في الاقتصاد باسم الاقتصاد الاسلامى مثل (المعاملات الإسلامية) في البنوك .

ويرى أن هذه الاتجاهات تملك وسائل القوة المحققة للغرض وهي: — قبول الفكرة والقوة، وسطوة المال (ص ١٦٥) ولكن هذه الوسائل موزعه على هذه الفصائل الثلاث ولا ينقصها إلا التجمع الذى لو تم لتحقيق غرضها في تطبيق الشريعة والاستيلاء على الدولة ولكن من رحمة الله بعباده — فيما يرى — أنها وإن توافرت تنافرت (ص ١٦٧)، ثم ينهى الفصل بملحة تفسيرية يشرح فيها أسباب نماء الحركة الدينية ويخصرها في عشرة أسباب يسميها احتمالات هي: —

١ — هزيمة ١٩٦٧ م، وأثرها في البحث عن سببها ورد هذه الأسباب إلى البعد عن الدين .

٢ — غياب القضية الوطنية إذ يزعم أن الشعور الدينى يغيب عند وجود قضية وطنية عامة ويمثل لذلك

بثورة سنة ١٩١٩ ووجوده عند غياب القضية الوطنية
ويمثل بالحالة بعد معاهدة ١٩٣٦ .

٣ — الأزمة الاقتصادية ويرى أن نمو الحركة الدينية
إنما هو في الأوساط الفقيرة التي تعاني من الفقر .

٤ — مقتل السادات ويسميه (الانتحار الساداتي) إذ
يرى أنه هو الذي أُرخي الحبل لمجارات الجماعات الدينية
ليحارب بها خصومه الناصريين واليساريين فأفلت
زمامها من يده .

٥ — السماح الديمقراطي يرى فيه أن منحة الحاكم
بشيء من الديمقراطية مكن للجماعات الدينية .

٦ — القوة العظمى : يرى فيه أن قوة التيار الديني
مقصودة لأمريكا لتربط مصر والسودان والسعودية
لتكون حزام أمن ضد المد الشيوعي أو الإيراني .

٧ — الصراع بين التيار الثروي والراد يكالي
(=الرافض) يرى فيه أن السعودية تقوى التيار الديني
خوفا من المد الإيراني .

الأحزاب على ضم التيار الدينى بقصد الكسب السياسى.

٩ — أخطاء المعالجة ويذكر فيه مازعمه أخطاء للحكومة والإعلام فى معالجة التيار الدينى .

١٠ — مناطق الحوار المحرمة — يذكر فيه — لائما ومعاتبا — سكوت المفكرين المعتدلين عن مقاومة التيار الدينى حيث ينتهى الفصل الذى يعتبر أهم فصول الكتاب وأقربها إلى الأسلوب العلمى والتحليل الإجتماعى وقد وضع تحت عنوانه عبارة كاشفة تفصح عن مضمون الكتاب كله هى : أقبل دجى : أقبل ضباب : أقبل جهاما ياسحاب والدجى هو الظلام والسحاب الجهام هو الذى يرى أن فيه مطرا ولا مطر فيه ، فما أشبه هذا الدجى ، وهذا الجهام بهذه الدعوة الدينية التى يظن فيها الخير وما فيها إلا الخداع

ليس غير هذا عرض أمين جامع لفكرة الكتاب اتبعه ببيان هدفه ، وسائله لتحقيق هذا الهدف .

القصـد والشمـرة

لكل عاقل قصد وغاية لما يكتب أو يقول .
ولكل عاقل وسائله وأدواته ، التى يتوسل بها إلى
مقاصده وغاياته .

وأفعال العقلاء لها نتائج وثمرات تترتب عليها ، منها
ما يكون لصاحبها بالقصد الأول ، أو بالتبع .

وكل عاقل — كما يجب عليه أن يتأنى فى اختيار وسائله
ومقاصده — يجب عليه أن ينظر ، ويفكر فى ثمرات هذه
الوسائل والمقاصد ، وأن يزنها ، ويوازن بينها ، كما يوازن
غيرها بها .

وهذه الغايات ، ووسائلها ، وثمارها تكشف عن

جوهر صاحبها: عقله، وطباعه، وصفاته، وميوله، وثقافته، ومعتقداته...

هذه مقدمات عقلية، ومسلمات نفسية، لا بد أن يسلم بها صاحب كتاب: «قبل السقوط» وهو يدعى— في غير موضع من كتابه— العقلية والمنطقية، ووزن الأمور حتى في أعز ماتملك الأمة من عقيدتها وتاريخها. ولا يبالى حين يخرج بوزنه الأمور. أن يخالف إجماع الأمة، في الغابر والحاضر، فهو يقول (ص ١٦) بعد أن عرض جزءا من حياة الراشدين، ركّز فيه على أحداث الفتنة، ومقتل عمر، ثم قال: أردت أن أزن الأمر، لكى أصل بالقارىء إلى فهم ما أفهمه من الإسلام، وهو فهم السياسى ورجل الفكر، قبل أن يكون فهم رجل الدين!!.

فما مقصود كاتب السقوط؟

وما وسائله؟

وما ثمرات مقاصده، ووسائله؟

بالنظرة الشاملة للكتاب نجد به مقاصد معلنة،
ورئيسية، وأخرى خفية، معينة على الوصول إلى مقاصده
الأولى.

أولا : الأغراض الأساسية :

١ — فصل الدين عن الدولة .

يقول (ص-١٨) : إن كل ماعرضته إنما ينهض دليلا
على أن هناك فرقا كبيرا بين الإسلام الدين، والإسلام
الدولة، وأن انتقاد الثاني لايعنى الكفر بالأول، أو
الخروج عليه، وأنك في الثاني سوف تجد كثيرا يقال، أو
يعترض عليه، حتى في أعظم أزمته !

وفي (ص-١٩) : سلم معهم بالدين، أما الدولة فأمر
فيه نظر .

وفي (ص-٢٣) : إن فصل الدين عن السياسة وأمور
الحكم يحقق صالح الدين وصالح السياسة معا، على
عكس مايصور لنا أنصار عدم الفصل بينهما .

وفي (ص ٥١): إنما أنا مواطن مصرى يندب مصير مصره، حين تنساق — بحسن النوايا — فى اتجاه حاشا لله أن أسميه مستقبلا، فما أبعد المستقبل عن دولة دينية، لأحسب أن العصر يتسع لها، أو أن الوطن يمكن أن يسعها، دون أن تتهدد وحدته، وينهدم ماتعلق به من أهذاب الحضارة، أو درجاتها!!.

وفي (ص ٨٥): فالحكم الدينى لن يكون مقبولا من المسلمين المتنورين!!.

٢ — عزل الإسلام عن العلاقات الدولية :

حيث يقرر الكاتب، فى (ص ١٧٩) أن العلاقات الدولية تقوم على القوة، التى هى فوق الحجة، وعلى المصلحة، التى هى فوق المبدأ.

٣ — تعطيل الحدود الشرعية :

يقول فى (ص ٥٢ — ٥٣): إن تطبيق الشريعة يقود إلى دولة دينية، وهذه تقود إلى الحكم بالحق الإلهى. إن تطبيق حد الزنا، مثلا، يترتب عليه منع ملاهى شارع

المهرم ، والرقص بأنواعه . ومنع المذيعات من التليفزيون ، كما يترتب عليه ضرورة أن يطلق المذيعون لحاهم ، ويحفوا شواربهم .

ومن (ص ١٥٣-١٥٥) خصها بمقال : وبينها متشابهات ، ضمن مقالات الفصل الرابع الذى خصصه لنقد تطبيق الشريعة فى السودان .

٤ — جعل الإسلام روحيا فقط :

فهو يرفض الدين موجها للسياسة ، ويقبله كأساس للمجتمع ، لأنه على حد قوله — أحد أسس تكوين الضمير .

— وهو يرفض الإسلام الدولة ، ويسعده أن يتعلم أولادنا أصول الدين فى المدارس ، وأن يحفظوا القرآن كله ، أو بعضه ، وأن نسمع آياته تتلى فى وسائل الإعلام ، وأن نحتفل بالمناسبات الدينية ، وأن يكون لرجال الدين مكانتهم ، ولقدرهم احترامه وتوقيره .

هذا القدر ، من تواجد الدين فى الدولة ، مقبول ، بل

مطلوب! وحجته في ذلك ماأحدثنا به كتب التاريخ،
ليس عن عصور الحكم الإسلامي المتأخرة، بل عن عصر
الصدر الأول من الإسلام (ص ٢٣).

— وفي مقال (قصد الجهل ص ٣٥) يخاور مراسلا
لإحدى الصحف العربية، ويرى أن المسجد لو قام
بدوره، كما كان على عهد عمر، كما يريد الصحفي
العربي، لاختلفت آراء الأئمة، وجرّ اختلافهم إلى
كوارث. ويستشهد على ذلك بخلافهم في المعاهدة مع
إسرائيل، وبخلافهم في قانون الأحوال الشخصية. ثم
يذكر تداعيات ذهنية من أسماء أئمة الفقه، يتخيل بها
معارك، ييطل بها حقائق (ص ٣٨ — ٤٠).

ثم يقول (ص ١١٢): لنذهب إلى المساجد
والكنائس، لكي نسمع موعظة دينية، لا يختلف عليها
أثنان.

وفي (ص ٤٣): أأست ترى معي أن قصر رسالة
المسجد على تعميق مفاهيم الدين، وغرس القيم الدينية.
التي لا يختلف حولها مسلم وآخر — تحقيق لقصد

الذاهبين للصلاة، بل وأكثر من ذلك احترام لحريتهم
الفكرية، تلك الحرية التي أجزم بأن الإسلام قد صانها،
وارتفع بها إلى أعلى عليين،!!

وأقول: وأستبيح لنفسى — توضيحاً لدور الدين
والمسجد في رأيه أن أقول: ليكن مجال الدين في التكلم
عن الخبث، والنجس، والطهارة والحدث، والزواج
والطلاق، والنسل وتقليله أو تكثيره، وحكم الخل
والكحول ... وإذا تخطى الدين هذا المجال الشخصي
الفردى إلى المجتمع والجماعات، فلا بأس بالموالد
والاحتفالات تزيينها علماء السلطة، ولا ضير في التوسع
بذكر أحوال الأولياء، واختراع قصص الكرامات ...
كل هذا وأمثال أمثاله مقبول تواجهه في الدولة!

أما الحكم وأصوله في الإسلام
وأما الحاكم وما له وما عليه في الإسلام
وأما القضاء وشريعته في الإسلام
وأما العلاقات الدولية ونظامها في الإسلام

وأما المظالم الاجتماعية، ومنهاج الإسلام فيها
وأما المآثم الخلقية الاجتماعية وعلاجها في الإسلام
وأما السيف والقوة والجهاد في الإسلام... فأياك ثم
إياك... إنك إن فعلت — لا قدر الله — تخلط بين الدين
والدنيا، وتخرج بالإسلام عن رسالته وتحرمه من
قدسيته، وتخلط بين الدين والسياسة، وقاعدتنا المقررة:
أنه لاسياسة في الدين، ولا دين في السياسة.

ألم يقل ذلك أحد رؤسائنا — رحمه الله — وإمامنا
الأكبر عن يمينه، وفي مؤتمر جمع قادة الفكر وعلماء
الدين؟!!

لكن لامانع — وللضرورة حكم وأحكام — أن
يتواجد الإسلام في السياسة إطارا مبهورا، وزينة لاهية،
وشعارا لادثار له، له خطباء علماء في المحافل، وكتّاب
حكماء في الصحف، ومحاورون خصمّون في الندوات،
ومتكلمون، بأفواههم في مجالس التشريع، يؤدون عنه
ضريبة الذل من دينهم الحق، وعقيدتهم القويمة

نرفع دينانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ، ولا مانرقع

٥ — القومية الإقليمية :

وإذا سألت الكاتب عن البديل عن الإسلام دولة ،
والإسلام حكما ، والإسلام شريعة قال لك في لفظ
فصيح ، وأسلوب مليح ، وجلاء ليس فيه خفاء ،
وإقدام مستعد لتحمل البلاء ، حتى الذماء : إنه القومية
الإقليمية !! المصرية ... المصرية إنه الفرعونية ! . إنه
أغلى ما يملكه ، وإن (انفجاره غيظا من الشيخ صلاح ،
مولانا الذى فى الجزيرة ، لا لأنه نجح فى توجيه الوفد إلى
عكس ما حاول ، ولا لأنه بقى فى الوفد فترة ، بينما أثر
هو الاستقالة على الفور ، بعد الانتصار العظيم للشيخ ،
بل لسبب آخر ، ربما لم يخطر على بال الشيخ أبى
إسماعيل . وهو أنه قد أصابه فى أغلى ما يملك : مصر ،
ذلك الوطن العظيم ، الذى لا يعرف معنى لوجوده إلا
به ، ولا يعرف شيئا يسبقه لديه بدءاً ، أو يعلوه إنتهاءً)
ص ٩٩ . إنها مصر التى يناديها : يامصر ، يعلم الله أننى

أحبك بلا حدود ، وأتشفقك حتى آخر قطرة من
دمي ، وأتعبد في محرابك بكل ذرة من كيائي ، وأدفع
حياتي كلها ثمنا لبقائك ... والله وحده يعلم حجم
الصدق فيما أقول .. ص ٨٦

ومرة أخرى أستبيح لنفسي ، وأستميحه أن أوضح
فكره ، وفكرته ، فأقول :

إذا سألته عن المسلمين يذبحون في أفغانستان ، لكان
الجواب : مالنا ولهم !

وإذا سألته عن المسلمين يضطهدون في الفلبين
وبلغاريا ، كان الجواب : هذا خارج عن المصرية !
ولو سألته عن القدس لكان جوابه ماللفرعونيين
وللقدس !

ولو سألته عن القومية العربية ، والوحدة العربية لكان
جوابه : فرعونية ... فرعونية !

ثانيا : الأغراض المعينة :

١ — تشويه عصر الراشدين بخاصة ، والسلف بعامة :

فقد صورته بأنه عصر الاعتراض حيناً ، والانقسام
أحياناً ، والاقتتال غالباً ، وما كان فيه من استقرار فمرده
لانشغالهم بالفتح الخارجى (ص ١٦) .

وهو عصر استبداد ، وظلم ، يضطهد فيه العلماء ،
وتستباح فيه الأموال ، وتزهق فيه الأرواح لكلمة ، أو
لبيت من الشعر : (ص ١٩) : أما السيف فاسأل
التاريخ عنه ، وما ينبئك مثل تاريخ ، فقد أطار السيف
من رعوس المسلمين أضعاف ما أطار من رعوس أهل
الشرك (ص ٢٧) : إن استقراء التاريخ الإسلامى
يؤكد على حقيقة تبدو شديدة الغرابة أمام المحلل
المهادى ، الذى يحاول استخدام أعظم نعم الله عليه ،
وهى نعمة العقل والمنطق ، هذه الحقيقة مؤداها أن أئمة
الفقه الإسلامى كانوا أكثر من عانى من الحكم السياسى
المتسريل بالدين . وقد يفاجأ القارىء بهذا الأمر ، خاصة
وأن ما ينقل إلينا من صفحات هذا التاريخ إنما يقتصر على
نصيحة من عابد ، أو حكمة على لسان زاهد ، وفى
المقابل لا تجد إلا خليفة يخر ساجداً لله ، أو ييكى خشية

منه ، أو يختصر الأمر فيسقط مغشيا عليه) .

وهذا التشوية واضح أمثل قوله هذا ، ومن غيره ، وإن أقسم في (ص ١٦) على أنه لم يخطر له على بال ، ويزيد وضوحه ما ذكره في (ص ٥١) من تعليقه صمت الرافضين للتيار الديني بأنه الخوف (بعد أن تعلموا من رأس الذئب الطائر ، وبعد أن تنادوا : أنج سعد ، فقد هلك سعيد) .

وهو عصر جمود فكري ، لو عاد لتناقض مع روح العصر ، ومستحدثاته (ص ٥٣) ، (ص ٨٤ ، ١٧٠ ، ١٧٢) ، (إنه عصر الأحجية والتعويذ ص ١٠١) وتطبيق شريعته : « سقوط » « وانغلاقية » (ص ١٨١) ولو تم (فإنه يغرق السفينة بمن فيها) (ص ١٠١) ! .

٢ — تشويه صورة العلماء :

وكما شوه صورة الراشدين ، والسلف ، عاد فشوه صورة العلماء المعاصرين ؛ لأنه لا يتم له مراده ، ولا

تكتمل الصورة التى أراد رسمها وحبكها إلا بذلك ؛
فكتب مقاله : ولا يخلو الأمر من فكاكة (ص ٨٩ —
٩٣) زعم فيه ماسبق تلخيصه بأن د . زكريا البرى
كون لجنة من كبار المفكرين الإسلاميين للاحتفال
بذكرى محمد عبده ، والأفغانى ، والغزالى ، فكانت
اقتراحاتهم — على ماسبق بيانه بتوزيع حلوى : سد
الحنك ، وكشك الفقراء ، والبسبوسة !!

ولا أستمكم سرى أننى عندما قرأت هذا المقال
بهت ، وأحاطت بى الدهشة من كل جانب ، لا لأننى
آمنت بما نقل الكاتب ، وكيف أو من به وأنا أعلم من
دراسة علم فلسفة الأخلاق أن الخبر يأتيك عمن تعلم
فتستطيع أن تعرف صدقة أو كذبة بمعرفتك بالخبر عنه ،
فمن تعرف عنه سلامة الفكر ، ونضج العقل ، فقبل لك
عنه إنه يقترح ، لتكريم مصر تحفيف النيل ، لقلت على
الفور : مثله لا يقوله . ولكن لزمه ذلك الذى زعم
ولكننى لما كنت فى موقف (التجرد) للبحث
قلت : أياكون هذا ؟

إنه على فرض صحتها سيّر من الكاتب على منهاجه في الكتاب كله من التعلق بأقوال الناس ، وأحوالهم ، تاركا الحقائق الذاتية للشريعة ، وتاركا مناهج التطبيق السليم على مر التاريخ .

وإنه - على فرض صحتها - فإما أن يكون هؤلاء القوم مجانين ، وهو ما ياباه وصفهم بأنهم من كبار المفكرين الإسلاميين ، وإذا كان كبار مفكرينا بهذه المثابة ، فما بال من دونهم ؟ !

وإما أن يكون عباقرة أدركوا في الأمر مهزلة فكرية ، وسلوكية ، أو تاريخية ، يراد بها التسلية عن الوقائع المرة ، والتلهي عن الفجيعات القومية ، فعبروا عن نكيرهم بهذا الأسلوب ، الذي لا يخفى على الدكتور الوزير ، وعلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وعلى أى احتمال من هذين فهذه الكاتب من إصغارهم مردود بهذا التريديد العقلي ، كما ياباه مانعروف عن القوم ، وما نقرأ من ثمار أفكارهم .

ولكن لندع التردد العقلي إلى الواقع العملي ،
ولنستوثق من صحة النقل ، ولننظر سياقه ، وسباقه ؛
فإن النص إذا بتر عن سابقه ، ولا حقه قد يعطى غير
معناه .

وقد كان فقد رجعت إلى كتاب د . زكريا البري
(أيها السادة السلام عليكم ورحمة الله) (ص ٣١٩ —
٣٢٧) ، فإذا بالرجل أراد أن يوضح رأيه في ترشيد
الاحتفال بالمولد النبوي ، وإصلاح البدعة التي ابتدعها
الحاكم الفاطمي ليغطي بها مازيف من حقائق الإسلام .
وليقلب على كلمة الأستاذ الدكتور مهدي علام ،
الذي رأى التوسعة على الأهل والعيال مطلب لا بأس به .
فلكى يصل د . زكريا البري إلى غرضه دعاه ذلك ،
عندما ذهب إلى الاحتفال الذي نظمته أمانة الشؤون
الدينية في الحزب الوطني ، والتي كان يتولى رياستها .
ورأس الاحتفال السيد / نائب رئيس الجمهورية ، إذ
ذلك محمد حسني مبارك ، وفقه الله لخدمة الإسلام ،
وحضره النائب الأول لرئيس الوزراء ، إذ ذاك د . فؤاد

محي الدين — رحمه الله — لكي يصل الرجل إلى فكرته في إصلاح هذه البدعة التاريخية عرض عليهم هذه الصورة المتخيلة ، والتي اقترح فيها المرحوم فؤاد محي الدين حلوى (أم على) واقترح فيها مبارك حلوى البسبوسة ، وكانت هي اقتراح البرى نفسه .

عرض الرجل هذه الصورة الخيالية ، ثم عقب عليها بقوله للحاضرين : ماذا يقول الناس فيّ وفي المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وفي هذه اللجان ؟ سيقولون قطعاً : إن رئيس المجلس الأعلى أصيب بالجنون المفاجيء ، هو وأعضاء هذه اللجان ؛ لأن ربط الاحتفال بهذه الصورة غير منطقي ، ولا يفهم مطلقاً . وأنا أقول لكم : إنكم تهمون المجلس الأعلى بالجنون المفاجيء ، هو ورئيسه ، فلماذا تنفذون أنتم قراراً أصدره الحاكم بغير أمر الله ، وقد مضى على قراره قرون متعددة ، ومات وأصبح تراباً ، ويلقى حسابه عند الله ؟ وقد أثرت هذه القضية بسبب هذا الذي جاءني من بلدي ، وحدثني أنهم لا يجدون السكر ... من الذي يصلح هذا

الشذوذ ؟ الحكومة ؟ لو استصدرت من الدولة قراراً بهذا المعنى ، سيقول المنافقون ، والمفسدون ، والرافضون لكل إصلاح . إن هؤلاء كفره فجرة ، ولا يريدون أن نحتفل بمولد الرسول ﷺ بأكل الحلوى ! إذاً ما العلاج ؟ هو الجمعيات والأجهزة الشعبية ... كل شيء له حكمة في الإسلام ، القول بالتوسعة — كما قال أستاذنا الفاضل د . مهدى علام — أهلاً وسهلاً ، فشأن الأعياد — كما قال — أن تتوسع في الطعام ، هذا شيء لا عيب فيه ، لكن أن تكون صيغة معينة ، وحلوى معينة .. وأن يشد السكر بكل الوسائل ، وأن توزعها الوزارات ، والهيئات من الميزانيات — فهذا لا يمكن أن يقره الإسلام ... أردت فقط أن أعقب هذا التعقيب ، لكى أوضح فكرتى في رسالة ترشيد الاحتفالات الدينية ... » اهـ بنصه .

فماذا يقول د . فرج فوده في نفسه ، وكتابه ؟
 أيقول : إنه لم يفهم كلام ، د . زكريا البرى ؟
 أيقول : إنه مجنون ، وشاركه في جنونه المرحوم فؤاد

محى الدين ، ومحمد حسنى مبارك ؟
أيقول : إنه فهم الكلام وحرفه عن وجهه ليصل إلى
مبتغاه ؟
أم ماذا يقول ؟

ليختر لنفسه ما يحلو من هذه الاحتمالات ، وليردد
غيرها ماشاء ، ثم ليجيبنا عن هذا السؤال : أمثل هذا
الذى فهم وحرف ، أو لم يفهم فاستشهد وسخر —
أمثله يؤمن على تحليل ، أو تعليل ، أو حكم ، أو رأى ،
أو قيادة وريادة ؟!

لقد دعا القارىء — ساخراً — إلى أن يتوقف قليلا ،
وأن يتسم كثيرا .

ودعا القارىء أن يتوقف ليضرب — تحسراً — كفا
بكف ، بل — على الدقة — أن يضرب خدا بكف .

وناقش الأمر ، وإن كان ، كما يقول ، لا يستحق
المناقشة ، على ثلاثة مستويات ، أولها : هو حجم
المفارقة بين مناصب من شاركوا في هذه اللجان (ولا

أريد أن أذكر أسماءهم) والاجتماعات العديدة التي
حضرها ، والمناقشات الصاخبة التي دارت بينهم —
وبين ماتمخضت عنه الاجتماعات من توصيات ، الأمر
الذي ينطبق معه المثل الشائع : تمخض الجبل فولد
(بسوسة) !!

ولا داعي لأن أستمّر في عرض المستويين الآخرين ،
اكتفاء بأولها ؛ وهو ساقط قبل سقوطها ، وهي ساقطة
بسقوطه لأسأل عبقرى السقوط : ما حجم المفارقة بين
ما كتبت ، واستنبطت ، وحكمت ، ودعوت ،
وادعيت ، ووزنت ، وفكرت ، وقدرت ، وعبست ،
وبسرت ، وأدبرت ، واستكبرت — وبين ما قرأت الآن
من نص مانقلت ؟

وأخيرة في هذا المقام ، ما ينبغي أن أتركها .

أستحلفك بالله ، الذى حلفت به مرات في كتابك ،
وأشهدته على مافى قلبك ، أفى كلام زكريا البرى أسماء
هذه اللجان ؟! أم أنه ليس هناك أسماء مطلقا ؟! وهل

أنت أكرم موقفاً ، وأرحم رحماً بهذه الأسماء من البرى
إذا كان ذكرها فى كتابه ! فإذا لم تكن هناك أسماء ،
وهذا هو الواقع ، فبماذا تصف نفسك ؟ لقد أردت أن
توهم قارئك بأن الأمر حق ، وما هو بالحق . لقد كنت
أردد احتمالات الفهم أو عدمه لكلام البرى إنصافاً
وتأدياً ، فالآن ، وقد قضى زعمك أن هناك أسماء
أعرضت عنها — على كل احتمال — إلا واحداً بماذا
تحكم ؟

ألا مأحوجك إلى حديد يصف مأنسكت عنه أدياً
وتكرماً ثم مأحوجك أن تراجع نفسك ، فالرجوع إلى
الحق خير من التماهى فى الباطل ، والباطل إلى نفاذ ،
والحق خير وأبقى !

— ومن رغبته فى تشويه صورة المتصلين بالدعوة إلى
الدين عامة مانقله عن مجلة الاعتصام — ديسمبر ١٩٨٤
(ص ٥٣ — ٥٦) من نقد للتليفزيون ، واقتراح
صورة أولية طرحها الكاتب ، كتصور شخصى لما يجب
أن يكون عليه الإرسال المرئى .

وغنى عن البيان أن كاتب (الاعتصام) لا يدعى أن
تصوره أمر ليس بعده بعدد ، ولا قبله قبل ، إنه تصور ،
مجرد تصور يعرضه صاحبه . كما أنه غنى عن البيان أن
مثل ذلك الإصلاح المقترح لا يقوم به فرد ، إنما جماعة لها
علمها ، وفنها ، ولها نصيبها من خبرة الموضوع مع إيمانها
بالقيم الموروثة ، ومعرفتها بالخير المستحدث .

وأرجوا أن يكون عنيا عن البيان الآثار السيئة التي
أحدثها التلفزيون ، واعترفت بها الدولة ، أثر قتل طالب
هندسة المنصورة والديه ، وأسقط وزير الإعلام إعلانات
بمليون جنيه ، لمخالفتها للقيم . ووزير الإعلام ليس من
الدعاة المعتدلين ، بله المتطرفين ، ولا هو من رجال
الدين .

هذه الإعلانات التي ينجذب إليها ٦٣ ٪ بحسب
إحصاء شبكات التلفزيون الأمريكية ، وكما يقول تقرير
اليونسكو رقم ٣٣ عن وسائل الاتصال والإعلام في
العالم الثالث ، والذي يثبت أن نسبة المواد الأجنبية
المذاعة في تلفزيونات البلاد العربية تتراوح ما بين ٤٠ إلى

١٠٠ ٪ ويقول التقرير نفسه إن الأطفال من سن السادسة إلى سن السادسة عشرة يقضون ما بين اثنتى عشرة ساعة وأربع وعشرين ساعة أسبوعيا أمام التلفزيون ، حيث يبدأ عقل الطفل — فى طريق المعرفة — بالاندهاش ، ومع استمرار الدهشة والانبهار يتقدم عقل الطفل إلى مراحل المحاكاة والتقليد ، والتلقين والتعليم ... إلى أن نجد الطفل ، فى النهاية قد تشكلت شخصيته وثقافته ، والتلفزيون هو العامل الرئيسى فى هذا التكوين ، والذي مازالت برامج العربية دون منافسة البرامج الأجنبية صفة ومقدارا . ومهما كانت دقة الرقابة ، إن كان هناك دقة ، فإنها فى النهاية يتسرب منها ، أو تسرب هى ، قيم مجتمع بأكمله يختلف عن قيم المجتمع العربى وأخلاقه : فهذا إعلان عن طفل يعطيه شقيقه زجاجة مياه غازية ، يحتفظ له بها ، ويحذره من شربها ، وما أن يستدير الأخ حتى يشربها الطفل الصغير . وعندما يعود الأخ ليسأله يجيبه بأنها تبخرت . أى أخلاق وقيم يهدمها إعلان مثل هذا ؟!

إعلان آخر يبدأ بإنفجار شديد ، ثم صوت يقول
لك : إنسف حمامك القديم ، واستبدل به حماما آخر من
عند ...

إعلان ثالث عن اكتمال الرجولة بعطر كذا ، وبهجة
الأنوثة لو استخدمت صابون كذا... وسيل من
الإعلانات والمسلسلات ، كلها تثبت ، وترسى قيم مجتمع
يختلف عنا .

أيرى صاحب السقوط تقرير اليونسكو شيخا على
كرسيه معمما من رجال الدين؟ .

أيرى صاحب السقوط منظمة شبكات التلفزيون
الأمريكية إحدى كاتبات مجلة الاعتصام؟! . الله يعلم!

لقد حدثتني سيدة فاضلة تجيد الإنجليزية ، من أرق
بيوتات مصر ، شاكية آسفة ، عن مدى الإسفاف الذي
هبطت إليه بعض ماشاهدت من مسلسلات مستوردة ،
تذاع في شهر رمضان المبارك ، تسلية للصائمين ! أيرى
صاحب السقوط سيدتنا هذه رجعية تفكر بعقلية

السلف؟! الله يعلم!

وعلى أية حال، وفي ختام هذه المسألة أقول: إذا كانت هذه الصورة، وذاك التصور الذى قدمه كاتب مجلة الاعتصام ساذجا، ضاربا فى السذاجة بأطناب، فليس هو دون تصور صاحب السقوط لرسالة المسجد، تلك الصورة التى لايعرفها الإسلام، والتى جمعت بين المسجد والكنيسة فى قرن واحد (ص ١١٢ من كتابه).

— واستمرارا من الكاتب فى التشويه، واجتهاده فى تتبع الهنات ينقل عن عدد مجلة أكتوبر، الصادر فى ٦ من يناير سنة ١٩٨٥ ص ٥٠ من حديث الكاتب إبراهيم مصبح قوله: وبينما أنا أقلب صفحات أحد الكتب إذا بى أجد كلمة لحكيم الصين (كونفو شيوس) وترجمتها: «عندما رغب الحكماء الأقدمون أن يعمر العالم «بالإسلام» سعوا أولا إلى إصلاح بلادهم، وقبل أن يصلحوا بلادهم أصلحوا من أسرهم، وقبل أن يصلحوا من أسرهم أصلحوا من أنفسهم وقبل أن يصلحوا من

أنفسهم حاولوا أن يكونوا مخلصين صادقين في أفكارهم،
وحاولوا أن يروا الأشياء على حقيقتها تماما» .

ثم يعقب على ذلك صاحب السقوط بقوله
(ص ٩٣): ويبدو أن الأستاذ مصبح يستهين كثيرا
بذاكرتنا التاريخية، وأستبعد بالطبع أن يكون سيادته
جاهلا بأن كونفوشيوس قد مات قبل أن يظهر الإسلام
بأكثر من ألف عام، ليس هذا فقط، بل إنه على يد
الأستاذ مصبح يتحدث عن الإسلام باعتبارها ديانة
للحكام الأقدمين .. وسبحان من له الدوام!

والعبارة المنقولة — بصرف النظر عن لفظ إسلام —
صحيحة المعنى في التعبير عن فلسفة كونفو شيوس
العملية، التي تبتدىء من الفرد، وتنتهى إلى الجماعة،
والتي تقوم على (الواجب) والتي سبق بها الفيلسوف
الألماني (كانت)، وعلى محاسبة النفس، وعلى الفطرة،
وعلى القدوة التي يقول فيها: كلما سرت بين رجلين
وجدت لنفسى أستاذين: من له فضائل فهو قدوتي، ومن

له ردائل فهو عبرتي» والتي يرى فيها (كونج فوتسيه) وهذا هو اسمه قبل تغيير الأوربيين له إلى (كونفوسوس) — يرى أن أمور الدولة لاتستقيم، وأمر حاكمها على عوج ويقول في ذلك: إن أخلاق الرؤساء كالريخ، وأخلاق المرء وسين كالعشب، وإلى أية جهة هبت الريح مال العشب».

لم أقصد بهذا الإجمال عرض فلسفة (كونج فوتسيه) الأخلاقية العملية، إنما قصدت إلى أن الأوربيين المسيحيين، بعد جهل طويل بماضي الصين، وإتهامهم إياهم بأنهم ليست لهم فلسفة، ولا لون خاص من ألوان الفكر الإنساني، ولا منهج خاص من مناهج السلوك — تبين لهم بعد الكشف الأثرية غير ماكانوا يهتمون الصينيين به، وقرروا أن الصينيين لابد أن يكون بعث فيهم رسل؛ ولهذا أخذ الأوربيون هؤلاء يوازنون بين التوراة والكتب الصينية، واعتقد المبشرون المسيحيون أن الإله أوحى إلى الصينيين، كما أوحى إلى الإسرائيليين، وأن (شانج-تي) هو الرب المذكور في الكتاب العبري

المقدس. كما اعتقد الأوربيون أن الوحي امتزج، من ناحيته العملية بفلسفة «كونفوشيوس» الذى كان يرى أن الدرجة العليا فى المعرفة هى درجة الرجل الذى تلهمه السماء (راجع تاريخ فلسفة الأخلاق لأستاذنا المرحوم محمد يوسف موسى، والفلسفة الشرقية لأستاذنا المرحوم الدكتور محمد غلاب، ومقارنات الأديان ح ١ لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة).

بعد ذلك ليس بالبعيد أن تكون كلمة (إسلام) الواردة فى مقال الأستاذ مصباح ليست ببعيدة إذا ماأخذت بمعناها اللغوى، الذى كان — بمعناه الدينى العام — القاسم المشترك بين أديان السماء. وإن كانت تصحيفا لكلمة (السلام) فالأمر أيسر، وهى فى الحالين ليست من الحق ببعيد، إلا على الذى يتبع السقطات، ويلمس العورات، ولا يستأنى فى النقل وتفهم مراميه، ورده إلى أصوله، بل يعرض عن ذلك إلى السخرية التى لا علاقة لها فى البحوث العلمية، ولا العقلية المنطقية، التى لايفتأ الكاتب يعلنها عن نفسه (ص ٩٣).

— ومن هذه (التلمسات) التى يتتبعها الكاتب ، من غير أن يكون لها كبير شأن فى البحث العلمى مذكره (ص ٥٩) نقلا عن جريدة (اللواء الإسلامى ع ١٥٢) من قول د . عبد الغنى الراجحى من أن « دارون » يهودى ، مع ماهو . معروف من أنه مسيحى ، ويرى صاحب السقوط الخطر فى كلام د . عبد الغنى الراجحى من أن الحكم على الفكر يصدر أساسا من منطلق اختلاف الديانة ، ويرى أنه منهج خطير ، كما يهتمه بأنه لم يقرأ نظريات ماركس وفرويد ، ودارون » .

والعجب من الكاتب أن يرى الخطورة ههنا ، من المسلمين ، ولا يرى مثلها فى كتابات المستشرقين الذين جهدوا دهورا يشوهون الإسلام لذويهم ، ويشككون المسلمين فيه ، بعد أن باعوا بالخسران المبين فى حربته صليبيا . ولكن لاعجب إذا علمنا — وقد علمنا — أن الكاتب يحرف الكلم عن مواضعه ، وببتره سوابقه ولوأحقه ، ويسكت عن شهادة الحق التى شهد بها للإسلام أعداؤه على نحو مانقل من كلمة الأستاذ

مصبح، وسكت منها عن نقله شهادة (برناردشو) للإسلام، التي يقول فيها: لن يحيا العالم من موته إلا بتعاليم الإسلام، ونحن نعلم قبلا، و (شو) مازال حيا أنه قال عن محمد ﷺ: مأحوج العالم إلى محمد؛ ليحل مشكلاته وهو يشرب فنجانا من القهوة، ولا أظن أن الكاتب صاحب السقوط لم يعلم بكتاب: الخالدون مائة أعظمهم محمد، ولكنه بطر الحق، وغمط الخلق، ونعوذ بالله من الجحود!!

والحقيقة في كلمة د. الراجحي أن نظريات ماركس وفرويد ونيتشة ودارون من تدبير اليهود، بصرف النظر عن دينهم، واعترف بذلك بروتوكولات حكماء صهيون التي هي عبارة عن مؤامرة شديدة ضد البشر، وقد جاء في البروتوكول الثاني مانصه ثم نعود إلى أغراضه المعينة، والتي منها:

٣ — محاربة الاتجاهات الدينية الإسلامية :

وهو في هذه الدعوة يطلب أن يكون التصدى لهذه

التيارات (المختلفة) بقوة الكلمة ، وقوة السلطان .
يقول في (ص ١١٢) : إن « الإرهاب » لا ينمو
بصورة ذاتية ، بل يتواجد بقدر مانتيج له من مناخ ،
ويتوالد بقدر ما تراجع أمامه ، ويقوى بقدر ما يخاف ،
ويعلو صوته بقدر خفوت أصواتنا ، ويزداد رصيده
بقدر ما نسحب من حساب الشجاعة في بنك المستقبل .

ويقول (في ص ١٨٧) : يبدو غريبا ذلك التناقض
بين المصالحة مع تنظيم متطرف مثل الجهاد ، بالإفراج عن
جميع المتهمين في إحدى قضاياهم .. والأسوأ من ذلك
خلق انطباع إعلامي عام إيجابي بالنسبة للتيار الإسلامي ،
والمنع ، والسماح ، بلا سبب ، أو استجابة لاحتجاج
يأتى من بعض الاتجاهات الدينية ، !!

وفي (ص ١٠٤) يبين أنه يجب التحالف لمواجهة
التيار الديني ، والرياح الإيرانية القادمة من الشرق
(ص ١٠٩) الحملة بالجمود والتخلف .

وفي (ص ١١٠) يؤيد القانون الذى يمنع خطباء

المساجد من التعرض بالنقد ، أو حتى النصيح ، لأى
جهة من جهات الإدارة العمومية .

حتى الأذان بالمكبرات ، وتواشيح الفجر لاتسلم من
مهاجمته فى (ص ١١٣) .

٤ — هذا ، وهناك هدف معين أثبتته ، ووددت أن
أسقطه .

وهدف أكبر وأبعد أسقطه ، ووجدت أنه من الغفلة
أن أتبعه ، ومن حق لليقظة أن أثبتته :

أما الأول : ففتبعه ماذكر من تاريخ الراشدين ليثبت
(أن الإسلام لم يتنزل على ملائكة ، وإنما على بشر
مثلنا ، بعضهم جاهد فارتفع ، وبعضهم أرهقه
الضعف .. بهذا الفهم يقتربون منا ، ونقترب منهم ..
ويلتصقون بوجداننا أكثر بكثير من أن نقرن أفعالهم
بالمبالغة ، أو نقرن صفاتهم بالتقديس ، أو نقرن حياتهم
بالمعجزات — ص ١٦ — ١٧) .

يا لها من معركة من غير معترك !
ويا له من معترك من غير معركة !
فمن الذى قال إن الإسلام تنزل على ملائكة ؟
ومن الذى نسب المعجزات إلى غير الرسل ؟

إن رأس الدولة المسلمة ، ونيها يقرر القرآن
بشريته ، ويثبت لومه أحيانا ، والعتب عليه أحيانا ،
والعفو عنه أخرى .. كل ذلك تأكيداً لبشريته ، وتحقيقاً
لنبوته .

ثم من الذى أنكر عليك يا صاحب السقوط أنك
تقرب من عظماء السلف ، بل ومن أبى بكر وعمر
وعثمان وعلى ومعاوية ؟ ! .

ألمست تصمّد للتيارات الدينية التى عمت مصر ، كما
ثبت الصديق لحركة الردة التى عمت الجزيرة ؟ ! .

ألمست أنقذت عرب الشام من الإرهاب الصهيونى ،
كما أنقذهم الصديق من الإرهاب الرومانى ؟ ! .

ألمست يا صاحب السقوط أزلت « الروسيا » من

الشرق ، وزلزلت « أمريكا » من الغرب ، كما أزال
عمر ، وزلزل ؟!

ألست ياصاحب السقوط قد جعلت — وأنت
دكتور الاقتصاد الزراعى — لكل فرد فى مصر رزقا
معلوما فى خزانة الدولة ، كما فعل عمر ، هذا الذى لم
يحصل حتى على الابتدائية

لماذا ترى بنفسك هكذا يارجل ، وتثير معركة من
غير مقاتل ؟

هل ينكر عليك أحد أنك ثابت لفتنة التيار الدينى ،
حتى لايشمل الدولة ، ويكون مثلا سيئا مضروبا ، كما
ثبت عثمان ، أمام فتنة الطغام ، فلم يخلع ثوبا ألبسه الله
إياه ، حتى لا يكون سابقة غير حضارية لكل من يشغب
على النظام ، ويفتقد كلمة الحكمة ؟!

وخبرنى — بصدق — من الذى ينكر عليك
شجاعتك فى الثبات ، والثبوت أمام الحق الذى يعتقد ،
فى مقابل الخارجين على الدولة ، الذين يبعونها عوجا ،

ويبيعونها زهداً ، ويجرونها القهقري ليرجعوا بها إلى أكثر
من ألف عام ... كشجاعة على بن أبي طالب فيما اعتقد
أنه الحق ، وأيدته فيه الأمصار !

ونبئني — بعلم — ألسنت في ذكاء إياس ، وإقدام
عمرو ، وحلم معاوية ، وأنت تحاور بالكلمة لاتحرفها ،
وتحفظ مصر لانتكس ، وترخي الشعرة بينك وبين
(المعتدلين الإسلاميين) ؟!

أو لست تؤمن (بمصر الإسلامية ، القبطية ،
العربية ، الفرعونية البحر متوسطة . ص ١٠٨)
(مصر الكرنفال) — كما آمن عمرو ومعاوية بها
وبعروبتهم ، كما علمهم الإسلام ، فأزاحوا الروم عنها ،
وحموا شواطئها المتوسطية شمالاً حتى صقلية ، وغرباً
حتى برقة ؟!

أو لست قد بسطت جناحي مصر حتى وصل إلى
أقصى الشرق ، وأقصى الغرب ، ومددت يديها حتى نالتا
مدينتي (ليون) (وفيينا) كما فعل السلف ؟!

أو لست تنعى على هؤلاء الدينين تبادرهم إلى
القوة ، بدل الكلمة ، وتقوم أنت بنشر الأسلوب
الحضارى — كما فعل أسلاف للمسلمين نشروا القيم
الإنسانية ، حتى أغرت شعوب الأرض بصفاء نورها ،
قبل أن ترهقهم السيوف بنارها ١٩

أو لست تدعو إلى حفظ الحضارة بالقضاء على الدين
دولة — كما فعل أسلاف للمسلمين حفظوا لنا الإسلام
حتى وصل إليك ، وما زال بخير ، على حد اعترافك فى
ص ٨٢ ، والخطر كل الخطر على الإسلام إنما هو من قبل
هؤلاء الدعاة الذين يريدون له أن يحكم — أو لست
تحفظ على الإسلام حرمة ، وحضارته ، كما فعله هؤلاء
الأسلاف حتى وصل إلينا وما زال بخير ، وحتى شهد له
د . نظمى لوقا ، وهو غير مسلم فى كتابيه : محمد
الرسالة والرسول ، ثم فى : والمحمداه . وحتى أسلم على
حضارته فيلسوف فرنسا (رجاى جارودى) .

أو لست رجلا متفتحا ، ومنفتحا ، لامنغلقا كهؤلاء
الدعاة ، حضاريا ، إنسانيا ، تدعو إلى القومية المحلية ،

والمصرية الفرعونية ، كما دعا السلف إلى الأخوة الإنسانية ، التى لم تفرق باللون ، ولا بالجنس ، ولا بالعرق ؟ عزمت عليك يارجل ، أيكما الحضارى الإنسانى ؟ ! .

ألست أنت الذى تدعو إلى الفرعونية « المتقدمة » سبعة آلاف سنة إلى الوراء ، بينما هؤلاء (الجامدون ، المتغلقون) يدعون إلى ألف سنة ودون النصف إلا قليلا ؟ ! .

ألست تدعوهم إلى النجاة ، ويدعوننا إلى النار ؟
ياصاحبى أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ .
ياصاحبى ، ألست تفتتح على حضارة العصر ، كما انفتح أسلاف المسلمين على حضارة الدنيا ، واستخرجوا كنوز المعرفة ، وفعلوا فيها مايفعل النحل برحيق الزهر ؟
فأنتنى من ذا الذى ينكر عليك أنك تقترب من السلف ، بل من ذا الذى ينكر عليك أنهم يقتربون منك ؟ ! .

ياصاحبي ، إن بينك وبينهم — فوق كل ذلك —
رابطة الدم : أنت تبذل دماءك ، ودماءك من أجل مصر
وفرعونيّتها ، وهم بذلوا دماءهم ، ودماءهم ، وأمواهم
في سبيل الله ، وعقيدته وعالميتها ، فأى الفريقين خير
مقاما وأحسن نديا ؟! .

لقد كان غرض السلف من هذا البيع وجه الله ،
باعوا لأجله حتى الحياة ، أما أنت — وهذا هو هدفك
الأكبر ، والأبعد ، ومقصودك الأسنى : الطموح
السياسي ، الذي من أجله دخلت حزب الأحرار ، ثم لما
ظننت خواء مائدته ، ملت إلى حزب الوفد ، فلما أطار
حلمك ، وحلم مولاك الذي في الجيزة ، استقلت ؛
لتكون حزب المستقبل ، فلما فشلت ، كتبت قبل
السقوط ، وبعد السقوط ، فأى الفريقين أحق بالأمن ،
إن كنتم تعلمون ؟!

ثالثا وسائلهم ووسائله :

لقد كان للسلف وسائلهم في السلم والحرب ، تلك

التي فتحت القلوب ، ودهش لها الأعداء ، وعجب لها الصليبيون ، والتي لا أثقل عليك بسردها ، فأنت بها خبير حين فتشت ، ونقبت في التاريخ الإسلامي الطويل ، فلم تجد إلا السيف والنطع ، والسياف « مسرور » وإلا النجاء مع سعد بعد أن هلك سعيد .

أما أنت فما أسمى خلقتك ، وأعلى شرفك ، وأعلى سرائرك ، وأجلى ظواهرك :

إنك تثير على مواطنيك في مصر ، لأنهم يخالفونك الرأي :

تثير عليهم الساسة كما في صفحات ٤٠ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ١١٢ ، ١١٣ .

وتثير الحكام كما في صفحات ١٧٤ — ١٧٦

وتثير الناصريين كما في صفحات ١٦٦ .

وتثير اليساريين كما في صفحات ١٧٤ — ١٧٧

وتثير الأحزاب السياسية ، الظاهرة والخفية ، كما في

صفحات ١٨٥ ، ١٨٧ .

وتثير الأقباط ، كما في صفحات ٨٣ ، ٨٥ ، ١١١
وتثير المثقفين كما في صفحات ٨٢ ، ١١٠ .
وتثير الأغنياء كما في صفحات ١٦١ — ١٦٦ .
وتثير الفقراء كما في صفحات ١٧٤ .
وتثير العلماء الرسميين كما في صفحات ٦٣ ، ٦٦ ،
١١ .

وتثير مجلس الشعب كما في صفحات ١٠٠ ، ١٠٢ ،
١٠٣ ، ١١٤ .

وتثير الشعب عامة كما في صفحات ١١٠ — ١١١ ،
١١٣ — ١١٤ . !!

يا لك من خصم شريف ، وداعية وحدة منيف !!
ثم وإنك إن نسيت لم تنس أصحاب الشهوات ،
ورواد شارع الهرم (ص ٥٣ — ٥٥) فيالك من زعيم
يشبع القرم (= شدة شهوة اللحم) .
ويا لك من سيد قرم (= مُكرم) .

رابعاً : نتائج :

ويترتب على مقاصد كاتب السقوط ووسائله نتائج ،
إن لم تكن مقصودة فهي لازمة لوسائله ومقاصده ،
منها :

١ — هدم الإسلام كله ، عقيدة وشريعة

لأن الإسلام جسد واحد ، إذا شطرت مات ،
فالأحكام العملية فيه ليست منفصلة عن الأحكام
الاعتقادية ، ومن آمن بالاعتقادات ، والأخلاقيات ،
والعبادات ، ورفض العمليات ليس بالمسلم على
التحقيق .

لقد كان أبو جهل أذكي فكراً ، وأسمى عبقرية عندما
عرض الرسول ﷺ على الملائكة من قريش أن يقولوا
(كلمة) كلمة واحدة تضمن لهم عز الدنيا ، ونجاة
الآخرة ، فوثب إليه أبو جهل وقال له : وعشر كلمات
وأبيك . ماهي ؟ فقال ﷺ : أن تقولوا : لا إله إلا
الله ! فنكص أبو جهل على عقبيه ، ونكس على رأسه ،

أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب !

لقد كان أبو جهل أفهم لمدلول تلك الكلمة ،
وماتقتضيه من تغيير يشمل حياة قائلها في قلبه ،
وفكره ، وعمله ، وعلاقته بالأشياء والناس ! إنها كلمة
ذات حقوق تقتضيها ، وواجبات تفرضها ، وليست
كلمة تلفظها الألسن ، أو تحتزنها القلوب ، إنها فارقة
الفوارق بين المسلم عقيدة ، وعبادة ، ودنيا ، وآخرة ،
وبين غيره إنها الكلمة التي أزيلت من أجلها دول ،
ودالت بها نظم ، وبذلت في سبيلها مهج ، وأزهقت في
حبها أرواح ، وقضت في كرهها أخرى .

إنها ليست نغمة حَلَقَات ، ولا ترنيمه ذكر ، ولا
(آهة) تهالك ، ولا ترتيلة مسابح .

إنها قضية الدنيا ، وحقيقة الآخرة .
إنها قضية الأعمال ، لا قضية الأقوال .

إن مسألة الأحكام العملية الإسلامية سواء منها
ما يتعلق بالفرد ، أو الجماعة ، أو القضاء ، أو السياسة ،

أو الحاكم أو المحكوم .. إنها طبيعة الإسلام ، إنها حقيقة ،
إنها خصيصته ! إذا تحققت كان الإسلام هو الإسلام ،
وإذا لم تحقق لم يكن الإسلام الإسلام ، أو كان — فى
أحسن فروضه — إسلاما إسميا لا مسمى له ، وشكليا
لاجوهر له ! .

٢ — ومن هذه النتائج : تشتيت المسلمين ، فلا
تجمعهم جامعة ، ولا تربط وجدانهم رابطة ، إذ كان
الإسلام من جانبه المعنوى رابطة إخاء ، ومؤلف قلوب .
وكان من ناحية المادية يحقق كيان حى جامع تعيش
فيه أُمم وشعوب حفظها ذلك الكيان المادى المتماusk ،
على مَرَّ الغداة ، وكرَّ العشى من الشعوبية الفارسية ،
والعصبية الصليبية ، والهمجية التترية .

وضياع هذا الكيان المعنوى ، هو الذى مكن دول
الاستعمار ، بعد الحرب العالمية الأولى ، من تمزيق الكيان
المادى واقتسامه بين ذئاب البشر وضياع هذا الرباط
المعنوى الذى مكن لليهودية وقصنها حاضرة لا تحتاج إلى

بيان .

٣ - ومن هذه النتائج التى تثمرها دعوة صاحب السقوط ، تحقيق أمل الاستعمار فى القضاء على الإسلام الدولة ، والقضاء على الإسلام الجهاد . ندعو إليه نحن بألسنتنا ، ونروج له بأقلامنا ، ونقسم عليه بأرواحنا ، ونغذيه بقدراتنا ومواهبنا ، وإنه لحق :

مايلغ الأعداء من جاهل

مايلغ الجاهل من نفسه

إن وحدة المسلمين أمر تقتضيه عقيدة الإسلام ، ويحول دونها العداء ، والجهل ، والتجاهل !

ولا عجب :

ونحن لانعجب من هذه الخصومة التى توجه إلى الإسلام ونظامه ؛ لأن الإسلام عقيدة ذات فاعلية وتفاعل ، الإسلام عقيدة حركية ، وليس عقيدة سلبية ، أو استسلامية ، مقرها الضمائر والمساجد ، وإنما مستودعها القلوب ، ومستقرها الأرض جمعاء .

وأعداء الإسلام يعلمون عنه ذلك علما ؛ لذلك
يبتغون صرف أهله عن حقيقته ، إلى مظهريته ، إلى
فروض ميتة ، واختيارات صامته ، مستقرها ومستودعها
الضمائر لاتعتدوها .

ولأن الإسلام بمعناه الصحيح يصطدم بخرافات
سياسية ، ونظم اجتماعية ، ترتبط بها مصالح دول ، أو
جماعات ، فلا بد أن يناهضوه ! .

ولأن الاسلام بمعناه الصحيح سيقضى - ولا شك -
على مطامع «أفراد» .مكن لهم الاستبداد، والغفلة،
والاسلام، أو غير ذلك، فكان لابد لهم أن يعارضوه!
ولأن الإسلام الصحيح ، يحرر العقول من الأوهام ،
والقلوب من عبادة الخرافات ، ولأنه لايقف عند النظرة
الإقليمية ، ولا القومية المحلية ، ولا يرضى عن النظرة
الطبقية ، ولأنه يخارب الاستعمار فى جميع صوره ،
ومنها ، ومن أخطرها : الاستعمار الفكرى ، الذى
عشش فى بعض الأذهان — لأن الإسلام كذلك ، كان

لابد لعيب هذه الآفات من معارضته .

ومن جهلت نفسه قدره
رأى غيره فيه مالا يرى

إن هذه النتيجة ، التي تعارض الإسلام ، وتجافى حقيقته ليست جهد فرد ، ولا جهد جماعة ، إنها ثمرة جهود متضافرة : من الاستعمار العسكرى ، والفكرى ، والجهد الاستشراقى ، والعداء الصليبي ، ونظم سياسية ، واجتماعية مجافية للإسلام !
كما أنها ثمرة لجهل المسلمين بعامة ، وضعف علمائهم
بخاصة !

وأشد من هذا الجهل ، وهذا الضعف ، أن نتجاهل الجهل والضعف ، فيصل أعداء الإسلام ، وهم أعداء أنفسهم ، إلى غايتهم من حرب الإسلام ، فيالها من مطابقة .
مطابقة :

على أنه لا يهتنا من مقاصد كاتب السقوط ، سواء

منها الأساسية ، أو الفرعية ، والمقصودة ، أو اللازمة .
بقدر ما يهملنا المطابقة بينها وبين أغراض أعداء الإسلام ،
من الاستعماريين ، والجاهليين ؛ لأن هذه المطابقة توجد
تعاوناً مقصوداً ، أو غير مقصود بين (مسلمين اسميين)
وأعداء الإسلام والمسلمين . وأى مطمع لعدو محارب ،
في الظاهر ، أو الباطن فوق ذلك ؟

إنها خيانة مكشوفة حاسرة ، أو مستورة مقنعة .
للإسلام ، والمسلمين ، وللوطن والمواطنين وينجلي هذا
التعاون في كتاب السقوط في مواضع متعددة . مما
سبق تحديد مكانه منه .

خامساً : فليقترب الكاتب منا خطوة .

سؤال منطقي أتوجه به إلى صاحب الأسلوب
المنطقي في كتابه قبل السقوط :

إن الملزوم لا ينفك عن لازمه ، فإذا كان قيام الحكم
الإسلامي يستلزم الظلم ، والاستبداد ، والكهانة ،
والقتل ، والقلق ، فهل زالت هذه المظالم والآثم عنا ،

وقد تخلينا عن الإسلام الدولة ؟

فإذا كان الجواب الصحيح أننا في ظل الحكومات المدنية الأوروبية التي يستمسك بها الكاتب لم يسلم من ذلك كان مازعم من التلازم بين الحكم الإسلامى وهذه المفاسد باطلا .

وتعين أن يكون لها أسباب أخرى ، الإسلام أول من يخاربه ، ويخض على مقاومتها ، وبذلك يتبين أن الربط بين حكومة الإسلام وهذه الآثام ، ربط بين نتيجة لاتؤخذ من مقدماتها . إنه على التحقيق ، والتدقيق ربط بين نقيضين .

وضعف الرابطة بين المقدمات والنتائج سمة عامة في استنتاجات الكتاب كله ! سوف أخصها بمقال ، إن شاء الله .

فإذا ماصح أن ترك الإسلام الدولة قد جمع على المسلمين ظلما أشد وأنكى ، وهو ضياع أوطانهم وذهاب سلطانهم ، وتحكم أعدائهم ، وتشويش

فكرهم ، وإضعاف صلتهم بدينهم ... فأى إخلاص يدعوا إلى ترك الإسلام الدولة ؟ وأى مخلص يؤمن بذلك ، فضلا عن الدعوة إليه ؟ فضلا عن القسم على بذل النفس في سبيله ، والتصدى لممانعه الأكبر والأول ، ألا وهو تطبيق شريعته ؟!! .

إن رفض الإسلام الدولة ، لهذه المخاوف (الاحتمالية) والتداعيات الخيالية ، التى يثبها الكاتب فى كتابه بئى ، كمثل من يرفض الإيمان بالله لمجرد فرضيات ذهنية بعدم وجوده ، فهو يطلب ، لكى يؤمن ، أن يرى الله جهرة ، وأن يكلمه كفاحا!! .

وإن مثل رفض الدعوة إلى الإسلام كمثل رجل لا يهتدى طريقه ، لقى جماعة تدعوه إلى الهدى ، فأبى عليها ؛ لاحتتمالات ذهنية ، وسوس إليه بها شيطانه .

سادسا : عوامل تكوين الجماعات الدينية :

والكاتب — على عادته فى ضعف الرابطة بين مقدماته ونتائجه — يعود بأسباب وجود الجماعات

الدينية إلى أسباب ، لوصحت . لكانت عوامل تقوية ،
لأعوامل وجود ، ويدعى عدم وجودها في ظروف قومية
كثورة ١٩ ، ومعاهدة ٣٦ ، والاستقرار القومى في
خمس السنوات الأولى من حكم الملك فاروق

ومن المؤكد أن الشعور الدينى كان من أكبر أسباب
إشعال الثورة القومية سنة ١٩
ومن اليقين أن أكبر جماعة دينية معاصرة كان تكونها
إثر معاهدة سنة ٣٦ .

بل إنه من اليقين أن الشعور بالرابطة الدينية ،
والدعوة إلى الجامعة الإسلامية كانت منذ أواخر القرن
الماضى ؛ لشدة وطأة الاستعمار ، وتربصه بإرث
(الرجل المريض) : تركيا ، إلى عوامل كثيرة تلت
ذلك ، منها :

١ - شعور العرب والمسلمين بفقدانهم استقلالهم
السياسى .

٢ - شعور العرب خاصة بالخدعة الاستعمارية

عقب الحرب العالمية الأولى ، وإضاعتهم الخلافة الإسلامية ؛ لخِلافة استعمارية ، فإذا الحلم خديعة ، وسراب بقية ! .

٣ — والمؤامرات الصهيونية ، وتحالفها مع الاستعمار على سلب قلب الوطن العربى ، وتمزيق جسده .

٤ — وفشل الحكومات التى قامت على نظام أورنى ، وعجزها عن تحقيق آمال الناس فى الداخل والخارج .

٥ — وواضح أنه كان بمصر ، والهند حنين قوى إلى عودة الخلافة ، فى إحداها ، بعد القضاء عليها فى تركيا فى عام ٢٣ .

٦ — والمآسى السياسية والاجتماعية التى تلت قيام ثورات عربية .

٧ — والعجز عن حل قضايا الاقتصاد على أساس استقلالى بعيد عن فشل التجارب الشرقية والغربية .

٨ — وفشل النظم التعليمية والتربوية ، وعجزها عن
تخرج مثل طيبة أمام الشباب ، وعجزها عن تربية
الشباب تربية تجعلهم ذوى قدرة على مواجهة الحياة ..
٩ — ثم ظهور المثل السيئة بعد الاستقلال
السياسى.، والتي كانت الأمور بيدها ، والتي تحقق على
أيديها آثام تؤود الجبال ، فى مجالات التسلب ،
والسلب ، وإهدار كرامة الإنسان .

١٠ — والفوارق الاجتماعية الشاسعة ، وما يتمتع به
الحكام من النعمة والترف .

كل ذلك ، وغيره ، دفع أجيالا من الشباب ،
والمصلحين إلى الدعوة إلى إحياء القيم الإسلامية ، تغذيها
مشاعر الدين ، وعقلانية الإسلام .

وليس هناك تلازم (دينى) ، (ولا إسلامى) ،
(ولا عقلى) ، ولا تاريخى بين ماكان ، أو ماقد يكون ،
من خطأ ، وبين قيام حكومة على أساس من هذه القيم .
كما أن الدعوة إلى إحياء القيم الإسلامية ، والمبادئ

القرآنية ، والسنة المحمدية ، ليست دعوة إلى نبذ العصر ، وعلومه ، ولا هي دعوة إلى العود إلى منهاج الحياة اليومية للسلف .

واستشهاد الكاتب بمظاهر بعض الشباب المتدين (ص ٢١ ، ٥٣) من استعمال للسواك ، وتكحيل العينين ، والتسمي بأسماء السلف ، وروح الرفض للحياة — هذا الاستشهاد ، الساخر ، وقوف عند ظاهر الأمر ، وقصور عن التعمق في أسبابه ، وبواعثه ، وفهم سيئ ، وتجاهل للحقيقية الإسلامية ، والتاريخية ، شبيه به حكمه على الحركات الإسلامية ، والتي سكنت ، عامدا ، عن مثيلاتها في الشرق الإسلامي ، والغرب الأفريقي ، والعمق السوداني .

ولا يقل عنه في السوء ، والتجاهل ، اتخاذ مقتل عمر ، على يد مجوسي — باعتراف الكاتب — حاقداً على دولة أضعفت مجد بلاده ذى الآلاف من السنين . ومقتل عثمان ، على يد متطرفين — باعترافه أيضا — ولا حوادث الفتنة التي عز فيها على كثير معرفة موقع الحق ، يشهد

لذلك عبارة سعد بن أبي وقاص . لأقاتل حتى تأتوني
بسيف له عنان ، ولسان وشفتان فيقول : هذا مؤمن ،
وهذا كافر ، والتي ساقها الكاتب تحت عنوان الفصل
الأول ؛ ليحرف بها الكلم عن مواضعه ، فإن ابن أبي
وقاص لم يقل ذلك نفورا . من الحكومة الإسلامية ، وهو
أحد عمدها القوية ، منذ قاتل وهو صبي في أحد ، إلى
أن أдал ملك فارس في القادسية ، وشق طريقه إلى
المدائن . إنما كانت قولة سعد علاجا سلبيا للفتنة إلى
جانب العلاج الفكري الإيجابي الذي أجراه الإمام علي ،
وابن عباس ، ثم العلاج الحربي الذي اضطروا إليه
اضطرابا ، ولم يكن منه بد .

لقد كان الأخرى ، والأولى ، بالكاتب ، لو كان
منصفا حقا ، أن ينظر إلى إيجابيات التاريخ الإسلامي ،
وإلى حقائق الإسلام الذاتية ، التي شهد بفضلها
منصفون غير مسلمين ، وأن يدعو إلى العود إلى هذه
القيم ، واقتراح الضمانات المانعة لما ذكر من سلبيات ،
تبين لنا أنه لا تلازم عقليا ، ولا طبيعيا ، ولا واقعا بينها

وبين حكومة إسلامية .

إن كاتب السقوط — على غير قصد ، أو عن قصد ،
الله يعلم — يرفضه للحكومة الإسلامية ، داعية قوى إلى
الإبقاء على هذا الفشل السياسى ، والاجتماعى ،
والثقافى ، والاقتصادى والعسكرى ، وتمزيق الكيان
العربى ، والإسلامى ، الذى يعانى منه العرب
والمسلمون ، والذى يعطى الفرصة المهيئة لتحقيق آمال
يهود ، وأمانهم التوراتية .

كما أنه — عن قصد ، أو غير قصد ، الله يعلم —
يعمد إلى (تبسيط لتحليل الأمور ، عابه عليهم
(ص ٢١ ، ٢٢ ، ٥٧) فى وقائع تاريخية معقدة
الصلات ، متشابكة الأطراف ، لها جذور تضرب إلى
ماقبل الإسلام ، ولها فروع تسمق إلى كيد الأمم الكبرى
التي أذهب المسلمون وجودها ، وتتصل بتغير الأحوال ،
والأماكن ، وتفاعل الحضارات ، والفلسفات التي
واجهها المسلمون ، لم تلبث بعد هذا التفاعل أن

استقرت قواعدها ، واستوت على سوقها ، واندفع المسلمون في ظلالها الرطبية ، وقيمها المكيمة ، ومبادئها الفريدة — يفتحون أطراف البلاد ، وقلوب العباد ، وقيمون حضارة إنسانية عامة للبشرية جمعاء ، لم يعرف لها التاريخ مثيلا في سمو قيمها ، وسرعة انتشارها ، مما جعل فيلسوفا أوريبا ، لم يسلم هو رينان يعترف بعجزه عن معرفة سر هذه السرعة التي لم ير التاريخ مثلها ، والتي دفعت جارودي إلى الإسلام ، بعد تجارب — طال زمانها — أربعين عاما ، تساوى وحدها عمر كاتب السقوط ، وعلماء غربيين يعترفون بسبق المسلمين عليهم في مجالات العلوم ، ومن أمثال (كاربنسكى) و(مارتون) فضلا عن دائرة المعارف الإنجليزية التي عكف على كتابتها خمسون عالما مسيحيا (راجع : الفكر العلمى ، محاضرات لأستاذنا د . عبد الجليم منتصر ، وأيضا كتابة : العلم فى حياة الإنسان)

ليست هذه هى دعواى إذن ، فليتنظر صاحب السقوط مقدار ماعنده من ججود !!

وليست هذه تفسيرات (رجال الدين) الذين يزعم الكاتب أن له فهما يخالف فهمهم (ص ١٦) وليستمع إلى شهادة مصرى معاصر ، ليس كذلك (رجل دين) ينفر الكاتب منه ، ومن فهمه ، يقول د . يوسف إدريس فى أهرام ٦ مايو سنة ١٩٨٥ من مقال بعنوان : التلخيص فى التلخيص أنا شخصا أعتقد أن النهضة الأوربية لم تحدث إلا بتأثير إسلامى عربى كبير تسرب إلى أوروبا عن طريق الأندلس ، وأن النهضة الأوربية ، بعد قرونها المظلمة الوسطى لم تكن إلا الامتداد الحقيقى للحضارة الإسلامية التى وجدت فى أسبانيا ، وأوجد أعلى مستوى للتحضر البشرى وأزید عليه أيضا : وفى الحروب الصليبية فى الشرق ، وفى صقلية ، والدردينل .

إن تجاهل العامل الدينى ، ومحاولة إبعاد الأثر الإسلامى عن توجيه الحياة السياسية ، جموح عن الصراط ، وتجاهل لايمجدى لواقع التاريخ الإسلامى .
بل أقول : إن تجاهل العامل الدينى مطلقا تجاهل

لطبيعة الإنسان ، جاء شاهد جموحه ، وشذوذه من ألد أعدائه ، جاء من مجمع نكران الأديان عامة ، مجمع الحكومات العلمانية ، بكل معانيها المادية والإلحادية ، جاء هذا الشاهد من بولندا ، المجتمع الذى نشأت أجياله منذ مايقرب من أربعين سنة ، على تربية معينة ، تأسست على إهمال العامل الدينى ، بل وإنكاره ، لقد جاء هذا الشاهد ليقم البرهان على الخطأ ، والخطيئة التى تقع فيها التحليلات الإجتماعية ، التى تغفل الدين ، وأثره فى حياة الناس ! .

فلينظر الذين يحاربون الإسلام الدولة ، سواءً أكانوا أولى كلمة سياسية ، أم كلمة فكرية ، أم كانوا من أعوان هؤلاء ، وهؤلاء ، فلينظروا إلى أعقاب هذه الجزيرة ، التى يجرونها على الإسلام ، وأهله ، وهم منهم . وإلى عواقب هذه الجريمة ، التى تقضى على الإسلام وبلاده ، وهم من أهلها !!

سابعا : سؤال طرحه الكاتب :

سؤال طرحه كاتب السقوط على الجماعات الدينية :

ماهو البديل (ص ٥٦) ؟
يقصد : ماهو البديل الإسلامى عن الأوضاع التى ييغون
تغييرها ؟

يسأل سؤال المتحدى المعجز .

وكان على الباحث الحر ، ورجل السياسة المنطبق
(ص ١٦ ، ٢٠ ، ٣٩) أن يسأل نفسه ، قبل أن
يسأل غيره : هل أعطيت هذه الجماعات حقها فى حرية
الوجود ، والتنظيم الآمن ؟ ! .

أليس من الحق أن وضع (البديل) يحتاج إلى الأمن ،
كما يحتاج إلى الحوار ، والخبرة ، .. فهل أعطيت هذه
الجماعات هذه الفرص ، أم أنها لوحقت بالكبت ،
وعذبت بالقهر ، وتوبعت بالتشويه ، وأحيطت
بالنكران .

ثم ألا يعلم الكاتب أن من هذه الجماعات — فى فترة
أمان — أقامت المشروعات الاقتصادية والتعليمية ،
والطبية ، والعسكرية .. التى كفت جماعتها ، وأعانت
وطنها .

ثم ألا يعلم الكاتب أن مشروعات القوانين الإسلامية ، موجودة ، حبيسة الأدراج ، والحجور .

فماذا فعل الكاتب ، وشيعة له لإظهار هذا البديل ؟

وماذا فعل الكاتب وشيعة له ليتبوأ الإسلام مكانه :
عقيدة تعمر القلب ، وشرعية تحكم المجتمع ؟

لكنى نسيت ، وما بالعهد من قدم !

نسيت أن الكاتب الهمام ، المقدس للإسلام يؤمن به
ضميراً للفرد ، واحتفالات بالمناسبات ، وتحفيظاً
لآيات ، وتوقيراً لعمام ، يأبى أن يقبل منها اعتراض على
منكر قائم (ص ١١٨) .

ألا فليخبرنا عبقرى السقوط : أى إسلام هذا ؟ وأى
مسلم هوذاك ؟ أهو المضطر ؟ لكن لأدع نفسى تقتحم
منطقة محرمة ، ولأدع الرجل يعبر عن نفسه بنفسه ،
فهذه عبارته فى (ص ٥١) : أشهد ألا إله إلا الله ، وأن
محمدًا عبده ورسوله ، شهادة من يدفعه مناخ ردىء إلى
رفع شعار الديانة بديلاً ، أو سابقاً لشعار المواطنة .

شعار المواطنة الذى قال عنه (ص ٩٩) : لأعرف
معنى لوجودى إلا به ، ولا أعرف شيئا يسبقه لى
بدءا ، أو يعلوه انتهاء .

فاللهم عيادا بك من كل من قصر فى الدين والعلم
باعه ، وطال فى الجهل وأذى عبادك ذراعه . .

الجاهلية الأولى

رحم الله عمر بن الخطاب ، إنها كلمة هو قاتلها ، وما زال صدقها باقيا : تنقض عرى الإسلام ، عروة عروة ، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية !

وما أصدق تلك المقولة على كثير من يناهضون الإسلام اليوم ، أو يكتبون عنه ، منكرين عليه ، متأثرين بواقع ليس من ثمره ، أو مستشهدين بزيغ من طبائع الناس ، أو ناقلين لفكر يجهل حقيقة الإسلام ، أو يناصبه العداء ؛ لبقايا صليبية ، أو جاهلية ، أو لتجاهل فارق القياس بين تاريخ الإسلام ، وتاريخ غيره من الأديان ، أو لحكم جائر ، يؤخذ فيه البريء بذنب عشيرته !

إنها زلات أفهام ، وهى شر من زلات الأقدام

إن أمانة البحث عن الحقيقة ، فى الدعوات ، تفرض على الباحث أموراً ، بحكم طبيعة البحث العلمى بعامه ، ثم البحث فى الدعوات خاصة .

أما ما يوجبهُ حق البحث العلمى فهو التجرد : يتجرد من ميولة ، وآرائه الذاتية ، وألا يجعل انحراف الطباع حكماً على حقائق الموضوع ، وألا يتجاهل النتائج البعيدة ، والدائمة والشاملة ؛ لأثر جزئى زائل . وعلى العموم ، أن يقوم من الحق مقام الميزان من الأشياء ، فإن لم يستطع ذلك التجرد على كماله ، فليسع إليه بجهده . وعندئذ يعذر فيما فاتهُ ، بل قد يؤجر على فوته .

أما ما توجبه طبيعة البحث فى الدعوات ، فهو أن يتعرف على حقائقها فى ذاتها ، وأن يتعرف عليها بمقاييس بما عليه الناس قبلها فى حياتهم العملية ، والقضايا الفكرية التى تحكم عقولهم ، وتوجه مسارهم ، والقيم الوجدانية التى تسيطر على الشعور والسلوك . وأن يتعرف عليها ، مقيسة بآثارها الإنسانية ، ومقدار نفعها لبنى الإنسان ، فى نظرة تتعمق الحقائق ، وتمتد فى الآفاق .

بهذا وذاك يعتصم من أخطاء الدراسة التاريخية : فلا
يخطئ في المنهج بسبب الغفلة ، أو التغافل عن عوامل
وأسباب ذات أثر في الموضوع ، ولا يخطئ في
التصوير ، بسبب النظر الجزئي ، ولا يخطئ في
استخلاص النتائج ، وصياغة الأحكام بسبب الخطأ في
المنهج والتصوير !

إن الكاتب أيما كان موضوع كتابته ، لا يصور
موضوع كتابته فقط ، بل يصور ذاته أيضا ، فقله خط
تمثاله !

والناظر في العالم جميعه ، قبل الإسلام ، وفي القرن
السادس بخاصة ، يدرك ما كان عليه من فساد كبير ،
شمل الحياة كلها ، في معانيها ومبانيها ، ونخرت منه نظم
العالم في ظاهرها وباطنها ، وسرى فيها الوهن ، وأصابها
النش من جميع نواحيها :

فساد في نظم الحكم ، انتهى إلى السلطان المطلق ،
وعبادة الملوك والحكام .

وفساد فى النظم الاجتماعية ، انتهى إلى الطبقة التى رفعت القلة فوق كل قانون ، ونزلت بالكثرة إلى دركة العجماوات .

وفساد فى الاعتقاد ، قام على الوثنية الصريحة ، أو المستورة ، ورجال الدين ، بين قليل ناج بدينه ، وكثير معاون على الفساد والإثم والعدوان ، أو مشارك فيها بنصيب . وتناحر دينى بين الأديان ، أو بين مذاهب الدين الواحد ، لا يهتدون سبيلا فى عقيدته الأولى ، وأسأسه الرئيس ، وليس فى فروعه واجتهاداته . واحتكار للدين ، وتجارة باسمه ، حتى فى أخص قضايا الإله : الثواب والعقاب ، والتوبة والغفران !

وفساد فى الاقتصاد ، جعل الترف ونعمة الحياة حقا لثلة الحاكمين وأشياعهم من الجند ورجال الكهانة وجعل الشظف وقساوة العيش مفروضة على عامة الناس ، وأقام نظامه كله على (اقتصاد العبيد) .

وعلى الإجمال حكمت العالم كله هذه القضايا :

١ — الفساد الدينى ، الذى جهل الناس فيه دينهم ،
 وخالفهم ، معبودهم الحق ، وضلوا عن سواء السبيل فى
 تصور ذاته ، وما يجب لها من صفات الجلال والكمال
 والجمال : حكى الرحالة الصينى (هوثن سوثنج)
 الذى قام برحلة بين عامى ٦٣٠ — ٦٤٤ عن الاحتفال
 العظيم الذى أقامه الملك (هرش) الذى حكم الهند من
 ٦٠٦ — ٦٤٧ م : أقام الملك احتفالاً عظيماً ، اشترك
 فيه عدد كبير جداً من علماء الديانات السائدة فى الهند .
 وقد نصب الملك تمثالاً ذهبياً (لبوذة) على منارة تعلو
 خمسين ذراعاً ، وخرج بتمثال آخر لبوذة أصغر من
 التمثال الأول ، فى موكب حافل ، وقام الملك ، إلى جنب
 التمثال بمظلة يظل بها الإله ، وقام ، إلى الجنب الآخر
 ملك آخر ، حليف ، يذب عن الإله الذباب !! (١) .

كذلك ما يحدث به بعض المؤرخين من أن رجال
 بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات ،

١ — أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم باخطا المسلمين
 ص ٥٦ - ٥٨

والنساء يعبدون الرجال العراة ، وكان كهنة المعابد ،
الذين يرزعون الراهبات ، الزائرات ، يباشرون هذا
الفسق في دور العبادة !^١

وبعامة ، كثرت المعبودات ، وراجت صناعة
تماثيل ، ويأبى الله إلا أن يبقى شواهد عليها إلى اليوم ،
في شرق آسيا حيث تباع تماثيل الآلهة في المعابد
والأسواق !^٢ .

٢ — الاستبداد السياسى الذى ملك به الحاكم كل
شئ ، ولم يجعل للناس حقا فى أى حق ، وادعى كثير
من الملوك أنهم من سلالة الآلهة ، ونظر الناس إليهم على
أنهم آلهة ، فوق القانون ، والنقد .

٣ — الاستعباد الطبقي ، الذى قسم الناس طبقات
لاتسمح للأدنى أن يسمو بخلق أو عمل ...

٤ — الفساد الخلقى ، والاجتماعى ، الذى أشبع

٢ — د . رءوف شلبى : آلهة فى الأسواق

الغرائز ، وجعل النساء ، والمال ملكا لمن انتهب^(١) .
كانت تلك حال العالم ، فى جميع بقاع الأرض ،
ورقاع المعمورة ، شهد بها كل من كتب فى تاريخه قبل
القرن السادس ، وفيه .

ولم يكن من الممكن ، فى هذا الجهل الطامس ،
والليل الدامس ، وفى أعاصير هذه المفاصد ، وزئاط هذا
التداعى — لبقية الأديان ، أن تقوم بإصلاح ، أيرجى
منها فلاح ، يقول (جيون) فى كتابه : سقوط الدولة
الرومانية : وفى أواخر القرن السادس وصلت الدولة فى
ترديها ، وهبوطها إلى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثـل
دوحة عظيمة ، كانت أمم العالم ، فى حين من الأحيان ،
تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع ، الذى
لايزداد كل يوم إلا ذبولا^(٢) .

١ — أستاذنا د . محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ص ٢٠٥ ، والملل

والنحل للشهر ستانى القسم الأول ص ٢٢٩

٢ — أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم ص ٤٠

وكذلك لم يكن في وسع أثار العلم والفلسفة أن تقوم بما عجزت عنه الأديان ؛ فقد اختبأ مكنونها في بطون الكتب ، في أقبية في باطن الأرض . وحجب الجهل ، والتقليد ، كل روح صالح ، وكل نور كاشف . على أن هذه الأفكار والفلسفات ، في إبانها وعنفوان شبابها ، لم تحقق للبشرية خيرها المنشود ، وأملها الموعود . بل كانت ، في جملتها ، وبالأعلى فطرة الإنسان ، وعناصر السموفيه ، وأباحت لعنصر الحيوانية فيه كل مطلب ، وكل مرغوب . ومن شاء الوقوف على ذلك فليرجع إلى كتب الأخلاق وتاريخها ، والفلسفة وتاريخها ، ففيها غناء .

هكذا كان العالم من حول جزيرة العرب

تعاونت هذه العوامل كلها وغيرها على التمكن للوثنية الدينية ، والوثنية الفكرية ، والوثنية المالية ، والوثنية الشهوانية ، والوثنية الطبقية ، والوثنية السياسية ! .

أما العرب فقد كان نصيبهم من قضايا التخلف أنواعا أخرى ، فرضتها عوامل من طبيعة المكان ، وأخرى من طبيعة الإنسان : فرضت عليهم طبيعة الصحراء القاسية نظاما قبليا ، إذا عرف فضيلة في جانب ، عرف الرذائل في جوانب .

كما كان لموقع الجزيرة وطبيعتها أثر في عدم تسرب الأديان إلى قلبها ، إلا قليلا كما كان سببا في عدم وجود الفكر النظري ، الذى غالبا مايكون ناشئا عن رغد العيش ، وطول السكون إلى الراحة والفراغ ، إلا ماكان لهم من حكمة عملية ، أملت تجارب الحياة ، وابتعثتها امتدادات الصحراء ، وصفاء السماء .

ولم يكن ذلك كافيا ، ولا موصلا إلى الهداية العامة ، أو التعرف على حقيقة العلاقة بين الله والكون والإنسان . والنفوس البشرية ، منذ كانت وإلى زماننا أعجز أن تسمو ، إذا تركت وشأنها ، إلى إدراك الحقيقة المطلقة ، التى هى سر هذه المحسوسات ؛ وهى لذلك ،

تقف عند مظهر من مظاهر الوجود ، كالشمس أو القمر ، أو النور والظلام .. ثم تضعف عن السمو إلى تصوّر السر من وراء هذا المظهر ، وما يدل عليه ، وما يحق له من صفات ، وعن الصفة الصحيحة لعبادته .

تعاونت هذه العوامل على التمكين للوثنية بأنواعها ، في العالم عامة ، وفي شبه الجزيرة العربية خاصة . وهكذا كان دينهم . وإذا فسد وجدان الدين فسد ، بفساده ، كل وجدان ، فأتبع ذلك : قطيعة الرحم ، التي من حقها أن توصل ، وأن تُبَلَّ ببلاها ، وقطع الوشيحة التي تفرض وصلها الفطرة السليمة ، وكان من مظاهر هذا الكفران وأد الولد الذي لم يأثم ، بيد الوالد الذي لا يتأثم .

أما عرب الجزيرة ، وقتئذ ، كأمة ، فلم يكونوا أمة بأى معنى سياسى ؛ إذ كانوا أشتاتا من غير رابط ، وهؤلاء من غير جامع ، وأوزاعا لا يظلمهم سلطان .

كانوا ، على ما فيهم من استعداد للخير ، يجهلون

أنفسهم ، فضلا عن غيرهم ، فما كانوا يحدثون أنفسهم
بـ رَض ، فضلا عن أن ينتهوا به إلى غيرهم ، واستنفدوا
حيوتهم في التناحر من أجل التافه واليسير ، وما علموا أن
مراد النفوس أهون من أن يتعادوا فيه ، وأن يتفانوا .
فعقمت حيويتهم أن تنجب قائما بدعوة ، أو داعيا إلى
حياة .

هكذا كان العالم كله يعيش في ليل موصول الظلام ،
مبسوط الهول ، وكان في أشد الحاجة إلى صيحة من
صيحات الحق ، تنبه الوسنان ، وتوقظ الغفلان ، وتحبى
الموات ، وترفع الحجب المسدولة على البصائر
والأبصار ؛ لعلها تشهد الحق ، ودعوة الخير والجمال ،
وتقيم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان على قيم غير قيم
الحيوان ، وتشرع الطريق إلى بارئ الكون ، فاطر
السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور .

* * *

وطلع الفجر

فلما أذن الله لهذا الليل أن يصبح ، ولسحب الجهالة أن تقشع ، وكان الإسلام هو الصوتَ الندى الذى ردّ الشارد ، وألف النافر ، وأمن الخائف ، وجمع الشتيت ، وكشف للإنسان عن جوهره ، وكنه وجوده ، ومبدئه ومصيره .. وطلع على الدنيا طلوع الشمس على الليل البهيم ؛ فأحيا الرجاء بعد قنوط ، وأزهر الأمل بعد ذبول ، وأطلع المنى بعد أفول .. وكانت دعوته فيصلا بين عهدين بعيدى الأثر فى حياة بنى الإنسان جميعا : عهد كان الناس فيه يقاسون لهات الموت ، ويسامون الخسف ، ويمنعون النصف .. وعهد استهل فيه الناس استهلال الحياة . فظهر فى هدى الإيمان ضلال الكفر ، وفى قوة الحق انخزال الباطل ، وفى نور الإصلاح ظلام

الفساد ، وفي استقامة الجديد عوج القديم . وبدأت معارك التطهير والتحرير : فظهرت النفوس من الدخن ، ونظفت العقول من الدخل ، وصفيت الأخلاق من الكدر ، وقَوِّمَ الشهوات بالورع ، ومحا الطبقات بالمساواة ، وهبأ الفرص بإزالة العقبات ، واستنهض العزائم بالدرجات ، ووثق عرى الجماعة بالإيمان ، وربط بين الناس بأخوق الإنسان ، وحقق النظام بالسلطان ، وحكم المجتمع بالقرآن وألف بين القلوب بالحب ، وقضى على العصبية بالتقوى ، وعلى الحاجة بالحق العلوم ، وعلى الجهل بالكتاب المدرس ، والعلم المنشور ، والقلم وما يسطرون . وهذب القومية بالإنسانية ، والإقليمية بالعالمية ، وحمل النور إلى سائر المعمور ؛ فكان وقعه على النظم القائمة ، الهابطة في روحها وجوهرها ، المشمخة في هيكلها كوقع الصاعقة على ركام من العهن المنفوش ! .

لقد وافت رسالة الإسلام أهل الأرض أحوج ماكانوا إليها ، كانوا بين عباد أوثان ، وعباد صلبان ، وعباد

نيران ، وعباد كواكب ، أو دون ذلك من الجماد أو
 الحيوان ، وبين مغضوب عليهم ، أرادوا الحياة دنيا من
 غير دين ، أو ضالين ، أرادوا الحياة دنيا من غير دنيا ، أو
 حيران لا يعرف له ربا يعبد ، ولا بماذا يعبد . والناس
 يأكل بعضهم بعضا ، من استحسن شيئا دعا إليه ،
 وقاتل غيره عليه ، وليس في الأرض موضع قدم مشرق
 بنور الرسالة ، ولا قيد شبر يشرف بصلة السماء . قد
 نظر الله إلى أهل الأرض ، فمقتهم ، عربهم وعجمهم ،
 إلا بقايا قليلة على آثار دين صحيح ، فأغاث الله ،
 بالاسلام ، البلاد والعباد وكشف به تلك الظلم ، وأحيا
 الخليقة بعد الموت فأدركت الهدى والحق بعد الفوت ؛
 فهدى الله به بعد الضلالة ، وعلم به من الجهالة ، وكثر
 به بعد القلة ، وأعز به بعد الذلة ، وأغنى به بعد البخل ،
 وفتح به أعينا عميا ، وأسمع به آذانا صما ، وقلوبا غلفا ،
 فعرف الناس ربهم ومعبودهم غاية ما يمكن أن تناله
 قواهم ، حتى تجلب معرفة الله في قلوب المؤمنين ،
 وانجابت عنها سحائب الشك ، وأوهام الظنون .

وعرفهم الطريق الموصلة إلى ربهم ، وإلى رضوانه ،
والإقامة في رحمته في دار المقامة . وأبان المصادر
والموارد ، والمبدأ والمعاد ، حتى أدرك الناس ، بعلم
اليقين ، ماغاب عنهم من عين اليقين ، وشرع لهم منهج
حياتهم التي يحبونها ، وكيف يسعدون فيها ، وفصل لهم
مايضمن لهم فيها حياة طيبة ، ووضع لهم من مبادئ
الحق ، والعدل ، والإخاء ، والمساواة ، والإنسانية ..
مافتح له قلوب أهل الأرض أجمعين ، فكان ، بكل معنى
من المعالي رحمة الله إلى العالمين .

وامتد تاريخه نحو ألف عام ونصفه ، يقيم للإنسانية
حضارة عزّ لها مثال ، في قيمها وروحها ، قبل شكلها
وصورها : حضارة شملت الإنسان من جميع قواه ،
ومواهبه ، وحياته بجميع مرافقها ؛ فارتقت الإنسانية ،
بالإسلام ، إلى حضارة السياسة والحكم ، ونظم الإدارة
والحكومة ، والشرطة والقضاء ، وموارد الدولة
ومصارفها ، والحرب والسلام ، وإعداد القوة الرادعة ،
والجيش وتدريبه ، وعرفت البشرية ، في العلاقات

الدولية ، نظاما يجمع بين القوة والعدل ، والنصر
والخلق ..

وحضارة المجتمع ، والتعاون على البر ، والأمر
بالمعروف والعمل به ، والنهي عن المنكر واجتنابه ،
ورعاية من يعيش في أرضه ، وتحت حكمه ، ولو كان
على غير دينه ، واحترام الأديان السماوية السابقة والجدال
بالتى هى أحسن ، والعدل مع البغض ، واحترام العقل ،
ونبذ التقليد على غير بصيرة ، وحب الخير للغير ، وجعله
مقياس الإيمان ، حتى إمطة الأذى عن الطريق ، جعلها
شعبة من شعب الإيمان ، والوفاء بالوعد والعقد ،
والقسط فى الكيل والميزان ، واحترام حق الغير وماله من
غير تهاون ، حتى الموت استشهادا فى سبيل الله لا يسقط
حقوق المال ! واحترام الدماء ، فلا يهدر دم بغير حق ،
والجروح قصاص ، والسمو بعلاقة الجنسين ، فلا
فحشاء ، ولا قذف . والرحمة فى التكاليف فلا تكلف
نفس إلا وسعها ، والضعيف أمير الركب ، والمرأة
قارورة ، لها فضل رعاية وعناية ، مع احترام إنسانيتها ،

فالرجل إنسان ، والمرأة إنسان ، بعضهم من بعض ،
لا يضيع عمل عامل منهم ..

وحضارة الأخلاق والعادات ، والتربية والتعليم ،
فالعلم مطلوب مفروض ، والتعليم واجب على العالم ..
وللإسلام ، وتاريخه في كل هذه النواحي نظامه
الأصيل ، وشريعته المفروضة ، واجتهاده ، وتجديده ،
واقتياسه كل نافع ولو من غير المسلمين ، بحثا عن
الصلاح والأصلح لكل زمان ومكان ، في إطار
ما شرع ؛ فالمسلم في سباق دائم إلى الأحسن ، سباق مع
نفسه ، ومع الناس ، ومع الزمان ! ﴿ الذي خلق الموت
والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ .



حظ مصر

ومن تلك الحضارة ، ومن هذا الخير كان لمصر نصيبها ، وعجل الله لها قِطْعًا من حضارة الإسلام وتاريخه ، الذى أصبح جزءا باقيا من تاريخ مصر الداهب .

جاء الإسلام إلى مصر وهى ولاية رومانية ، أضافها الرومان إلى ملكهم الواسع ، وأصبحت — رسميا — تحت حكمهم منذ سنة ٣٠ ق.م. ومنذ ذلك الحين والرومان يعملون على أن تكون إقطاعية مملوكة لهم ، تميز أهلهم بالقمح . ثم منحها الإمبراطور ، (أوغسطس) — توفى سنة ١٤م — أفراد جيشه الذى كان ملكا خالصا للإمبراطور ، فكانت مصر ملكا لأفراد جيش

الأمبراطور^(١) . وليس هذا غريبا على سياسة امبراطورية
توضحها هذه الوصية التى أوصى بها أحد أباطرتهم ابنه :
فلندلل الجيش ، ولتحتقر الآخرين !^(٢) .

وكان حظ مصر المسيحية ، من سياسة الرومان أقسى
وأشد ، فمنذ أصدر الإمبراطور (دفلديانوس) سنة
٣٠٣ م أمرا عاما باضطهاد المسيحيين ، وهدم
كنائسهم ، وحرق كتبهم المقدسة ، وطرده ذوى
المناصب الرفيعة منهم من مناصبهم ، وحظر تحرير العبيد
من المسيحيين ، إذا أصرروا على الاعتراف بمسيحيتهم —
منذ ذلك الأمر الإمبراطورى لقيت مصر ما يعادل كل
ما تحمله المسيحيون فى أرجاء الإمبراطورية ، بحيث « لو
وضع شهداء العالم كله فى كفة وشهداء مصر فى الكفة
الأخرى لرجحت كفة المصريين » ولذلك لاعجب إذا
كانت الكنيسة القبطية تتخذ من هذا الحادث مبدءا

١ — كافن رالى : الغرب والعالم ترجمة د . عبد الوهاب المسيرى ،

د . هدى عبد السميع حجازى ص ١٤٥ (عالم المعرفة)

٢ — المرجع السابق ص ١٤٦

لتاريخها ، فالتاريخ القبطي يبدأ بعصر الشهداء . ومن صور هذا الاضطهاد أنهم كانوا يكشطون جلودهم بقسوة ، ثم يلقونهم في النار ، ومنهم من كان يُسَمَّر على الصليب ورءوسهم منكسة إلى أسفل ، ثم يتركون أحياء حتى يموتوا .. ودامت هذه المحنة ، التي لم ينج من إثمها حتى النساء ، ومنهم (القديسة دميانة) — إلى سنة ٣١٢ م حيث ختمت بإستشهاد بابا الاسكندرية : الأنبا بطرس (١) :

وَعِنْدَمَا أَصْبَحَتِ الْمَسِيحِيَّةُ دِينًا لِلإمبراطورية ، منذ أن اعتنقها قسطنطين سنة ٣١٢ ، وهو يحاول الاستيلاء على روما ، فأعلن أنه رأى صليبا من نور في السماء مكتوبا عليه : انتصر بهذه العلامة ، وحاول قسطنطين أن يجعل من المسيحية وسيلة لإيجاد الولاء المقطوع بين شعوب الإمبراطورية وحكامها (٢) .

١ — موسوعة تاريخ مصر . الأستاذ أحمد حسين ج ١ ص ٣٠٣ ،

٣١٠ ، ٣٤٣ .

٢ — الغرب والعالم ، من سلسلة عالم المعرفة ص ١٤٧

منذ ذلك أصبحت الإمبراطورية الرومانية مسيحية ،
سواء كان ذلك عن اقتناع ، أم سياسة ، كما تشير عبارة
(كافرين) السابقة ، ولكن ذلك لم يرفع عن المصريين
ظلم الرومان ، بل جمع لهم الأضطهاد الدينى إلى
الاضطهاد السياسى :

اعتقد الرومان بأن المسيح ذو طبيعتين ، ومشيئتين ،
واعتقد المصريون ، ولا يزالون ، أن المسيح طبيعة
واحدة ، ومشيئة واحدة . ومنذ نشأ ذلك الاختلاف
والمصريون يلقون العنت من دولتهم الرومية المسيحية ،
بل وقعت الامبراطورية كلها فى خلافات مفرقة ،
وسقطت فى هاوية التناحر الدينية ، تؤيد (الدولة
السياسية) بعض اتجاهاته ، وصارت إلبا على من
يخالفها ، ولا سيما مصر وأهلها ، الذين استمروا على
عقيدتهم فى طبيعة المسيح : مذهب الطبيعة الواحدة ،
وفشلت كل الجهود التى بذلت خلال قرون متعاقبة فى
حاولات رأب هذا الصدع . وأخذت الدولة الرومانية
تعاقب المصريين إلى حد حرمانهم من نصيبهم فى مخزون

القمح الذى تنتجه أرضهم ، ووقف الألعاب العامة ، وإغلاق الحمامات . وعانى المصريون كثيرا من الضرائب الباهظة ، التى فرضوها على الناس ، والصناعات ، والأرض ، والحيوانات ، والسفن ، وزوجات الجنود ، وأثاث المنازل ، بل على الموتى .

ولما استقر الأمر لهرقل سنة ٦١٠ ، بعد صراع طويل بينه وبين منافسيه السياسيين ، ذاقت منه مصر ويلات وويلات — حاول هرقل أن يعيد إلى الدولة البيزنطية وحدتها ، فأصدر (صورة توفيق) بمنع الناس من الحديث فى طبيعة المسيح ، ورأى أن يعترف الجميع بأن للمسيح (إرادة واحدة) . حاول هرقل أن ينشر هذا المذهب الجديد فى مصر ، فولى حكمها (المقوقس) ، وأسند إليه السلطة السياسية والرئاسة الدينية معا سنة ٦٣١ . وخير المقوقس المصريين بين أمرين : اعتناق مذهب هرقل ، أو الاضطهاد . وأبى المصريون الأمر الأول ، فبدأ المقوقس سياسة الاضطهاد ، وبسبب ذلك

مصر العربية الإسلامية د . على حسنى الخربوطلى

هرب البطريق القبطي (بنيامين) (١) .

وجاء الإسلام إلى مصر ، وحاكمها المقوقس الرومي : ولكنه عقد الصلح مع المسلمين الفاتحين ، على خلاف رأى الامبراطور الرومانى ؛ وبذلك أنقذت مصر ، وإلى الأبد من الظلم الرومانى بشطريه : السياسى والدينى . يقول د . غوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) : لقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية ، ولكنها هبطت بذلك إلى حضىض الانحطاط الذى لم ينتشلها منه سوى الفتح العربى ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر ، التى كانت مسرحا للإختلافات الدينية الكثيرة فى ذلك الزمن ، وكان من أهل مصر يقتتلون ، ويتلاعنون بفعل تلك الخلافات . وكانت مصر ، التى أكلتها الانقسامات الدينية وأنهكها استبداد الحكام يحقد شعبها أشد الحقد على سادته الروم ، وتنتظر مصر ساعة تحريرها من برائن قياصرة القسطنطينية

١ — موسوعة تاريخ مصر ص ٣٦٢ ، مصر العربية الإسلامية ص ٩-١٠

وهذه هى شهادة ذوى الشأن من قبط مصر إبان
الفتح ؛ فقد كتب أسقف الإسكندرية ، عندما بلغه
قدوم عمر بن العاصي ، إلى القبط يأمرهم بتلقى عمرو .
وعامل المسلمون الأقباط بسياسة الإسلام فى الصلح
والمعاهدات ؛ فلم يقاتلوهم ؛ لأن المحارب المسلم يكف
عمن كف ، ويقا تل من قاتل . ومن دخل من المصريين
الإسلام أصبح من المسلمين من غير فارق ، ومن بقى
على دينه فله حرية فى الاستمسك به ، وإقامة شعائره ،
واحترام دور عبادته ، وعلى المسلمين حمايته ورعايته ،
وكتب عمرو لهم بذلك ، وكتب أمانا لبطريق
الإسكندرية (بنيامين) وأعادته إلى وظيفته الدينية ، التى
استبعده منها الروم النصارى ثلاث عشرة سنة . ويعترف
المؤرخ (أرنولد) بحسن معاملة المسلمين الفاتحين
فيقول : يرجع النجاح الذى أجززه الفاتحون العرب إلى

١ — حضارة العرب ، تعريب عادل زعيتر ، وراجع ماذا خسر العالم لأبى

ما لاقوة من ترحيب الأهالى المسيحيين الذين كرهوا
الحكم البيزنطى ؛ لما عرف به من الإدارة الظلمة ، وما
أضمره من حقد مرير على علماء اللاهوت .

أحسن العرب الفاتحون معاملة القبط ، لمبدأ عام من
مبادئ الحرب فى الإسلام ، فى حسن معاملة غيرهم ،
وقصر الحرب على من قاتل ، من غير اتباع لهارب ، ولا
تزييف على جريح ، ولا إفساد للمرافق ، ولا إتلاف
للزرع والغرس ، ولا قتل للنساء والولدان والرهبان ...

وأيضاً الوصية خاصة بأهل مصر ، لما لهم من نسب
يرجع إلى جد العرب ، إسماعيل ، فإن أمه هاجر
مصرية ، ولما لهم من صهر يرجع إلى مارية القبطية ، أم
إبراهيم ، ولد رسول الله ، فاجتمع للمصريين حسن
المعاملة بالمبادئ الإسلامية العامة ، والوصية الخاصة .
وشواهد التاريخ ناطقة بذلك ، بما لم تحلم به مدنية
العصر ، وقصة المصرى القبطى مع ابن أمير مصر ،

عمرو ، معروفة مشهورة ، والمبدآن اللذان وضعهما
عمر ، في سياسته الإسلامية ، بسبب هذه الحادثة
أعجب من الانتصاف لقبطى من مسلم ، الأول :
مؤاخذه الحاكم بذنب أهله الذين استغلوا سلطانه ، قال
عمر للمصرى ، بعد أن اقتص من ابن عمرو ، اضرب
على صلعة عمرو ؛ فباسمه ضربك !! والثاني : تقرير
حرية الإنسان ، وأنها قانون الله الطبيعي ، وليست منحة
من حاكم ، ولا غيره ، قال عمر لعمر : متى استعبدتم
الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا !!

وإذا كان هذا في القصاص ، والحقوق الإنسانية ،
فمثله ، في العجب والغرابة ، في الحقوق المالية ؛ فلما
ضم عمرو دار عجوز إلى مسجده ليتم بها زاوية
المسجد ، أمره عمر برد دارها ، وبنائها !!

لقد نقل الإسلام الإنسانية ، في مصر وغيرها ، نقلة
حضارية واسعة خطاها ، بعيدا مداها ، خالدا أثرها ،
لا ينجحدها إلا شديد اللجاجة في العتو والنفور .

وفي ظل هذه المبادئ الإسلامية ، التي كانت - جديدة على العالم ، - شديدة الغرابة عنده ، دخل كثير من المصريين ، بل والروم ، في الإسلام ، طائعين غير مكرهين ؛ إعجابا بقيمه ومبادئه . ومن بقى منهم على دينه ردت لهم كنائسهم التي كان شركاؤهم في الدين ، أعداؤهم في المذهب ، قد استولوا عليها ، وسمح المسلمون للأقباط ببناء كنائس جديدة ، والحكومة حكومة إسلامية ، في وهج عاطفتها الدينية ، وفي زهو انتصاراتها الحربية على القوتين الكبريتين في العالم في وقتها ، ولكنه حكم الإسلام !

وكذلك سمح العرب المسلمون الحاكمون للمصريين بالاحتفال بأعيادهم ، وكان عيد وفاء النيل عيداً عاماً يشترك فيه الولاة المسلمون والأقباط على السواء .

وفي ظل الحكم الإسلامي في مصر إبان الفتح تولى الأقباط مناصب كبرى ، كما شغلوا معظم الوظائف الإدارية . وقامت في مصر ، كما قامت في كل بلد نزلته الإسلام ، حضارة مادية ومعنوية إسلامية ، تناولت

الإنسان ، وحياته ، ومرافقه من كل جانب ، وامتزج
العرب المسلمون الفاتحون بالشعوب التي قهروها
بالفتح ، وجذبوها بالقيم ، امتزاج الروح بالجسد والدم
بالقلب ، وأشادوا حضارة أسهم في إعلائها المصري ،
والرومي ، والبربري ، والفارسي والهندي ، والأوربي ،
ونبع فيها ، من غير العرب ، نوايغ وأعلام ، ما كان لهم
أن ينبغوا لولا الإسلام ، الذي قرر أن الله خلق الناس
شعوبا وقبائل ، من نفس واحدة ؛ ليتعارفوا ويتعاونوا ،
في وحدة إنسانية ، تؤسسها وحدة الخلق ، وتعليها
وحدة العبادة ، وتحدوها وحدة المصير إلى الله رب
العالمين . وحدة إنسانية ميزانها بين الخلق واحد ،
لا يرجع بنوع الدم ، ولا الطبقة ، ولا الجنس .. ولا
غيرها مما ليس للإرادة الإنسانية علاقة به ، إنه ميزان
واحد يستبق فيه الناس جميعا ، فمن رجع به رجع وإن
كان من غير العرب ، ومن خف به خف ولو كان من
ولد رسول الإسلام . ولم تكن هذه القيم الإسلامية مجرد
عظات تلقى في المساجد ، أو مجرد دعوة للضمائر ، كما

يريد لها صاحب السقوط ، بل أخذت طريقها إلى المجتمع ، وحياة الناس ، وتمثلت في كل بقعة دخلت الإسلام ، واحتكم إليها جميع الناس ، بما قرر الإسلام أن الاختلاف بين الناس ليس اختلاف تناقض ، بل هو اختلاف تنوع للتكامل ، يكمل بعضهم بعضا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ وحدة الأصل الجامعة .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ... ﴾ اختلاف تنوع

﴿ لَتَعَارَفُوا ﴾ التكامل بالتنوع

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وحدة الميزان

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ وحدة الحساب والمصير

هذه القيم ، والمبادئ (الداخلية) في الأمة الإسلامية ، (والداخلية) في نسيج الجماعة الإسلامية هي الأساس الذي أقامه الإسلام للانطلاق (الخارجى) ، فحمل المسلمون هذه القيم والمبادئ إلى العالمين ، بعد أن كوّنتهم أفكارا وشعورا ، واحتملوا في

سبيلها ماتتوء به الجبال ، حتى أصبحت (واقعا)
متمثلا فى شخوصهم ، وجماعاتهم ، ولم تكن تلك
المبادئ (هيام شاعر) ولا (آمال فيلسوف) . إنها
القيم التى فتح بها أفراد من المسلمين ، وجماعات منهم
بلادا من قبل أن يمهد لهم جيش ، ولا يؤازرهم سلطان ،
ولا يغرى بهم عرض ولا مال .

ومدونات هذه الحضارة ، ومصادرها المكتوبة ، بلغة
العرب وغيرها معروفة ، ومقروءة ، وكثير منها فى
خزائن مكتبات أمم الحضارة اليوم . وآثارها الباقية فى
الشرق والغرب باقية شاهدة . وهذا وذاك يعرفه الولى
والعدو ، ويقربه المؤمن والختار الكفور . فما بال بعض
الكاتبين يرى الشوك فى الورود ، ويعمى أن يرى فوقها
الندى إكليلا !! .

إن القليل ، مما كان القادة المسلمون يفرضونه ليمتاز
غير المسلمين عن المسلمين ، إنما كان حالة ضرورة أملتها
ظروف الدولة الناشئة ، لحمايتها من كيد الروم والفرس
الذين كانوا يتربصون بالدولة الناشئة الدوائر ، ويكيدون

لها بلبيل ، ويشون فيها العيون ... فلما زالت هذه
الضرورة ، زالت شعاراتها ، وتمت للمجتمع وحدته. في
ظل المبدأ الإسلامى ﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم
في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا
إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ ففى قاعدة حماية الدين
والوطن ، وسلامتهما :

يعم الخير ﴿ أن تبروهم ﴾
ويحكم العدل ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾
تحت مراقبة الله ، وقاعدته العامة ﴿ إن الله يحب
المقسطين ﴾

وفى ساحة هذه المبادئ يتزوج المسلم الكتائية ،
ويكون أخوال أولاده هودا أو نصارى ، ويتر المسلم
والديه المشركين ، ويجاور المسلم غير المسلمين ، ويأكل
طعامهم ويأكلون طعامه ، ويؤاسيهم ويؤاسونه ،
ويتعاملون معا بصنوف المعاملات .. فى ظل قاعدة
إسلامية لم تعرفها الإنسانية قبل الإسلام : لهم مالنا ،
وعليهم ماعلينا !

إن الإسلام ، بالنسبة للعربى غير المسلم جزء من تاريخ أمته ، وحضارة تاريخها ، وهو بذلك أصبح جزءا من مقوماته التاريخية والروحية .

إننا — نحن المسلمين — إذا فارقنا المواطنين غير المسلمين فى العقيدة ، يجمعنا وإياهم تاريخ مشترك له أثره الموحد فى التربية ، واللغة ، والشماثل ، والوطنية ..

إنه إذا كانت وحدة عناصر الأمة ، عند كاتب السقوط وشيعته ، قضية وطنية ، يخشى عليها من الإسلام ص ٧٧ فهى عند المسلمين ودعاتهم عقيدة دينية أيضا ! فأيهما أقوى التصاقا بضمير صاحبه ؟ وأيها أقوى باعثا على الوحدة والتماسك ؟

لذلك نجد كثيرا من القبط والمسيحيين العرب يقبلون الإسلام من هذه الجهة : جهة الأمة ، والتاريخ ، ويعبرون عن اعتزازهم بما حقق الإسلام . يقول د . قسطنطين زريق ، الذى كان مديرا لجامعة دمشق ، فى كتابه (الوعى القومى) : والنبي محمد هو ، من

ناحية ، نبي الإسلام ، وعليه أنزل الدين الكريم ، وقد
بلغ أثر هذا الدين كل ناحية من نواحي ثقافتنا العربية ..
وواجب كل عربي ، إذن ، بصرف النظر عن معتقده
الديني ، أن يدرس الإسلام . والنبي محمد ، من جهة
ثانية ، موحد العرب ، وجامع شملهم ...) .

ويقول الشاعر القروي ، رشيد الخوري :

أثجف أوراق العروبة في ربي
لبنان ، وهي نضيرة في يذبل
أتريد أعظم من أبي بكر ، ومن
عمر ، إذا انتسب الكرام ، ومن على ؟
ويقول :

سل عهد شامي وبغدادي وأندلسي
عن عمق فلسفتي عن عدل أحكامي .
شغلت قلبي بحب المصطفى ، وغدت
عرويتي مثل الأعلى وإسلامي (١)

١ — أستاذنا د . عبد الرحمن الزاز : أبحاث في القومية ص ٥٥-٥٦

إن الدعوة إلى « القومية المحلية » : مصرية ..
مصرية ، مصرية صاحب السقوط ، تحمل في طياتها :

١ — انغلاقا فكريا ، لم يصل إلى مستوى هؤلاء
الذين أدركوا أن الإسلام جزء من مقوماتهم .

٢ — وانغلاقا حضاريا ، يتنافى مع روح العصر ،
بله حضارة الإسلام .

٣ — وتفقد ، بإبعادها الإسلام ، أقوى داع ، يجعل
الوحدة الوطنية مطلبا عقديا .

٤ — ثم هي تحمل تمزيقا للوحدة العربية ، تساوى به
دعوة : العراق البابلية ، أو الأشورية ، ودعوة : لبنان
الفينيقية ، ومضر الفرعونية ...

وحين يذهب كاتب السقوط هذا المذهب ، نجد
مؤرخاً · إنجليزيا كبيرا ، معاصرا ، هو (أرنولد تونبي)
يقول : إنه يغبط العرب لما تضيفه عليهم صفة الأمة
العربية من وحدة ، حتى يشعر العربى أنه فى داره ، مادام
فى بلد عربى إسلامى ، فالعراقى ، أو المصرى ، أو

النجدى ، أو الحجازى ، أو المراكشى ، أو التونسى ..
لا يجد فرقا فى الجو الاجتماعى ، وروح الحياة العربية ،
وعقليتها السياسية بين الرباط ، وتونس ، والجزائر ،
والقاهرة ، وجده ، ودمشق ، وبغداد ، والبصرة^(١) .

أقول : وهو كذلك ، إذا التقى بالمسلم فى كل
مكان !

قال المستشرق الفرنسى المشهور (ماسنيون) : إن
البعث الدولى للغة العربية عامل أساسى فى إشاعة السلام
بين الأمم فى المستقبل . ولقد كانت هذه اللغة ، فى نظر
كثير من الفرنسيين المسيحيين — وأنامهم — وما تزال
لغة الحرية العليا ، ووحى الحب والرغبة التى تتطلب إلى
الله — أن يكشف عن وجهه الكريم^(٢) .

مصرية .. مصرية ، نعم ، ولكن ههنا أمراً مهما
يجب ألا يغفل عنه كل مصرى مخلص ، يجب أن يكون

١ — المرجع السابق ص ٥٣

٢ — المرجع السابق ص ٣٦

واسع النظرة ، عميق الفهم ، ليسلم حكمه ، وتسلم
دعوته

هذا الأمر هو : ماهية النظرة التى تنظر إلينا بها الدول
الكبرى

إن الكاتب ، كاتب السقوط ، فى دعوته إلى
المصرية ، ومحاربته (الإسلامية) يرى أن القاعدة فى
السياسة الدولية أن القوة فوق الحجة ، والمصلحة قبل
المبدأ .. يصدق هذا على الولايات المتحدة الأمريكية ،
كما يصدق على الاتحاد السوفيتى .. ليس هذا فحسب ،
بل إن الأمر الأهم أن الدول التى تتبنى شعارات :
الديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، والعدل ، إنما يعنىها ،
فى الأساس ، أن تطبق هذه المبادئ داخل حدودها ، أما
خارجها فإنها قد تتعاون مع أكثر الأنظمة خروجاً على
هذه المبادئ (ص ١٦٩) .

وينتهى من ذلك إلى أن مصلحة أمريكا تمثل (احتمالاً)
قائماً ، له مايرره من المنطق ، فى كون الولايات المتحدة

الأمريكية وراء تصاعد المد السياسى الدينى ...
(ص ١٨٠) !!

(وإن هذا الاختيار الإسلامى « الثرى » يبدو أكثر
الاختيارات تحقيقا لهدف أمريكا ... وسوف يتمثل ذلك
فى مجموعة من المكاسب ، أهمها استقرار المنطقة
سياسيا ، خاصة فى مصر ..) .

أقول : بصرف النظر عن تناقض صاحب السقوط فى
قوله إن تحقق حكم إسلامى (شكلى) هدف أمريكى ،
وبين قوله إن تطبيق الشريعة سيوقع مصر فى حرب
طائفية ، وخلافات فقهية ، يخرج فيها (الحنبلى فى مصر
الجديدة ، والشافعى فى الزيتون ، والمالكي فى المطرية ،
والحنفى فى عين شمس .. إلى السيف دفاعا عن العقيدة)
أقول : بصرف النظر عن هذا التناقض لأسأل سؤالا
(ظاهره سذاجة ، وباطنه حجة) : ماهى نظرة الدول
الكبرى إلى مصر ؟

إنها تنظر إلى مصر على أنها قلب العالم الإسلامى ،

فإذا أسكتت هذا القلب ، مات جسده !

إنها تنظر إلى مصر على أنها عقل العالم الإسلامى ،
فإذا طمست هذا الفكر ، عمى كل تفكير بعده !

ومن يرفض هذه الحقيقة ، فلا مندوحة له عن
الاعتراف بأنها تنظر إلى مصر على أنها قلب العالم العربى
وفكره وشريانه ! إن زرع إسرائيل فى مكانها لم يكن أمرا
مرتجلا ، ولا فكر بادى الرأى . إنما كان عملا
مدروسا ؛ لغاية مرموقة .

وتأييدها لإسرائيل على أساس (الحق التاريخى) تراه
(مصالح) أم (مبادئ) ؟
وتأييد روسيا للدول الشيوعية ، وجماعاتها (مبدأ)
أم (مصلحة)

إن لم نسلم أنها (مبادئ) ، فلا مناص من التسليم
بأنها (مبادئ تحقق منافع) أو منافع تحقق مبادئ ، إنها
صلات على أساس (مبدأ المنفعة) .

وعلى ذلك فرفض المبدأ مطلقا غير مسلم .

وعلى ذلك فمبدأ مصرية .. مصرية ، عقلة عن غرض
غيلان الدول .

وعلى ذلك فمبدأ مصرية .. مصرية ، بلسان مصرى
(يتعشق مصر ، ويتعبد فى محرابها) تحقيق لغرض الدول
الكبرى (ومنفعتها) من أقرب طريق ، وأيسره .

وما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

(القاعدة فى السياسة الدولية أن القوة فوق الحججة)
نعم ، ولكن لماذا قال صاحب السقوط (دع عنك إذن
حديث الساسة عن المصحف والسيف ، فالمصحف فى
القلب ، أما السيف فاسأل التاريخ عنه) — قال ذلك
قبل قوله عن سياسة القوة !

لست أدرى بأيهما نأخذ ؟ (بحديث الرحمة ؛ لأن
حديث الرحمة فى عالم اليوم أقرب إلى القلب ، وأن سبيل
السماحة ألصق بالوجدان — ص ١٩) أم بحديث
(القوة فوق الحججة ؟) (حديث الرحمة فى عالم اليوم
أقرب) (قاعدة السياسة الدولية القوة فوق الحججة ،

والمصلحة قبل المبدأ) ! ياله من فكر منطوق متسق !!

كيف نرفض مبدأ القوة ؟ لست أدري !
كيف يكون (المصحف في القلب) ونرفض أوامره
بإعداد القوة ، والعزة ، والجهاد ... ؟ لست أدري !

كيف يكون (المصحف في القلب) ونرفض تطبيق
شريعته ؟ لست أدري !

كيف يكون (المصحف في القلب) دون أن يتحول
إلى قيادة ، وعمل ، ودستور ؟ لست أدري !

كيف يكون (المصحف في القلب) والمصحف
يقول (وأن احكم) (ليحكم) (ومن لم يحكم) ثم
نقول نحن : (لا للسيف والحكم) ؟ لست أدري ،
وسوف إخال أدري من أى أنواع الإيمان هذا الإيمان !!

لست أدري ، وسوف إخال أدري ، كيف يكون
(المصحف في القلب) عند (الذين جعلوا القرآن
عضين) .

لست أدرى أى (قلب) هذا ؟ أهو قلب حجاب ،
أم تيمة ، أم قلب سيارة ؟!

لست أدرى ، وباليتمنى أدرى كيف يكون
(المصحف فى القلب) ونحن نخشى من تنفيذ حده فى
الزنا من تداعيات تستدعى إغلاق شارع الهرم ،
والرقص الشرقى ، وتعديل برامج التليفزيون .. ولا نذكر
تداعيات أخرى ، هى الأحق ، والأليق بمقاصد الشريعة
من حل مشكلة الإسكان ، والاقتصاد ، والأخلاق
العامة .. إن مجرد تطبيق الشريعة لايحيل الدولة إلى دولة
مسلمة ، وحكومة إسلامية ما لم تلتزم بقواعد الشريعة فى
الحكم ، والمال ، والقضاء ، والأخلاق ، وحفظ
الدين ، وتحقيق مصالح المسلمين . إن الشريعة ليست
هى الحدود فقط ...

إنها كيان كامل يبدأ من لا إله إلا الله ، وينتهى إلى
إمادة الأذى عن الطريق ؛ لذلك خشى عمر أن يحاسب
على عثار سخلة بشاطيء الفرات . ولكن كاتب السقوط

يسخر من ذلك ، بدل أن يعتز به ! اهتمت الدولة المسلمة بتعبيد الطريق للأعجم من الحيوان إلى اهتمامها بعقيدة التوحيد .

إنها عين السخط التي تبدى المساوى ، وتنفخ فيها ، وتقضى عن المحاسن ، وتستهزئ بها

إن يأذنوا رية طاروا بها فرحا
منى ، وما أذنوا من صالح دفنوا
صُمَّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به
وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

(حديث الرحمة ، فى عالم اليوم ، أقرب إلى القلب) !

نبئنا — بعلم — أين هذا العالم ؟ كيف نرجوه ؟
ومن أين السبيل ؟ ومن منا الدليل ؟ إذا ذكر الإسلام
خشينا منه الجهاد والسيف ! وإذا ذكرت دول اليوم ،
وحضارة اليوم تحدثنا عن القوة والمصلحة !

نعم ، مصلحتهم فى أن ينزع سيف الإسلام ، ويقلم

منه الظفر والناب ! ثم نقول مقالة د . فرج فوده : أيها
الصارخون ، وإسلاماه ، وفروا صراخكم ، فالإسلام
بخير ، والخطر كله على الإسلام إنما يأتي منكم !
(ص ٨٢) .

هذا ، بقضة وقضيضة مأراده ، وعمل له الاستعمار
الصلبي في غرب العالم الإسلامي ، وفي شرقه ، ومن
أمثلته (حركة القادياني) في الهند ، التي رباها الإنجليز ،
« والتي أخذت تنشر ، في العالم الإسلامي ، الفوضى
الفكرية ، وعدم الثقة بمصادر الإسلام ، ومراجعته ،
وسلفه ، وتقطع صلة الأمة عن ماضيها وعن خير أيامها ،
وأفضل رجالها .. وتسعى الظن بقوة الإسلام وحيويته
وإنتاجه .. »^(١) .

وكان من جملة مبادئ القاديانية المخالفة للإسلام :
رفض الجهاد بمعنى القوة وأدوات الحرب ، وتفسيره

١ — أستاذنا د . محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار
الغربي ص ٤٧ - ٥٠ نقلا عن : القاديانية ثورة على النبوة المحمدية
والإسلام ، لأستاذنا أبو الحسن الندوي ، من كبار علماء الهند .

بمعنى : الوسيلة السلمية للإقناع ؛ لذلك أعلنت إبطال
الجهاد المعروف على عهد الرسول وصحابته وأوقفوا
العمل بمدلول آيات الجهاد وما يتصل بها في علاقة
المسلمين بغيرهم^(١) .

أرجو أن يدرك د . فرج فوده مدى التشابه ، بل
التطابق بين دعوته وبين ربائب الاستعمار

لقد وضع الإسلام كلا من (الرحمة) و (القوة)
في موضعه الصحيح : (محمد رسول الله والذين معه
أشداء على الكفار رحماء بينهم) والقوة في الإسلام لمنع
الاعتداء ، فيتحقق للمجتمع المسلم السلم العزيز
﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم
لا تعلمونهم الله يعلمهم ... ﴾ ﴿ وإن جنحوا للسلم
فاجنح لها وتوكل على الله .. ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا
من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم

١ — أستاذنا د . محمد البهي : المرجع السابق

ويجوبونه أذلة على المؤمنين أعزّه على الكافرين يجاهدون
في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .. ﴿

فهل في شرائع الناس ، والحضارات ، والواقع ماهو
أعدل من ذلك ؟! إنها حضارة الإسلام : حقائقه
ووقائعه .

لقد سقط صاحب السقوط في خطأ منهجي ،
يتحاشاه المنصفون ، الذين يحترمون عقولهم ، إذ فاته
أهم الحقائق التي سیرت التاريخ ، حين استحوذ على
اهتمامه بعض حوادث السياسة ، ووقائع الحروب ،
وفاته ، بل قوّت ، أن للمسلمين تاريخاً آخر غير تاريخ
الفتن والخلافات ، بل إنه فيما نظر من وقائع الحرب
والخلاف ، لم يعرض ماكان فيها من قيم الإسلام : فلم
يذكر من حياة أبي بكر إلا احتمال أنه قتل مسموما ، ولا
يذكر من حياة عمر إلا أن أسلوب إحتماؤه بالعدل أصبح
غير مجد في زماننا ، ولا يذكر من حياة عثمان إلا أن
(إغتياله كان احتياراً من عثمان نفسه حين رفض اعتزال
الحكم ، أو القصاص منه) ولا يذكر من حياة علي : إلا

نحو ذلك .

ولا عجب ، فقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
والقم المريض يجد مرابه الماء الزلالا !

ومن أوضح الدلالات على الخطأ المنهجي الذي سقط
فيه صاحب السقوط ، أن يجعل اضطهاد الإمام أحمد بن
حنبل — وهذه واقعة جزئية — يجعلها (درسا لمن
يتشدقون بعصور إزهار الفكر الإسلامى فى عهد الخلافة
العباسية ، وخلق أيضا بأن يكون درسا للحالين بدولة
الخلافة فى عصرنا الحديث ، المقصورين حاكما لا وجود له
إلا فى مخيلتهم ، يجمع بين رحمة أبى بكر ، وفقه على ..
فيصدعون بما حكم فيهم ، ويقبل بعضهم بعضا قبل
خروجهم إلى بيت الله ، أيديهم متشابكة ، ويد الله فوق
أيديهم ، مؤيدة لهم بالرشد والسداد .. (ص ٣٠) .

وليس هناك ما هو أغرب ، وأبعد عن الإنصاف ،
واحترام الذات .. من هذا المنطق ، وهذا الأسلوب .
لقد عاب على الدعاة ، فى استنتاجه الثالث لما ذكر من

وقائع التاريخ ، أنهم يهرون التجزئة ، ويهملون فارق
القياس (ص ٢٠) . أليس هذا هو مافعله ههنا ؟
يارحمة الله للغافلين ! لعلهم يستيقظون ، يارحمة الله
عُمى ، أو يانقمته خصي : حضارة العباسين التي
قامت ، ودامت قرونا ، وكانت نابذة الحضارة الغربية ،
تمحى كلها ، عند هذا الناصح الشفيق ، في اضطهاد
عالم ، لى إلى حديثه عود .

إنها الصورة التى يغى أن يصورنا بها العدو اللدود ،
بل الألد الخصم ! .

* * *

شاهد من الغرب

إن الباحثين المنصفين ، الذين يقدمون الحق على هواهم ، واليقين على الظنون يقولون عن الإسلام وتاريخه غير مايقول صاحب السقوط . ولا يقفون عند حد القول ، بل إلى مبلغ الدعوة إليه ، والإيمان به ، ورجاء الفئء إلى ظلاله .

هو ذاك فيلسنوف الإنجليز ، وأديبها المعروف (برناردشو) يجيب قومه ، وقد سأله ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عن المخرج من عودها ، فيجيبهم :
الإسلام !

ليس عندى خبر يقين بموقف (شو) الإيماني من الإسلام ، ولكن موقفه الفكرى منه قرأناه مرات فى

صدر الشباب ، وهو حى تنقل آثاره إلى الناس أجمعين .
وكما سخط (برناردشو) على حضارة قومه ، ورأى
خلاص العالم من ويلاتها فى الإسلام فقد سبقه ، ولحقه
من فلاسفة الأوربيين من شهد شهادته ، وقال مقالته :
أما السابق فهو الفيلسوف الفرنسى المستشرق (رينيه
جينو) الذى أسلم ، وتسمى باسم : عبد الواحد على ،
بعد أن درس جميع العقائد ، فكان إسلامه إسلام العالم
المحيط بعقيدته عن بينة . وكانت حياته ، وما عمرت به
من بحث ودرس ، ومماته ، بالقاهرة
(١٩٥١/١/٧ م) وما أثار من انتباه وتعريف ، كان
ذلك كله سببا لتعرف كثير من الغربيين على الإسلام ،
بل تعدى الأثر من الأفراد إلى الجماعات ، فتكونت
جمعيات تسير على نهجه (١) .

وأما الفيلسوف اللاحق فهو الفيلسوف الفرنسى ،
أيضا .د . رجاء جارودى ، الذى مرّ ، هو أيضا ،

١ - د . الشيخ عبد الحليم محمود: الفيلسوف المسلم رينيه جينو

بتجارب عديدة ، ودراسات مديدة ، بغية التعرف على الحق ، عبّر عنها بقوله : أحب أن أقول إن انتمائى إلى الإسلام لم يأت بمحض الصدفة ، بل جاء بعد رحلة عناء فى البحث ، رحلة طويلة ، تخللتها منعطفات كثيرة ، حتى وصلت إلى مرحلة اليقين الكامل ، والخلود إلى العقيدة ، والديانة ، التى تمثل الاستقرار . والإسلام ، فى نظرى ، هو الاستقرار^(١) .

لقد كان أول تعرف لجارودى على الإسلام من خلال موقف حضارى يصور جانبا عمليا من حضارة الإسلام ، فى أخلاقه الحربية ، وليس من خلال درس كلامى ، ولا موقف وعظى فى مسجد ، ولا من خلال احتفال دينى بمناسبة . ولا من خلال أية زاوية من زوايا تصوّر صاحب السقوط للإسلام ورسالة مسجده . إنه موقف عملى من مبادئ (الإسلام الدولة) الذى

١ — أبو المجد أحمد حرك : الفيلسوف المسلم رجاء غارودى ، نقلا من كلمة غارودى بالإسكندرية المنشورة بمجريدة الأخبار فى ٢٣/٣/١٩٨٣ م

يرفضه صاحب السقوط ! إنه موقف من خصائص الإسلام ، التي لم يشركه فيها دين ولا نظام .

ولندع (جارودى) نفسه يعبر عن هذا الموقف الذى قال عنه إنه لا ينسأه ، يقول : أول احتكاك فى حياتى الشخصية ، مع الإسلام ، كان احتكاكا برجال أدين لهم بحياتى ، وقد أدليت بشهادتى على ذلك فى كتاب : (كلام رجل) كان ذلك فى الرابع من مارس سنة ١٩٤٠ م عندما كنا نحو خمسمائة مناضل من المعتقلين ، فى جنوب الجزائر . فى ذلك اليوم أمر قائد المعسكر ، وهو فرنسى ، حاملى الرشاشات الجزائريين بإطلاق النار علينا ، فرفضوا !! كانت المفاجأة : عندما رفض الجنود تنفيذ أمر القائد بإطلاق النار ؛ ولم أفهم السبب . ثم علمت ، بعد ، من (مساعد) جزائرى بالجيش الفرنسى ، كان يعمل فى المعسكر : أن شرف المحارب المسلم يمنعه من أن يطلق النار على أعزل ! وكانت هذه أول مرة أتعرف فيها على الإسلام ، لقد علمنى هذا الموقف أكثر من دراسة عشر سنوات فى

السريون .

أما الموقف الآخر ، الذى يعتبره جارودى الدرس الثانى لالتقائه بالإسلام ، فهو المبدأ الإسلامى السابق فى الدرس الأول ، ولكن من جانبه الإيجابى ، لالسلبى : مبدأ معاملة العدو المسلح المحارب ، عرفه جارودى عندما التقى بالشيخ البشير الإبراهيمى ، رئيس رابطة العلماء المسلمين الجزائريين ، ووقعت عينه عنده ، على صورة المجاهد الإسلامى الأمير عبد القادر الجزائري ، عدو فرنسا ، بلد غارودى ، وعرف طرفا من سيرته فى حربه الاحتلال الفرنسى ، كمبدأ إسلامى فى رفض الخضوع لغاصب ، والذى به أصبح واحدا من أعظم أبطال القرن التاسع عشر ، الذين طلبوا الشهادة فى سبيل الله ، مع قلة النصير ، وقوة العدو وطغيانه . عرف جارودى من هذين الدرسين جانبا من حضارة الإسلام الإنسانية ، ومدى مافيا من سمو ، وعزة ، وحياة ، وحركة .. وكيف أن الإسلام عقيدة عملية ، لا تقتصر على الضمائر والمشاعر ، وأن مكانها هو ميدان الحياة

الرحيب !

لقد تفتحت آفاق جارودى الفكرية على عالم جديد ،
لم يجد نفسه الوحيد فى الإعجاب به ، وفى تقديره ، لقد
وجد (أناتول فرانس) يقول فى كتابه (الحياة
الجميلة) : إن أشأم يوم فى حياة فرنسا هو ذلك اليوم
الذى تراجع فيه الفتح العربى الإسلامى لفرنسا ، أمام
همجية الفرنجة سنة ٧٣٢ فى معركة (بواتيه) . ولما
ضمن جارودى هذه الشهادة محاضرة له فى تونس سنة
١٩٤٥ طرد منها ، فقد كان ذلك جرما عند أرباب
الحضارة الغربية ! يقول غارودى : إن ذاكرتى ستحتفظ
دوما بهذا النص الذى سبب طردى من تونس سنة ٤٥
بذريعة الدعاوة المضادة لفرنسا ، فقد كان من المحظور
تأكيد أن الحضارة العربية كانت تسيطر إلى حد كبير على
الحضارة الأوربية حتى القرن الرابع عشر .

مأشدها من مفارقة ! د . فرج فوده يرى تاريخ
الإسلام كله صفحات سوداء ، لاحتضارة فيها ، وهو
المسلم المعتز بإسلامه ، وأناتول فرانس يرى مآذره

جارودى !

ولم يكن هذا رأيا فرديا لهذا وذاك ، بل كان رأى
الأوربيين عامة عندما التقوا بالمسلمين أولا . يقول
(برناردشو) فى مقدمة مسرحية (اندروكلس
والأسد) : إن الصليبيين دهشوا عندما وجدوا أن
حضارة المسلمين أرقى من حضارة الأوربيين عند ذاك !

لقد طوّف جارودى بجسده وفكره فى البلاد
والأفكار ، وجاس خلال كل الأفكار والديانات ،
وشارك | بالجهد والفكر فى الحركات التقدمية ، وعاش
نصف قرن يبحث عن الطريق ، فكانت حصيلة هذا
الجهد المضنى فى العمر الطويل اعتناق الإسلام ديناً ،
والإسلام حضارة ، يقول : إننا ندين للعلم العربى ، لقد
ظلت كتب الطب العربى ، تنشر وتدرس فى فرنسا حتى
القرن السادس عشر ، وفى إنجلترا حتى منتصف القرن
التاسع عشر .. وفى الوقت الذى غدت فيه أوربا غير
قادرة على معرفة القراءة كان المأمون قد افتتح فى بغداد ،
بمساعدة جيش من الكتاب والمترجمين مكتبة ضخمة

هى : دار الحكمة ، وكان الخليفة الأموى (الحاكم) قد
وضع فى مكتبة (قرطبة) أكثر من مائة ألف مجلد ، بينما
(شارل الخامس) ملك فرنسا ، الذى عرف بالعلم
والحكمة ، بعد أربعة قرون من عصر الخليفة المسلم فى
قرطبة ، كانت مكتبته لاتضم إلا ألف كتاب ! ...
ويبقى (ابن خلدون) الذى عاش بين سنتى
١٣٣٢ م — ١٤٠٦ شخصية عالمية فى مجال العلوم
الإنسانية ، إلى جانب اتصافه بأنه دبلوماسى ، ومحارب ،
ومؤرخ وعالم اجتماع ، وفيلسوف ، وفنان ! لقد ظل
كتاب (تذكرة الكحالين) المرجع المعتمد لطب العيون
فى أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر ، وظل كتاب
الجبر الذى ألفه عمر الخيام ، ووضع فيه أسس الهندسة
التحليلية — مرجعا معتمدا فى فرنسا إلى سنة
١٨٥٦ ...

وذكر جارودى فى هذا المجال أنواعا متعددة من
حضارة العرب فى الصناعات ، والاقتصاد ، والفلك ،
والمختبرات ، والجغرافيا ، والكيمياء ..

ثم يلخص جارودى موقفه ، وفهمه للإسلام بقوله :
 إن الإسلام دين الجمال ، والعقل ، والعمل . إن انتأى
 إلى الإسلام لم يكن مصادفة ، ولكن جاء من خلال
 رحلة طويلة ، مرت بالكثير من المنعطقات ، حتى
 توصلت إلى اليقين .. لقد بقى الإسلام نقيا ، بلا
 تحريف .. إن أوروبا لم تأخذ من علماء المسلمين إلا العلوم
 التجريبية ، وتركت ميراثهم الفكرى ، وذلك يجبر
 الحضارة الأوربية إلى الإفلاس ؛ لأن السلوك الأوربى فى
 صنع الحضارة فصل الغايات عن أسبابها ، شعارها : النمو
 للنمو ، دون إعطائها أى هدف إنسانى حقيقى . إن
 أعظم إنجازات العلم فى أوروبا لم توضع فى خدمة
 الإنسان ، بينما وفر سباق التسلح ، لكل إنسان على
 الأرض الآن أربع أطنان من المتفجرات ، لكن الإسلام
 لا يفرق فى بحثه بين الأسباب والغايات ، أى لا يكتفى
 بالسؤال : كيف ؟ بل يضم إليه السؤال : لماذا ؟
 ولذلك ، فإن الحضارة الأوربية على وشك أن تموت ؛
 لأنه ليس لها غايات (١) .

١ - الفيلسوف المسلم جارودى ص ٦٩، ٢٢٢، ٢٣٠، ٢٣٥

هذه الصورة التي عرضها هؤلاء الغربيون لحضارة
الإسلام ، هل من الممكن أن تنشأ في فراغ ؟ هل من
الممكن ، في علوم التاريخ ، والاجتماع ، والنفس ، أن
تنشأ ، وتزدهر ، وتبقى في نظم سياسية ظالمة يحكمها
السيف والنطع ، والسياف مسرور ؟ أم أنه الخضوع
للهوى ؟ وضعف الربط بين المقدمات والنتائج ؟ ،
وهما : خضوع الهوى ، وضعف الربط والاستنتاج ،
صفتان بارزتان في كتابة صاحب السقوط .

* * *

د . جارودى ود . زكى نجيب

عرف جارودى الإسلام . دينا ودولة ، ونظاما وحضارة ، وكان إسلامه حصيلة هذه المعرفة ، وثمرة هذا الدرس المتجرد ، للإسلام عقيدة ونظاما ، ودينا ودولة .

ولكن د . زكى نجيب محمود ، عقب زيارة جارودى . القاهرة فى ١٨/٣/١٩٨٣م ؛ لحضور احتفالات العيد الألفى للأزهر — كتب ، فى الأهرام ، متمنيا أن كان إسلام جارودى عن معرفة بعقيدة الإسلام ، لاجتماعه .

ولست أرى وجها لهذا التمنى ، بعد أن شهدت نصوص الرجل بمعرفة الإسلام دينا ودنيا ، وعرفه ،

ودرسه ، من جانبيه النظرى والعملى ، ولم يكن هدفه ، من دراسته ، وتطوافه فى أبعاد الأديان ، والأزمان ، والبشر وحضاراتهم — مجرد (النقد) لعصور تاريخية ، ولا مجرد المدح والإشادة لعصور أخرى . إنما كان هدفه استكشاف الطريق المتخذ لنفسه ، وللبشر ، من حاضر ينذر بمستقبل رهيب . وقد وجد ذلك فى الإسلام ديناً ، والإسلام نظاماً ، فحرص على تقديمه للناس من جانبه النظامى ؛ ليقابل أنظمة الحضارة القائمة .

والدكتور زكى نجيب نفسه قد لاحظ هذا الجانب التطبيقى فى حضارة الإسلام ، الجانب الإنسانى ، الضرورى للجانب المادى ، والذى يؤدى فصله إلى الطغيان والفساد . وقايس د . زكى حضارة الإسلام ، من هذا الجانب الإنسانى بغيرها ، وجعله ميزة حضارة الإسلام ، وخاصتها التى تعطىها مزاقها المميز . كتب ذلك فى عدد مجلة العربى ٢٦٠ ، وبعد حين أعاده فى أحاديثه الأسبوعية فى جريدة الأهرام ، قال : لكل حضارة مذاق خاص ، وهذه الخاصة ، الميزة للحضارة

المعينة ، هى التى عملت على نشأتها فى عنفوانها ، وهى
 علة اندثارها عند ضعفها . والخاصة التى ميزت الحضارة
 الإسلامية هى أنها أدارت رحاها على محور الأخلاق .
 تأمل هذه الآيات من سورة الفجر ﴿ ألم تر كيف فعل
 ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى
 البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون
 ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها
 الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك
 لم المرصاد ﴾ . هذا العدد القليل من الآيات قد أوجز لنا
 القول ، بإيجازا بليغا ، فى ثلاث حضارات ، وهى
 حضارات تشابهت كلها فى أنها كلها جعلت (الفن)
 أساسا لصروحها ، فعاد كانت براعتهم فى فن بناء
 المدن ، وثمود دارت براعتهم على فن النحت ، ثم يأتى
 فرعون وما اختارته حضارة مصر ، يومئذ ، من فن
 المسلات والمعابد .

هى إذن حضارات قامت على فنون ، ولم يكن فى
 ذلك ما يعاب ، لولا أنها قرنت فنونها تلك بطغيان .. لم

تدعمه (الفن) بأخلاق التعاطف بين الإنسان والإنسان ، ونمضى فى قراءة سورة الفجر ، فنقرأ أمثلة من أخلاق السلوك ، التى أعوزت حضارات الفنون ، فهم لم يكونوا يكرمون اليتيم ، ولم يكونوا يطعمون المسكين ، وكانوا يأكلون التراث أكلا لما ، ويحبون المال حبا جما . وجاءت حضارة الإسلام لتكون ، أولا وقبل كل شئ ، حضارة أخلاق . للحضارة الإسلامية أن تضيف إلى نفسها فنا ، وعلما ، وما شئت أن تضيف ، لكنها إذا لم تميز نفسها بركيزة الأخلاق ، فربما بقيت حضارة ، لكنها لن تكون حضارة إسلامية . ا هـ .

وأقول : وههنا التقى الفيلسوفان الكبيران : جارودى وزكى نجيب فى الاهتمام إلى خصيصة الحضارة الإسلامية ، حيث ضلّ عنها صاحب السقوط ، وكفى بذلك سقوطا .

هذه الخاصة الإسلامية الحضارية هى التى افتقدها جارودى فى حضارة (العلم) كما افتقدها نجيب محمود فى حضارة الفن ، وهى هى التى افتقدها من قبلهما

(توبنى) وسجل ذلك فى كتابه (دراسة فى التاريخ)
فى لوحتين معبرتين عن تقويمه لحضارة الاسلام وحضارة
أوربا ، وكتب عليهما : اشتهر المسلمون بالتسامح ، بينما
حفل تاريخ أوربا المسيحية بالاضطهاد الدينى . وهذه
لوحة عن محاكم التفتيش والإعدام فى أسبانيا ، ولوحة
إسلامية عن علماء المسلمين يناقشون ممثلى المسيحية فى
هدوء . ا ه .

هذه الخاصة الإسلامية التى أدركها هؤلاء العمالق ،
من الكتاب ، والأدباء ، والفلاسفة وأدركها جارودى
خاصة ، من خلال تجربة ذاتية ، عايش فيها حضارة
قومه . هى التى جعلته يركز على حضارة الإسلام ، من
غير إغفال لمبادئه .

إن انحص خصائص الحضارة الإسلامية ، وميزتها
الجمالية ، هى اهتمامها بالإنسان ، باعتباره إنسانا ، أيما
كان مكانه ، وزمانه ، واعتقاده . ثم اهتمامها به من جميع
جوانبه ، وقواه ، ومواهبه ؛ لإيجاد (توازن) بين هذه
الجوانب الفردية ، ثم بين الإنسان والإنسان . ثم بين

الإنسان والمادة ، ثم بين الإنسان وكونه وبين (الحقيقة المطلقة) : الله ، الذى منه مبدؤه ، وإليه منتهاه . بحيث تلتقى فى هذا الإنسان وجدانات الشعور ، ومفاهيم العقل ، وقوانين المادة ، ومبدأ الوجود وغايته .

وإن أخص خصائص الحضارة الأوربية ، وميزتها غير الجمالية تكمن فى نظرها للإنسان من جانبه الحيوانى ، فكانت وسائلها ، وغاياتها التسابق إلى إشباع هذا الجانب ، وتوفير رغباته ، ولو على حساب قواه ، ومواهبه الأخرى ، بل على تعمد نسيانها ، أو نكرانها ، بل وتسخير قواه العقلية لخدمة الجانب الحيوانى . ثم النظرة الضيقة لمفهوم الإنسانية ، بحيث أصبح مدلولها محليا ، أو قوميا ، أو جنسيا ، وأصبح المخالف ، لأى من وجهات هذه النظرة أقل شأنًا عند الناظر بها ، بل لا يستحق عنده اسم الإنسانية .

وبسبب ذلك نشأ هذا القلق الذى يعانى منه إنسان هذه الحضارة ؛ لنظرته الداخلية لأقل جوانبه وقواه .

ثم بسبب النظرة الخارجية الطبقية وقعت الحروب المدمرة ، واستغلال الإنسان للإنسان ، الذى لاشييه له إلا فى مجتمع الغابة ، وفى ظل هذه النظرات نشأت عند أقوام (ثوابت) لاتقبل عندهم الحوار العقلى (كمفهوم الطبقة العاملة) (والبرجوازية) (والجنس الآراى) (والشعب المختار) . وأتخذت بعض هذه المفاهيم (دينا) وحسب بعضهم أنهم هم وحدهم الذين يملكون الحقيقة ، بوصفهم غربيين ، أو آريين ، وأن الذين ليسوا من هذا الموقع ، أو الجنس . همج ، وبدائيون ، وغير قابلين للتقدم بحكم مكانهم أو جنسهم . وعلى ذلك تنكروا لحضارة العرب المسلمين ، وأشعلت الحروب الصليبية لرد (الكفار المسلمين) إلى حظيرة الإيمان . ونهبت ثروات القارات الأخرى ، حتى إن فرنسا ، وقبل احتلال الجزائر امتنعت عن سداد ثمن القمح الذى كانت تصدره لها الجزائر ، والذى كان (باى) الجزائر يمنحه فرنسا نخلة من غير ثمن ، أو مقابل .

وفى ظل هذه النظرة وقعت الإبادة الجماعية لهنود

أمريكا ، التي أريد فيها منهم عشرات الملايين ، وتجارة الرقيق التي أفنت مائة مليون أفريقي . والحرب النازية ، التي هي قطعة من تاريخ أوروبا ، وامتداد للجرائم الأمبريالية الغربية جمعاء ، فقضت على أكثر من ستين مليوناً من البشر^(١) .

وفي ظلها قام النظام (البيلشفي) الذي كانت الصراحة فيه أقرب سبيل إلى الهلاك ، وعدم التبليغ عن العواطف المخالفة يفسر بأنه اشتراك في هذه الجرائم ، ورضاً عنها . وفسرت الديمقراطية الحزبية بإفشاء الأسرار الداخلية ، وهتك الحرية المنزلية ، وجعلت هذه الحرمات من العادات العتيقة البالية ، وأحيط كل شيء ، وكل إنسان بالعيون الرواصد ، والآذان المنصتة ، (وبالطبع كان الشرط الأول للاحتفاظ بعضوية الحزب الشيوعي هو أن تكن للقادة ولاء لاذبذبة فيه ، وأن يكون ولاؤك ناصعاً لا تشوبه شائبة (ستالين) بوجه خاص ، وإنه ليكفي أن يقول عنك فلان ، عن فلان ، عن فلان

١ — الفيلسوف المسلم غارودي ص ٩٦ ، ١٧٧

تلميحا خفيفا يفيد (انحرافك) عن جادة الولاء
الخالص ؛ لكى تورث موارد الهلاك (١) . وبهذا السبب
وبغيره أعدم (ستالين . الملايين) ، وضاعت من الإسلام
الجمهوريات الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى (٢) .

ومازال العالم اليوم — تحت تأثير هذه النظرة الأوربية
للإنسان — يتوقع الحرب المدمرة للبشرية وأصبح العالم ،
مع ما هو فيه من قلق ، على شفا الهاوية ، وارتدت كل
وسائل القوة فى هذه الحضارة إلى أضدادها : انقلبت
وفرة وسائل إشباع الرغبة إلى (قلق) ووسائل السيطرة
على الطبيعة إلى (تهديد وخوف وتسابق إلى وسائل
الفناء) ووسائل توحيد الأرض إلى (مناطق نفوذ)
فكرى وسياسى وحرى !

والمخرج هو الإسلام . الإسلام ديننا ، والإسلام

١ — فكتور كرا فشنكو : أثرت الحرية . ترجمة محمد بدران ، د . زكى

نجيب محمود ص ٢٠٢

٢ — اقرأ تفاصيل ذلك فى كتاب الجغرافية السياسية لأستاذنا د . إبراهيم

أحمد رزقانه

نظاما .

شهد بذلك أولو العلم ، وشهد بذلك التاريخ .

ولم تكن شهادتهم للإسلام ، ولا ميلهم إليه ، ولا اختيارهم إياه ناشئا عن الفقر والعوز ، كما يرى صاحب السقوط حين يقول : إذا سألت عن مواقع تركيز الجماعات الدينية الإسلامية في القاهرة فسوف تكون الإجابة : اذهب إلى المرج ، أو عزبة النخل .. وبالقطف لن يذكر لك أحد الزمالك أو مصر الجديدة — فسوف تكتشف أنك تسير في مناطق شديدة الفقر .. في هذه المناطق يجد الاتجاه الإسلامى الثورى مرتعا خصبا .. ولا مجال بالطبع للحديث عن التطرف الدينى فى نادى الجزيرة ، أو هليوبولس .. وكـم أتمنى أن يتاح للباحثين دراسة الوضع الاقتصادى والاجتماعى لأعضاء التنظيمات .. (ص ١٧٢ — ١٧٤) .

أين إذن الدراسة الاقتصادية والاجتماعية التى قام بها صاحب السقوط، وأسفرت عن نتائجها عبقريته فى قضية عامة، ومطلب عام، اعترف هو بعمومه،

وشموله، في صفحات ٦٠، ٧٣، ٩٩، ١٠٣، ١٧٤ .
ولم يجد منه مخرجا — بحكم الديمقراطية إلا أن يقول :
دعوا المغالطة، فقضية الحكم الدينى ليست قضية أغلبية
وأقلية، بل هى قضية اتفاق عام (ص ٨٥) .

لماذا هى بالذات، أيها الديمقراطي، الغيور على
الديمقراطية، الخائف عليها من استبداد الحكم
الاسلامى — لماذا هى بالذات قضية اتفاق عام ؟ .

على أنه إن كان ولا بد، فالمواطنون الأقباط، لفهمهم
لروح التشريع الاسلامى، لا يمانعون فى تطبيق الشريعة،
وقد قال البابا شنودة : إن الأقباط يكونون أسعد حالا فى
ظل الشريعة الاسلامية . وإن هذا — بمقياس العصر —
ليس بدعة فالدول ذات الأغلبية المسيحية فى أوروبا بها
أحزاب مسيحية مثل إيطاليا وفرنسا، وأكبر حزب فى
ألمانيا الغربية هو الحزب (الديمقراطى المسيحى) وإن
وجود هذا الحزب الذى حكم ألمانيا أكثر من ثلاثين سنة
لم يتمخض عنه أى مظهر من مظاهر التعصب للفتات

الأخرى في المجتمع^(١) .

فإذا كان الأمر، مع ذلك، أمر إسلام، أصبحت حقوق الأقلية ديناً. وهذا زيادة تأكيد لها، على ماسلف به البيان .

ثم إذا كان الإسلام نظاماً هو العامل الباعث لأهل هذه الأحياء الفقيرة على المطالبة به، لأنه يحفظ حقوقها، فإن هذا مما يظهر سمو الإسلام، وبحسب له، لاعليه، ولم يكن الإسلام مخدراً لها عن واقعها الأليم الذي وصفه الكاتب (ص ١٧٣)، بل كان باعثاً لها على المطالبة به تحقيقاً لحقها في مرتفعات الحياة في عيش كريم. فأكرم بالإسلام ديناً ونظاماً .

على أن مقتضى التعليل بالفقر على ما وصفه الكاتب يستلزم أن يكون هؤلاء أقرب إلى الانحراف اليسارى من عمال شبرا الخيمة، وحلوان، الذين جعلهم الكاتب أقرب إلى اليسار من غيرهم؛ لارتباطه — بزعمه —

١ — حامد سليمان، الصحفي، في جريدة الشعب ٣٠ إبريل سنة ١٩٨٥ م

بمصلحتهم، ولكن صرفهم عنه ما حصلوا عليه من مكاسب، في قول الكاتب.

وأما عدم وجود التنظيمات الدينية فيما ذكر من نوادى اللهو، وأحياء النعمة، فهذا — إن صحح على عمومه — منطقي مع طبيعة النفس، وعلومها، إذ كان الاستغراق في اللهو، والغفلة بالنعم صارفا عن التفكير في حقائق الأديان. بل إن النعمة والترف من أهم عوامل هدم الدين والخلق، بَلَّةُ الدول. قال ابن خلدون: من عوائق الملك حصول الترف، وانغماس القبيل في التعميم... وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء، فضلا عن الملك... ويبلغ بهم الترف غايته بما تبثِّقوه من التعميم وغضارة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء والولدان، المحتاجين للمدافعة عنهم، ويلبسون على الناس في الشارة والزي، وركوب الخيل، وحسن الثقافة، يموّهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان.

ثم هم بعد ذلك يعودون يستهزئون من أهل الإيمان

والحق والاستقامة بما حكاه القرآن الكريم ﴿ ما نراك إلا
بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادی
الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم
كاذبين ﴾ سورة هود : ٢٧ .

﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ سورة
الشعراء : ١١١ .

والحق الذى يشهد به علم التاريخ ، وعلم الاجتماع ،
وتاريخ الأديان ، أن الطبقة الوسطى هى دائما منطقة تقبل
حركات الإصلاح ؛ لأن الطبقة الدنيا فى عمه وبلادة
بدنائتها ، وسقوط همتها ، وموت شعورها ، وانعدام
الشعور بالعزة الإنسانية ... والطبقة العليا فى شغل
فاكهون ، بل هم أحرص الناس على حياة الترف ،
والزهد فى الدين ، ولا سيما الإسلام ، لما يحرم عليهم من
المتع الحرام ، ولما يوجب عليهم من أن تردّ فضول أموالهم
على فقرائهم . إن زيادة الدناءة ، وزيادة الترف كفيلا
بإماتة الشعور بالفساد والظلم ، وليس الفساد والظلم هم
الذان يثيران الشعوب ، لكن الإحساس بهما هو الذى

يدفع صاحبه إلى الرغبة في الخلاص . على أن ذلك ليس
ينبع من وجود مشاركين للطبقة الوسطى من جانبيها ،
والواقع ، يشهد بذلك ، في قديم التاريخ وحديثه ، ولم
يكن (بوذا) إلا أميراً ، وكان (كسنای) ١٦٩٤ —
١٧٧٤ — كان أكبر من يمثل رجال الاقتصاد في فرنسا ،
ومع ذلك كان أحد الذين أسهموا في تغيير الفكر
الفرنسي الذي مهد لقيام ثورتها ، وكذلك كان (فلتير)
(ورسو) ، وقد كان (نابليون) نفسه ابناً لأب من أسرة
شريفة ، وأم من إحدى بيوتات جزيرة (كورسيكا) .
دع عنك الأنبياء جميعاً ، فكلهم كانوا من أسر لها
شرفها . وأخيراً يأتي ذكر هؤلاء الأعلام الغربيين الذين
سبق ذكرهم ، وشهادتهم للإسلام . فهل كان هؤلاء
الأعلام ، وناشئة الحضارة من فقراء المرج ، أو عزبة
النخل ، أو المنصورية ، أو امبابه ؟!

أم هي نظرة الكاتب التي تهوى تجزئة الأمر ، وتهمل
فارق القياس عن عمد ، حتى تصل إلى نتائج تتفق وما
سبق أن وقر في القلب ، بأكثر مما يتفق والمنطق وواقع

الأمر ١٩

لقد أخذ كاتب السقوط التاريخ من بعض جوانبه، بل أخص من بعض جوانبه، وجعلها أساسا يبنى عليه أحكامه الكلية، الراضة للتاريخ الإسلامى كله.

والحق، والعلم يقضيان أن تكون هذه الحوادث الجزئية، ليست موضع انطلاق للبحث عن الحكم الكلى، بل موضع دراسة، مع بقية الأحداث، وجملة النتائج العامة لهذا التاريخ، على نحو يهذى إلى الخصائص الجامعة، والسمات الكلية التى اهتدى إليها هؤلاء المنصفون وهم على علم بما ذكر الكاتب من هذا الجانب غير المضىء، بل هم على علم بما كتب كثير من الأوربيين الذين يحركهم الشعور الصليبي المهزوم، فذهبوا يتبعون العورات، ويستقصون السقطات، ويطمسون الحسنات، ويحجبون الحق والواقع بحجب كثيفة من رين القلوب. وليس فيما كتبه كاتب السقوط جديد، بل إفك قديم افتراه وأعانه عليه قوم آخرون!

ما ينبغي أن تتخذ الواقعة الجزئية منطلقا للحكم على التاريخ كله، وقياس بقية الوقائع عليها، مع إهمال فارق القياس؛ لنقول: (يستحيل أن يكون ما حدث محض مصادفة ... وهو أيضا يستحيل أن يكون شذوذاً، بل الأقرب إلى المنطق أن يكون قاعدة، بل قل، غير مبالغ، إنها طبيعة الأمور ص ٣١) (وأنه إذا جاز أن يقال هذا على عهد الراشدين فإنه يجوز أن تقول ما هو أكثر وأكثر حين تتصدى بالتحليل والنقد لعصور لاحقة ص ١٨)

والآن، بكل الحياد العلمي، ثم بكل الأسى على الحق المذبوح، والجور المفضوح، أطلب من صاحب السقوط أن يقيس دراسته ونتائجها، وهو المسلم المعتر بدينه، المعلن لشهادته (شهادة من يدفعه مناخ ردىء إلى رفع شعار الديانة بديلاً، أو سابقاً لشعار المواطنة ص ٥١) — بدراسة هؤلاء العمالقة. ثم أترك لدينه، ولضميره، وخلقه، ثم لحق احترام الذات — تحديد مفارقة القياس!!.

ولكى يتحقق لدراسته العمق، والشمول، ولقياسه شروط الصحة، فى أصله، وفرعه، وعلته، وحكمه — أضع أمامه صورة ثنائية. تتم بها المقايسة: صورة للدولة اليهودية، وصورة للدولة المسيحية، بعدما تقدم من الصورة الإسلامية — ولحديثها بقية — فقد قام لكل من اليهودية و المسيحية دولة فكيف كانت تلك الصورة؟

ومن سوف نستشهد عليهما؟

إننى سوف أكون من الإنصاف بحيث لا أدخل رأى، ولا استنتاجى. سأتابع الأسلوب التقريرى، ليس الأسلوب التحليلى.

* * *

الدولة اليهودية

فى تاريخ اليهود عهود وعصور كثيرة مرت بهم منذ تحركاتهم من أرض بابل إلى أرض كنعان، حيث أطلق عليهم أهلها (العبرانيين). ولعل أهم عصورهم فى أرض كنعان هو عصر القضاة، وعصر الملوك.

أما عصر القضاة، فقد حكم اليهود فيه قضاة من الكهنة، وكان بعض القضاة نساء. يقول الإصحاح الرابع من سفر القضاة: (دُبُورَة) امرأة نبية، زوجة (تفيدوت) هى قاضية لإسرائيل فى ذلك الوقت.

وفى هذا العهد بدأت حياة اليهود تتغير رويدا رويدا، فبدعوا ينتقلون من حياة البدو إلى حياة الاستقرار، ومن حياة الخيام إلى حياة القرى الساذجة، وكان الكنعانيون

أساتذة لهم فى الاستقرار، وبناء القرى، والزراعة. كما تأثروا بهم فى عباداتهم تأثراً كبيراً^(١).

وأما عصر الملوك، والانتقال إليه من عصر القضاة، وطبيعة هذا العصر الملكى، فيصوره لنا الإصحاح الثامن صموئيل الأول، إذ يقول: لما شاخ صموئيل جعل بنيهِ قضاة لبني إسرائيل، وابنه (يوئيل) و(أبئاً) كانا قاضيين.. ولم يسلك ابناه فى طريقه، بل مالا وراء المكسب، وأخذوا رشوة، وعوّجا القضاء، فاجتمع كل شيوخ إسرائيل، وجاءوا إلى صموئيل.. وقالوا له:.. اجعل لنا ملكاً يقضى لنا كسائر الشعوب، فساء الأمر فى عيني صموئيل إذ قالوا أعطنا ملكاً يقضى لنا.. فقال الرب لصموئيل اسمع لصوت الشعب.. لأنهم لم يرفضوك أنت، بل إياى رفضوا حتى لأملك عليهم.. وتركونى وعبدوا آلهة أخرى.. ولكن أشهدّ عليهم، وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم... يأخذ بنيكم، ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه، فيركضون

١ - د. أحمد شلى: اليهود ص ٦٨ - ٦٩

أمام مراكيبه،... ويأخذ بناتكم عطايات، وطبّاخات،
وخبازات، ويأخذ حقولكم، وكرومكم، وزيتونكم...
ويأخذ عبيدكم وجواريتكم وشبانكم الحسان، وحميركم..
وأنتم تكونون له عبيدا...

وبيّن الإصحاح التاسع أن هذا الملك كان اسمه
(شاول)، كان (شاول) المخلص الذى كانوا ينظرونه.

وبعد موت (شاول) قام صراع بين (داود) وابن
(شاول) وتغلب داود (وكانت الحرب طويلة بين بيت
شاول وبيت داود) صموئيل الثانى ص ٣: ١٠، ١١ (..
إشبوشث بن شاول.. وهو نائم نومة الظهيرة، فدخل
إلى وسط البيت.. وضرباه فى بطنه.. وقتلاه، وقطعا
رأسه.. وأتيا برأس إشبوشث إلى داود) صموئيل الثانى
(ص ٣، ٤).

هذا القتل غيلة، وكثرة الدماء، فى عصر داود، أمر
مذكور بتفاصيله فى سفر الملوك الأول وصموئيل الثانى.
وجاء سليمان بعد أبيه داود، وبدأ حكمه بقتل أخيه

(أدونيّا). الملوك الأول ص ٢ كما أوصاه داود عند موته بالخلاص من (شمعى) الذى كان داود (حلف) له بالرب قائلاً إني لا أमितك بالسيف والآن فلا تُبرِّره؛ لأنك أنت رجل حكيم، فاعلم ما تفعل به وأحذر شيبته بالدم إلى الهاوية) الملوك الأول ص ٢ .

هذه وقائع ملكهم من الجانب السياسى .

أما من الناحية الأخلاقية، فقد جعلوا ملوكهم زناة، وقتله بالحيلة والغدر (صموئيل الثانى ص ٣، ص ١١) . وملكهم الثانى فكان له سبعمائة من النساء، وثلاثمائة من السراى (الملوك الأول ص ١١) .

وأما من ناحية الدين والعقيدة، فقالوا بعبادتهم للآلهة (صموئيل الأول ص ١٩) عند داود . وأما سليمان فقد (أملت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى، وذهب وراء عشتورث إلهة الصيدونيين وبنى لهذه الآلهة المعابد (الملوك الأول ص ١١) .

هذا ملك إسرائيل، كما صورته كتابهم : العهد القديم .

وهذه هى نصوصه الكاشفة عن جوانبه السياسية،
والخلقية، والعقدية: دماء تسفك، بيد ملوك أنبياء!
وملك يورث، ونساء تُميل، وعبادة أرباب متفرقين،
 وإقامة معابد لها، بأمر النساء! ونبراً - بحمد الله - من أن
نقول هذا أو نعتقده.

فكيف يرى صاحب كتاب السقوط خلافة الإسلام،
وملك الإسلام!؟

لم أسرد تاريخاً، ولم أستنطق حوادث.. إنما نقلت من
كتابهم المقدس!

ولنمض فى الصورة إلى بعدها الحاضر، والقريب:

تصوّر بروتوكولات حكماء صهيون تدبيرهم لإقامة
وحدة عالمية، تخضع لسلطان اليهود، وتديرها حكومة
يهودية، ومن هذا التدبير:

— تثبيتهم الاعتقاد بأن اليهود شعب الله المختار،
وجميع من عداهم كفرة، لم يخلقوا إلا لخدمة اليهود
وعلى هذا فمن حق اليهود أن يعاملوهم كالبهائم. والآداب

التي يتمسك بها اليهود لا يمكن أن يعاملوا بها (الأمميين)،
فلهم أن يسرقوهم، ويغتصبوهم، ويكذبوا عليهم،
ويغتصبوا أموالهم، ويهتكوا أعراضهم...

— ومن هذا التدبير: تمزيق الأوطان، والقضاء على
الأديان، وإفساد نظم الحكم، بإغراء الملوك والحكام
باضطهاد الشعوب، وإغراء الشعوب بالتمرد...

— ومنه: نشر المذاهب المختلفة كالشيوعية،
والرأسمالية.. لتتصارع..

— ومنه: نشر الإباحية، والفوضى، وتقويض
الأسر، وصلات الود.

— ومنه: السيطرة على وسائل الإعلام...
ويرسمون طريق تحقيق هذا التدبير: بتحريك نزولات
النفس، وبالمال، وإقامة حكام ذوى ماض هابط،
يستذلهم به اليهود، والأخذ بكل الوسائل (فعلينا—
ونحن نضع خططنا— ألا نلتفت إلى ماهو أخلاقى.. إن
نجاح دارون، وماركس، ونيتشه قد رتبناه من قبل، وإن

الأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم ، لدى غير اليهود سيكون واضحاً) (١)... وعندما نستحوذ على السلطة يجب أن نمحو كلمة الحرية من معجم الإنسانية .. كان الناس ينظرون إلى ملوكهم نظرهم إلى إرادة الآلهة ، فأوحينا إلى العامة بحقوقهم الذاتية ، وبيشيرية الملوك ، فانساق العامة خلفنا .. وانقلبت السلطة إلى رجل الشارع لقد بذرنا الخلاف بين كل الأفراد ، كما بذرناه بين الأمم ، ونشرنا التعصبات الدينية ... نحن نسخر في خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب .. لقد خدعنا الجيل الناشئ .. وجعلناه فاسداً (٢) .

وعندما قامت دولة إسرائيل أخذت تنفذ هذه السياسة « ففى الوقت الذى راحت إسرائيل فيه — كما

١ — هذا مقصود دكتور عبد الغنى الراجحي من حديثه الذى نقله كاتب السقوط ص ٥٩ ، وسخر منه ، وجعل علامة الخطر فيه (أن الحكم على الفكر يصدر أساساً من منطلق دينى) . وهذه هى شهادة وثيقتهم ، فماذا قوله الآن ؟!

٢ — د . أحمد شلبي : اليهودية ، تلخيص البوتوكولات من فكرة عن تاريخها ص ٢٧٢ — ٢٨٦

ورد في تقرير البنك الدولي — تنفق أكثر من ٥٠ ٪ من ميزانيتها على تسليح جهازها العسكري، وفي الوقت الذي أصبح لهذا التسليح هدف معلن... في هذا الوقت يستشهد الصهيونيون بنصوص التوراة؛ لتبرير التوسع الدائم لحدودهم، بل ولوسائل القتل والإرهاب، التي تتم على مستوى الدولة؛... وفي المرحلة الحالية للتوسع الصهيوني يسهم الخيال لاختامات الأحزاب الدينية، الداعين إلى الغزو، في تبرير أعتى المغامرات العسكرية الإسرائيلية، وفي تأييد مطالب أكثر المتعصبين طغيانا، وليس من قبيل المصادفة ما واكب الغزوة الدموية للبنان من تصريحات (بيجن) أعلن فيها أن طائرات العال لن تحلق في يوم السبت احتراماً لذلك اليوم المقدس. وعندما تقوم الحكومة بتقديم مثل هذه الألوان من الإرضاء لغلاة المتطرفين، فإنها تتلقى في مقابلها الجزاء الأوفى من ناحية التبريرات العقدية، إلى حد اعتبار المذابح مشروعة دينياً...» (١).

١ — رجاء جارودي: ملف إسرائيل ص ١٩ - ٢١

وفي سبيل تحقيق هذه الآمال وصلت إسرائيل إلى القدرة على إنتاج القنبلة النووية: ذكرت شبكة التليفزيون الأمريكية E. B. B. C أن المفاعل النووي الاسرائيلي، بالقرب من ديمونة، في صحراء النقب، يمكنه إنتاج قنبلة نووية واحدة، على الأقل، سنويا^(١).

وأصبحت إبادة الشعب الفلسطيني هدفا قوميا (أهرام ٣٠/٥/١٩٨٥ م).

هذا، وصاحب السقوط يفزع من الدعوة إلى دولة الإسلام، ويجزع من الدعوة إلى السيف، ويزعم (أن حديث الرحمة في عالم اليوم أقرب إلى القلب، وأن سبيل السماحة ألصق بالوجدان...) ويقسم بالله، جهد أيمانه، أنه لن يترك التصدى لهذا الأمر!! فهل هذه ولايته للإسلام؟! وهل هذا هو اعتزازه به الذي زعمه لنفسه (وينجني له تقديرا، وإجلالا، وإيمانا خالصا

١ — أهرام السبت ٨ / ٦ / ١٩٨٥ م

ص ١٨) ؟!. وهل يطمع أعداء الإسلام، في حربه بيد
أبنائه، في أكثر من مثل مقال ونذر ؟! .

أى إسلام هذا الأعزل في عالم (القوة فيه قبل الحجة)
ويراه صاحب السقوط في المسجد، وبعزلة عن السياسة
والدولة ؟! ليكن هذا الرأى دين غير الإسلام.

ألا ما أشبه دين صاحب السقوط بدين الرومان حين
كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد، ويسخرون منها في دور
التمثيل. يقول سيسرو (Cicero): لما كان الممثلون
يشدون في دور التمثيل أبياتا معناها: أن الآلهة لادخل لهم
في أمور الدنيا كان الناس يصغون إليها، ويسمعونها بكل
رغبة.

ويقول الراهب أغسطين: إن الروم الوثنيين كانوا
يعبدون آلهتهم في المعابد، ويهزئون بهم في دور التمثيل ! .
إنه لمن أشد الهزو بالله أن نعبده في المساجد، ونردد
كتابه في المحافل، ونلقنه أولادنا في المدارس، ثم نخرله عن
الحياة. إنها الإلحادية المجرئة التي تعترف لله بالخلق، ولا

تعترف له بالأمر. إنها الجرثومة القاتلة التى نقلد فيها
أحط عصور التدين. يقول العالم الألمانى المسلم محمد
أسد فى كتابه النفيس (الاسلام على مفترق الطرق: إن
الفكرة التى كانت تسيطر على الأمبراطورية الرومانية هى
احتكار القوة لها، واستغلال الأمم الأخرى لمصلحة
الوطن الرومى فقط، لم يكن رجالها، والقائمون عليها
يتحاشون من أى ظلم وقسوة فى سبيل حصول خفض
العيش لطبقة ممتازة، أما ما اشتهر من عدل الروم، فلم
يكن إلا للروم فقط. إن هذه السيرة لا يمكن أن تقوم إلا
على إدراك مادى محض للحياة، والحضارة، وإن كانت
ماديتهم قد هذبت بذوق عقلى، ولكنها بعيدة عن جميع
القيم الروحية... وقد آمنوا بأرواح الآلهة محافظة على
الرابطة الاجتماعية التى كانت تربطهم، فلم يكونوا
يسمحون لهذه الآلهة بالتدخل فى حياتهم العملية، كان
لها أن يأذنوا لها أن تتكهن بالغيب — إذا سئلت عن ذلك
على لسان الكهان — ولكن لم يأذنوا لها أبداً أن تفرض
شرائع أخلاقية على الناس^(١).

١ — أستاذنا أبو الحسن الندوى: ماذا خسر العالم من ١٨١

وقد يحسن ألا أترك الحديث عن دولة اليهود حتى
أشير إلى طرف من شريعتها، كما وردت في كتابها
المقدس، والمنسوبة عندهم إلى الرب .

جاء في صموئيل الأول ص ١٨ : وقال (شاول)
لداود : هو ذا ابنتي الكبيرة (مِيرَب) أعطيك إياها امرأة ..
وحارب حروب الرب . وكانت (ميرب) ابنة (شاول)
أعطيت (لِعَدْرِثِيل) المحولّى امرأة . (وميكال) ابنة شاول
أحبت داود ... فقال شاول : .. تقولون لداود ليست مسرة
الملك بالمهر بل بمائة غلفة من الفلسطينيين ؛ للانتقام من
أعداء الملك ، وكان شاول يتفكر أن يوقع داود بيد
الفلسطينيين ... ولم تكمل الأيام حتى قام داود ، وذهب
هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل ، وأتى دواود
بغلفهم فأكملوها للملك ، لمصاهرة الملك ، فأعطاه
شاول ميكال ابنته امرأة !

وفي سفر الخروج ، في وصية الرب لهم بكيفية
خروجهم من مصر : وقال الله لموسى هكذا تقول لبني
إسرائيل (يَهُوَه) إله آبائكم ... فيكون حينما تمضون

أنكم لاتمضون فارغين بل تطلب كل امرأة من جاريتها ،
ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا ، وتضعونها
على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين . الإصحاح ٣ .
وفي الإصحاح العشرين : .. لأنى أنا الرب إلهك إله
غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث
والرابع من مبعثى ... اذكر يوم السبت لتقدمه ...
لاتصنع عملا ما .. لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء
والأرض والبحر وكل ما فيها ، واستراح فى اليوم السابع .
وفي الإصحاح ٢١ : إذا باع رجل ابنته أمة لاتخرج
كما يخرج العبيد ... ومن ضرب أباه أو أمة يقتل قتلا ..
ومن شتم أباه وأمه يقتل قتلا .. وإذا نطح ثور رجلا أو
أمرأة فمات يرحم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب
الثور فيكون بريئا ، ولكن إن كان الثور نطاحا من قبل
وأشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة
فالثور يرحم وصاحبه أيضا يقتل .

وفي الإصحاح ٢٢ : .. إن وجد السارق وهو ينقب
فغضب ومات فليس له دم ، ولكن إن أشرقت عليه

الشمس فله دم . إنه يُعوّض . إن لم يكن له يُعْغ بسرقة ..
مَنْ ذبح لآلهة غير الرب وحده يُهلك ...

وفي سفر التثنية، الإصحاح ٢٣ : لا يدخل ابن زنى
في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل عموني ولا
مؤابى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر ... (١) لا تقرض
أخاك بربا .. للأجنبي تقرض بربا .

هذه نماذج من شريعتهم في السياسة، والحرب،
والمعاملات المالية، ومعاملات الجزاء لأعلق عليها؛ لأنها
لا تحتاج إلى تعليق، ولكن أرجو الأخ د . فرج فوده،
ومن أزره، أن يعوها، ثم ليقارنوها بشريعة الإسلام،
وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو
شاهد! ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ سورة
الإسراء : ٨٢

* * *

١ — ملحوظة : داود من نسل فارض، كما في متى ص ١ ، وفارض ابن
زنى كما جاء في سفر التكوين ص ٣٨

الدولة النصرانية

مضى لنا طرف من حديث الدولة الرومانية الوثنية والمسيحية، وكيف فرقتهما المسيحية، وكيف أصابوا المسيحية بعقيدة التثليث الذى كان فى العقائد الوثنية، والتي كانت بعيدة الجذور فى أرض مصر، فى صور وأشكال متعددة؛ كان منها ومن أهمها ثالث: أوزوريس، وإيزيس، وحوريس. وهو ما انتصرت له الدولة الرومانية، بسلطان الأمبراطور قسطنطين، فى مجمع نيقية، والذى أخذ برأى الكنيسة المصرية.

كان ذلك مما أصاب الإمبراطورية، بسبب اعتناق المسيحية، من الناحية الاعتقادية، وأثرها الاجتماعى والسياسى.

أما من الناحية الحضارية، فيصورها لنا دكتور عبد العظيم رمضان فى كتابه (الصراع بين العرب وأوروبا) فيقول، بعدما بين أحوال الأوربيين فى الأمبراطورية من الناحية السياسية والاقتصادية:

وانقسم المجتمع الأوربى إلى غالبية من الفلاحين أنصاف العبيد.. وأقلية من الإقطاعيين، فضلا عن رجال الكنيسة الذين كانوا يتكونون، فى معظمهم، من رهبان جهلة، يفخرون بأنهم لا يقرأون، وقليل منهم، ممن يعرف القراءة والكتابة، كانوا يقضون وقتهم فى كشط كتب الأقدمين النفيسة فى خشوع لكى يتوفر لديهم الرقوق الكافية لنسخ كتب العبادات.

حتى اليونان أنفسهم، وهم الذين كان مفروضا فيهم أن يكونوا ورثة العلماء القدامى.. فعلوا العكس تماما، فقد اعتبروا هذا التراث تراثا وثنيا يجب ألا يلقي أى اهتمام بعد اعتناق المسيحية، وكانوا يفتشون المكتبات والمدارس والخزائن بحثا عما فيها من هذه الكتب ليجمعوها ويكدهسوها فى الدهايز والأقبية، ويحولوا بينها

وبين طلبة العلم، وطلاب المعرفة، وقد أجمع مؤرخو الفلسفة على أن اليونانيين، قد طمروا هذه الكتب بعد اعتناق المسيحية..

في هذا الوقت خرج العرب من شبه الجزيرة العربية لنشر لواء الإسلام... ولم ينقض القرن الأول من الهجرة حتى كان سلطان العرب يمتد من الهند إلى الأطلنطي، ومن القوقاز إلى الخليج الفارسي.. وكان العرب في هذا النشاط الحضاري مدفوعين بدوافع دينية.. فلم يعتبروا الدين عائقاً، أو حائلاً بينهم وبين المعرفة، حتى ولو كان مصدر هذه المعرفة وثنياً، كما فعل اليونان أنفسهم بعد اعتناق المسيحية.. وتميزت هذه الحضارة الجديدة باحترام العلم والعلماء.. ونشر العلم بين الناس، واحترام العقل. في الوقت الذي كان فقهاء أوروبا يرفعون شعار: اعتقد ثم حاول أن تفهم.. وقد أطلق ابن رشد هذه الدعوة في الوقت الذي كان من يتجرأ على الدعوة لتحكيم العقل في أوروبا يربط إلى سارية وسط نيران متأججة، أو تشد أطرافه الأربعة إلى أربعة جياذ

ينهاى عليها الجلادون ضربا بالسياط ..

وعلى نهج العرب سارت أوربا بعد ألف عام . اه
(ص ١٦-٢٠).

ويقول صاحب كتاب (الخالدون مائة: ترجمة
الأستاذ أنيس منصور): وإذا كانت العلوم تطورت في
العالم الغربى المسيحى، فليس من المنطق أن يقال: إن
المسيحية هى المسئولة عن نهضة العلوم في العشرين قرنا
الماضية، فلم نجد في شروح رجال الدين المسيحى من
يقول: إن المسيحية تدعو إلى التأمل فى الكون، أو
الدعوة إلى التفكير العلمى. ومن المؤكد أن تحول
الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية قد صاحبه فى نفس
الوقت انحطاطا رهيب المستوى للتكنولوجيا، والاهتمام
بالعلم. إ ه .

وتمضى الأيام بالكنيسة المسيحية، وتصبح لها سلطة
زمنية، مع سلطتها الدينية، فماذا كان موقفها؟ .

يحدثنا (وليم جيمس) فى كتابه (إرادة الاعتقاد) عن

بعض هذه المواقف ، فيقول :

صدر أمر من البابا (إنست الثامن) سنة ١٤٨٥ بقتل
جماعة دينية خرجت على تقاليد الكنيسة، وغفر الخطايا
الكنسية لكل من يحمل السلاح ضدهم، وبرأه من كل
الآثام والذنوب، وأعفاه من كل عيّن وعهد، وأباح له
تملك كل مامع من مال، ولو عن طريق غير مشروع .
فلم تكن هناك مدينة لم يقتل فيها أحد من هذه الجماعة :
فمنهم من أحرق حيا وكان منهم من هو في سن الثمانين .
ومنهم من شق، ومنهم من قطعت أحشاؤه . ومنهم من
أخرجت أمعاؤه، ووضع فيها قط، ومنهم من دفن حيا
ومنهم من غلت يده إلى عنقه، وترك على الثلوج ليموت
بردا وجوعا، ومنهم من طعن بالسيف، وملئت جروحه
بالزئبق، ثم ترك ليموت من الألم . ومنهم من قطع لسانه ؛
لأنه وجد يسبح بحمد الله . ومنهم من أدخل الكبريت
بالقوة في لحمه، وفي أنفه، وتحت أظفاره، وغطى به
سائر جسده، ثم أشعلت فيه النار . ومنهم من ملأ فمه
بالبارود، ثم أشعل فيه النار؛ فانفجر وتمزق . وشق جسد

امرأة من الرجلين إلى الصدر، ثم تركت على قارعة الطريق، ووضعت حربة في أسفل أخرى، ثم حملت عليها. وفي سنة ١٦٣٠ نقص عدد هذه الجماعة مرارا بسبب الاضطهاد المستمر، ونزل من خمسة وعشرين ألفا إلى مالا يزيد على أربعة آلاف. وفي عام ١٦٨٦ خير دوق (سافيو) ثلاثة الآلاف الباقية منهم بين ترك دينهم وبين الهجرة من البلاد. ولما رفضوا هذا وذاك كان عليهم أن يستعدوا لمواجهة الجيوش الفرنسية، فحاربوا حتى لم يبق من قوتهم المحاربة، من غير قتل أو أسر، إلا ثمانون رجلا، ولما استسلموا أرسلوا جميعا إلى (سويسرا) ولكن عاد منهم ما يربو على ثمانمائة جندي عام ١٦٨٩، ليفتحوا وطنهم ثانية، حتى فقد منهم حوالى نصفهم فى ستة الأشهر الأولى، ولكنهم ثبتوا لكل ما أرسل إليهم من قوى حتى وهبهم فى النهاية دوق (سافيو) شيئا من الحرية، بعد أن نقض عهده، مع ذلك الرجس من الدمار والخراب (لويس الرابع عشر) اهـ (١).

١ - ولیم جیمس : لإرادة الاعتقاد ترجمة أستاذنا د. محمود حب الله
ص ١٢٣ - ١٢٥

وددت الاكتفاء بما أوجزت من هذه الجرائر، ولكن
 حماية الحق تثني ودي، وتغريني بأن أستكمل الصورة
 بذكر طرف من تعاون الحكم المدني والتسلط البابوي؛
 لنعلم أن ماكان من تجاوزات (سياسية) في تاريخ
 المسلمين هبأة من صحراء الظلام التي أنارها الإسلام.
 بقية تأتي على لسان مسيحي متخصص في تاريخها، هو
 د. إسحق عبيد. أستاذ تاريخ العصور الوسطى، بجامعة
 عين شمس، يوجزها متخصص آخر هو د. عبد العظيم
 رمضان أستاذ التاريخ في جامعة المنوفية. وكلاهما محقق
 (ليس بالقلب ولا بالمنقب ص ٢٢) (١): إذ كل من
 القلب والمنقب لا يصل إلى التحقيق. يقولان، ولا ينبثق
 مثل خير:

أثبت التاريخ أن أشنع الجرائم ترتكب باسم أنبل
 المبادئ، وعلى يد رجال هذه المبادئ أنفسهم، فقد
 ارتكبت (جرائم عهد الإرهاب) في فرنسا على أبدي
 دعاة الحرية والإخاء والمساواة. وارتكبت (بول بوت)

جرائمه في كمبوديا باسم نفس المبادئ. ويرتكب الحكام السياسيون جرائم اضطهاد الرأى المعارض تحت اسمى: المبادئ الإنسانية، وشعارات حماية مصالح البلاد، بل باسم حماية الديمقراطية.

محاكم التفتيش أسسها البابا (لوسيو الثالث) ثم (أنونست الثالث سنة ١٢١٥) لاضطهاد المسيحيين المخالفين لرأى الكنيسة، واستمرت في قمع الفكر المخالف بالحديد والنار والإرهاب عدة قرون، واضطهاد الكنيسة الكاثوليكية لرأى المخالفين لها قديم، يرجع إلى القرون الأولى للمسيحية، ففي سنة ٣٨٥ قبض على المفكر الأسباني (برتسليان) وأحرق بأمر الإمبراطور (ماكسيموس) لما أبدى من (الهرطقة) (= الرأى المستقل، أو الاجتهاد الفردى). وكان أول قرار قانونى بعقاب الهرطقة بالموت حرقا كان سنة ١١٩٧ على يد بطرس الثاني ملك (أراغون) بأسبانيا.

ويهمنا هنا أن نظهر أن تصاعد العنف ضد أصحاب الرأى المخالف تواكب مع تصاعد الفساد داخل الكنيسة.

وعرف عن مندوبى الباب (= القاصد الرسول) أن جيوبهم باتت تحشى بالذهب والفضة فى رحلاتهم التفتيشية، حتى باتوا (يعبدون صنم المال) وقد صاح : (روبرت جروستيس) فى وجه البابا أنوست الرابع قائلا : الويل لكم من صنم المال .

ويذكر عن مخازى البابا (إسكندر السادس) أنه كان مغرما بالنساء، وكان يحيط نفسه بالراقصات، وكان له أبناء كثيرون فراخ زنى . واشتهر عنه، مثلما قيل عن سلفه، (سكنوس) الولع بالغلمان، ولم يكن يتورع عن دس السم لمن يريد التخلص منه ليرث أملاكه . ولم يسلم من هذا الجرم علما نيا أو رجل دين فى روما .

وأخذت الكنيسة تستعين على ضرب أصحاب الرأى بالمنظرين القانونيين ؛ فقد أقرّ فقهاء القانون الكنسى عقوبة الموت، للهرطقة . وسار على هدى فتواهم كبار الأساقفة، وبعض الملوك . وبرر توما الإكوينى (حجة المسيحية، وحرها وفيلسوفها فى القرون الوسطى) هذه العقوبة بقياس عقلى، ونص من الكتب المقدسة، كما هى

العادة حتى الآن .

وقد نجحت أساليب محاكم التفتيش في جرّ الأب إلى أن يشهد على ابنه، والإبن على أبيه، والزوج ضد زوجته، والزوجة على رجلها. وهنأهم البابا (جرينجورى التاسع) على هذا النجاح المنقطع النظير !!

وكانت المحكمة تستعين بالخبيرين السريين الذين كانوا يسافرون إلى الخارج لتعقب المراطقة الهارين، وابتدع هؤلاء الخبIRON طريقة الانضمام إلى الفئات المهرطقة للتحقق منهم، ومن أسمائهم، ثم الإبلاغ عنهم، والشهادة عليهم أمام المحكمة .

وكانت قاعدة؛ (البلاء يفتح الأفواه المغلقة للاعتراف) هى قاعدة تعذيب المتهمين حتى يعترفوا، فى صور من التعذيب تفوق الخيال .

والمتهم الذى يعترف بإثمه، ويبدى استعداداه للتوبة يحكم عليه بالسجن مدى الحياة، فى سجن الموت خير منه، كتب عليه: دار الآمنين !!

ويمتد الحكم إلى هدم منازل الهراطقة ونواديهم، بل ذهب البابا (أنوسنت الرابع) في ١٥ مايو سنة ١٢٥٢ إلى الأمر بهدم المنازل المجاورة لمنزل المحكوم عليهم؛ خشية أن تكون قد تلوثت بوباء الهراطقة.

وقد انتهت محاكم التفتيش في أوروبا، بعد أن أفلحت في تحقيق أغراضها، ولكن نفس الفكرة التي قامت عليها، فكرة اضطهاد خصوم الرأي والفكر لم تنته، بل انتقلت إلى أيدي السلطة العلمانية. إه (١)

أقول: ما ينبغي أن أنهى هذه الصورة حتى أضعها في هذا الإطار، وأطرز حاشيتها بذلك الواقع العلماني من الثورة الفرنسية، التي مازال أهلها، وكثير من الناس، يتخذونها مثلاً. أنقله عن الأمريكي: (كرين بریتون) في كتابه تشكيل العقل الحديث، يقول:

وعد (عصر التنوير) بجنة على الأرض، ستأتي عاجلاً، يتحرر فيها الإنسان من القوى الشهوانية، ومن

الجهد، والعرق، والدم. ولما حدث هذان الحدثان التاريخيان: الثورة الأمريكية، والثورة الفرنسية، ملاهما أمل طاغ في بناء المدينة الفاضلة: (يوطيا). تلك كانت روح التفاؤل التي سادت الأيام الأولى للثورة الفرنسية، حتى ذهب كثير من المثقفين إلى أن التاريخ قد توقف، ولن يكون ثمة تاريخ بعد الآن؛ الصراع قد توقف، وانتهت المعاناة. إن الجنة ليس بها تاريخ! ومع ذلك فقد قبض على (كوندورسيه) العالم الرياضى، والفيلسوف، ورجل الاقتصاد، ورئيس الجمعية التشريعية الفرنسية، الذى دعا إلى المساواة، والتصدى للاستبداد، والتخلى عن الخرافات، وأودع سجنًا فى إحدى ضواحي باريس، غيرت الثورة الفرنسية اسمه إلى: (مدينة المساواة)! ص ٢١٤ — ٢١٦.

وقصة العالم الإيطالى (جاليليو) معروفة، تمثل موقف الكنيسة من العلم، فى الوقت الذى أفنى فيه رجالها حياتهم فى جدال عقيم لمعرفة: كم من الملائكة يمكنهم الوقوف على سن إبره!

وقصة العالم الأديب الشاعر الفيلسوف (برونو) الذى ظل يعانى آلام الترشيد ست عشرة سنة، لآرائه المخالفة لما تواضع عليه رجال الدين، فكان مصيره أن أحرقوه فى ميدان الأزهار فى روما سنة ١٦٠٠، ثم فى سنة ١٨٨٩ أقاموا له تمثالاً فى الميدان نفسه (١).

«لقد كان القسيس معادياً للحرية، وحليف الحاكم الطاغى، حماية لأخطائه هو، حتى أوجدوا ماهو معروف باسم: (حق الملوك المقدس)، والذى يقضى بأن الملك إله على الأرض، أو أنه نائبه على الأرض، ومن يعارض إرادته فإنما يعارض مشيئة الرب، وهذا هو الكفر والتجديف (٢)» .

ومن المعروف أن البابوات عمدوا إلى دعم الكرسي البابوى استناداً إلى (هبة قسطنطين). وكان المفهوم أن وثيقة الهبة تعود إلى الامبراطور قسطنطين، وأنه، حين

١ — المرحوم الأستاذ على أدهم : مجلة العرف ع ١١٠

٢ — كرين يرنو : تشكيل العقل الحديث . ترجمة شوقي جلال من سلسلة

عالم المعرفة ص ٦٦ ، ٢٠٧

غادر روما ليؤسس القسطنطينية نصب البابا خليفة له في روما، وأعطاه حق الولاية المباشرة للأراضي المحيطة بروما، والتي عرفت باسم: (ولايات الكنيسة). ظل الأمر كذلك إلى أن تمكن (فالا Valla) من إثبات أن الوثيقة مزورة!! (١).

أما شريعة الدولة المسيحية، فأساسها شريعة التوراة، التي أسلفت طرفا منها عند الحديث عن الدولة اليهودية، فالمسيح جاء مؤيدا لشرائع العهد القديم، وليس مبطلا لها (لاتظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل). (متى ص ٥).

وكان، مما نسب إليه، من التكميل:

قد سمعتم أنه قيل للقديماء لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجب الحكم. وأما أنا فأقول لكم إن كل من

١ - المرجع السابق ص ٤٢

يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم .. ومن
قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم ... فإن كانت
عينك اليمنى تعثر فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خير لك
أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم .
وإن كانت يدك اليمنى تعثر فاقطعها وألقها عنك ، لأنه
خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله
في جهنم .

وقيل : من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا
فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعله الزنى يجعلها تزنى .
ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى ...

سمعت أنه قيل : عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول
لكم لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن
فحول له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ
ثوبك فاترك له الرداء أيضا ...

سمعت أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك وأما أنا
فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى

مبغضكم (متى ص ٥) .

«لا تكتنوا لكم كنزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ.. بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء... لاتقدرون أن تخدموا الله والمال، لذلك أقول لكم لاهتموا لحياتكم بما تأكلون وتشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون... فلا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفي اليوم شره» . (متى ص ٦) .

«لاتعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا دركم قدام الخنازير..» (متى ص ٧) .

«لاتظنوا أني جئت لألقى سلاما على الأرض. ما جئت لألقى سلاما بل سيفا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنتة ضد حماتها. وأعداء الإنسان أهل بيته» (متى ص ١٠، ولوقاص ١٢: جئت لألقى نارا على الأرض..)، (ولوقاص ١٤) .

«وقدّم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت في

زنا.. وفي الناموس أوصانا أن مثل هذه تترجم . فماذا تقول؟. قالوا هذا ليحربوه . قال لهم من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر . (يوحنا ص ٨) .

هذه صورة مجملة لدولة الديانتين الكبيرين قبل الإسلام . ونشأت الديانات السالفة عليهما في أحضان دول ، كديانة المصريين القدماء .

كان موسى يخرج بقومه من مصر إلى أرض يقيمون فيها حكما غير حكم الدولة التي خضعوا لها ، وعقيدة غير عقيدتها ، فكانت دولة ، بعد ، على صورتها التي وصف كتابها ، وشهد حاضرها .

وجاء عيسى متمما للناموس ، فكانت الدولة على ماشهد به أبناء دينها في كل زمان فمن أراد أن يهدم دولة الإسلام فعليه أولا أن يهدم دولة جميع الأديان ، وأن يحو تاريخ بنى الإنسان ، إن كان ذلك في المستطاع . وماهو بالمستطاع !



دولة الإسلام

جاء الإسلام والأديان على ماسلف مما وصفت، وما
بقي من دولها على ما بينت ! .

جاء الإسلام والإنسانية تعاني عوامل الفناء، وتحتضن
أسباب التخلف...

جاء الإسلام ليخرج الناس من عبادة بعضهم بعضا
إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل
الإسلام، ومن ضيق الدنيا، حيث احتكرها الأقوياء،
والعلية من الطبقات، إلى سعة الدنيا، التي وسع الله فيها
المؤمن والكافر، والبار والفاجر. ورسم لهم في ذلك
منهج الله الذي يخرجهم من هذه المآثم، ويأخذ بأيديهم
إلى حياة طيبة تقوم بأيديهم وجهدهم وجهادهم على

مبادئ هذا المنهج. منهج إلهي يتحقق بجهد البشر،
وجهدهم، ومشيتهم. جهدهم وجهادهم لافي وضع
المنهج، ولكن في الأخذ به، وتطبيقه. منهج هو عقيدة،
ونظام أساسه العقيدة. أما العقيدة فحكمها في الإسلام
الاختيار ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ﴿فمن
شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ وهذا غاية السمو في تقرير
حرية الإنسان!!

أما «النظام» فإنه فرضٌ مَنْ اختار العقيدة. ومن
التناقض أن يختار العقيدة ويرفض نظامها. ومن التجزئة،
سيئة الأثر، هذا التفريق.

بالنظام يتحقق الإنسان الملتزم. وبالعقيدة ونظامها
ينسجم الإنسان مع نفسه، ومع كونه، وبالعقيدة
ونظامها يوجد الإنسان الحر الملتزم. وهذا هو الإنسان
حقاً.

هذه صورة الإسلام مجملة، سوف يأتي بعض
تفصيلها.

هذه صورة الإسلام بعد صورة الأديان، والناس قبله .

هذه صورة الإسلام التي ظلمها الدكتور فرج على فوده، وطلاها بغير طلاؤها، عندما نعتها بنعوت الكهانة، والحكم الإلهي، إلى غيرها من أوصاف ما كان للديانات قبل الإسلام، على ماسلف به البيان . ثم ظلمها ظلماً آخر عندما جعل تصرفات بعض الناس حاكمة عليها، وانطلق منها رافضاً نظام الإسلام، مقدماً على عقيدته عقيدة القومية المحلية التي هي الأخرى من واردات الفساد الديني، ووافدات عداوة جور الأديان، مساوياً بين أديانٍ قامت لها دولة، فراجت بها عبادة الأوثان، ودينٍ غلب الأوثان وحرر الإنسان . وبذلك أصبح لازماً له . وإن لم يرد - رفض الإسلام في عقيدته ونظامه معا . واختلط عليه، في هذا الرفض ما هو من العقيدة ونظامها، وما هو من الاجتهاد في شريعته، والاجتهاد في نظامها، وحمل على الإسلام خطأ الإنسان، وإن حاول أن يتخلص منه من غير مخلص .

أرجو أن يكون في هذا مقنع للدكتور فرج فوده؛
ليعلم أنه ظلم تاريخه، وظلم دينه، وخدع قارئه،
وطمس وجه الحق. والرجل الحر حقا تأبى عليه حرته
أن يرى الحق مظلوماً، بله أن يظلمه.

وددت لو أن الدكتور فوده أنصف تاريخ الإسلام،
ودونة الإسلام، ولو كان له على بعض حكامها مأخذ.
ووددت له أن يرتفع إلى الأفق الذى ارتفع إليه
الدكتور نظمى لوقا، وهو المسيحى، حين أخذته الغيرة
على حق الإسلام، ونبي الإسلام.

يقول الدكتور نظمى لوقا، فى كتابه: (والمحمداه)
على إثر ظهور كتاب: محمد الرسالة والرسول، يقول:
سؤال وجواب: أما السؤال: فمِ اهتمامك - وأنت
المسيحى - بالدفاع عن رسول الإسلام؟ والجواب...
لباب المسيحية دعوة المحبة، نَعْمُ بنحبا العدو والصديق،
فواجب المسيحى حقا أن ينطوى على الحب، وأن يدافع
عن المظلوم، والمفتري عليه... وبهذا الاعتبار، كان

الأخلق أن يعجب المتعجب من منتسب للمسيح (كفئة
المستشرقين) يفتات على صاحب رسالة اهتدى بها
الملايين ... وإني لأربأ بنفسى أن يكون الذى يفتات،
أويتواطأ على مثل ذلك الافتئات اللئيم ... معاذ المروءة ...
شرف كل صاحب رأى، وفضل كل معتقداً هو في
نقاء إخلاصه للرأى والعقيدة منزها عن المصلحة الذاتية
أو الطائفية فكلاهما مطيه الهوى، والتعصب المغرض ..
وتلك هى الخيانة لأمانة الحقيقة، وليس للشريف ذى
المروءة حقاً، أن يتستر على ذلك الافتراء الوضع، ولو
كان المفترى عليه خصيمه فى الرأى، أو مخالفاً له فى
العقيدة ... ومن لم يشعر بالتأذى لفرية تصيب خصيمه،
أو المخالف له، فماذا يبقى له من معنى الشرف
والمروءة؟! ...

ومتى تكون الغيرة فى موضعها الصحيح، إن لم
تكن على سمعة هاد من هداة البشر، طالما نال منه
المفتاتون، بلا تورّع ولا حياء؟ فأى الناس أولى بنفى
الكيد عن سيرته من (أبى القاسم) الذى حوّل الملايين

من عبادة الأصنام الموبقة . إلى عبادة الله رب العالمين ،
ومن الضياع والانحلال ، إلى السمو والإيمان . اهـ
ص ١٣ - ٢٣ .

* * *

حقائق إسلامية

هنا طائفة من الحقائق، لها صلة بالإسلام، ودولته، كما أن لها صلة بالمسلمين.

هناك ماهو دين، وهناك ماهو سياسة، وهناك ماهو سياسة الدين.

الدين

أما ماهو دين فهو ما اتصل بالتعريف بالله وصفاته وأفعاله، وكيفية عبادته. وما يتصل بالغيب عامة، وما يتصل باليوم الآخر... وكل ما لا يستقل العقل بتفصيله،

والاهتداء إليه، مما يرقى بالإنسان مادة وروحاً^(١).

وليس في ذلك، في الإسلام، ما يصادم العقل أو الفطرة، أو العلم اليقيني.

وقد أجمل الإسلام الحقائق الجامعة للدين في ثلاثة، وأخبر أنها القاسم المشترك بين المتدينين وإليها الاحتكام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة البقرة: ٦٢

أرأيت عدلاً بين الأديان فوق ذلك العدل؟

أرأيت ديناً وُحِّدَ الحكم بينها مثلما فعل الإسلام؟

أرأيت ديناً وُحِّدَ أصول الأديان، مما يساعد البشرية

١ — راجع في تفصيل معاني كلمة دين عند المسلمين وغيرهم: فريد وجدي: الإسلام دين عام خالداً، والمدنية والإسلام. والشيخ مصطفى عبد الرازق: الدين والوحي والإسلام. والسجستاني في غريب القرآن. والراغب في مفردات القرآن

على وحدتها، كما فعل الإسلام؟ ﴿إنا أوحينا إليك كما
أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده..﴾ سورة النساء
﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا
إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا
الدين ولا تتفرقوا فيه﴾... ﴿فلذلك فادع، واستقم
كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله
من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا
أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع
بيننا وإليه المصير﴾ سورة الشورى. لا حجة
(لا خصومة).

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا
وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ
بعضنا بعضا أربابا من دون الله* فإن تولوا فقولوا
اشهدوا بأننا مسلمون﴾ آل عمران.

ليس فى شىء من ذلك ما ياباه العقل، بل كله مما
يؤيده العقل، ويطمئن الضمير.

ودور البشر هنا التفكير فيه، وتدبر معطياته وآثاره،
واستكشاف روابطه في العقل والوجدان، ثم الاستمساك
به، وتحويله إلى عمل صالح يعمر الحياة بالنفع، كما عمر
القلب باليقين.

وليس في الإسلام (دين) يقتصر على الضمير،
ويتوقف عند حدود المسجد.

وليس في الإسلام (دين) لا يثمر أقوالاً طيبة،
وأعمالاً صالحة.

وليس في الإسلام (دين) يقتصر على الدراسة
الفكرية، والأبحاث النظرية، وثقافة المعرفة.

وقد تجدد في (الدين) في الإسلام ما لا يدرك العقل -
على التفصيل - حكمته، وإن أدركها على الاجمال .
ذلك: كعدد ركعات الصلاة، وتنوعها على الوجه
المعروف . ومثل أنصبة الزكاة . ومثل عدد أشواط
الطواف . لكن ينبغي أن نتنبه على أن هذا النوع - وإن لم
يدرك العقل حكمته، أو علته على التفصيل - فإنه

لا يرفضه؛ لأنه لا يتناقض وضرورة من ضرورات العقل،
وبديهية من بديهيات الفكر.

وهنا سؤال يوجهه بعض الناس بحثاً، أو استشكالا،
وهو سؤال مرفوض عقلا؛ لأنه سؤال دائر. ذاك
السؤال هو: لماذا كانت الصبح ركعتين، والمغرب ثلاثاً؟
لماذا كان الطواف سبعا؟ وأمثال هذه الأسئلة عن علل
بعض أشكال العبادات.

أقول: هذا سؤال دائر؛ إذ لو كانت الصبح ثلاثاً،
والمغرب اثنتين، لبقى السؤال، ومادام كذلك فهذا
وذاك يستويان في العقل. وبقي الترجيح للشرع، ولا
ضير على العقل في ذلك. وهذا مناط من مناط الاعتقاد،
ولا ضير على العقل من التسليم بأحد ما يستوى عنده
طرفاه، إذ لا حرج فيه على العقل في شيء، فإن أجهد
العقل نفسه، وحملها ما لم تُحمَل، واستنبط لذلك حكماً
وعللاً، فليس في الشرع الإسلامي ما يمنعه، أو يجبر
عليه، وتاريخ الفكر الإسلامي حافل باجتهادات العقل في
أخص الميادين الدينية، وأعضلها: الذات الإلهية، وما لها

من صفات، وما يجب لله، وما يجوز، وما يستحيل.
والنفس والروح. والحياة والموت. والبرزخ والبعث
والجزاء. واتسع الإسلام لذلك، وما ضاق به، وما جعله
حكرا على أحد، وحجرا محجورا. على غيره، مادام
الباحث صحيح القصد، مستأهلا للبحث.

وهنا أمر يُلفت إليه، هو أن بعض أشكال العبادات
هذه، التي لا يدرك العقل عللها، لا بد أن تكون ثابتة
النسبة إلى الشرع بسند موثوق به، مقطوع بصحته،
مسلم عند العقل طريقه. وهذه من خصائص دين
الإسلام؛ إذ ثبت بالسند المتصل، المدروس، المعروفة
حلقاته. وفرق علماء الإسلام فيه بين ماثبت بالسند
المتواتر، والمشهور، والآحاد. وليس في أديان الناس مثل
ذلك، ولا قريب منه! لذلك قبل العقل ثمرته ومنتها،
وقبل عنده بثلاث عقليات: ثبوت سنده، وصحة متنه،
وعدم تناقضه مع حقيقة عقلية أو علمية. وتلك أيضا
خصيصة إسلامية. هذه خاصة للإسلام دينا، يطمئن
إليها الإنسان عقلا وشعورا، ولا تفرض عليه إيمانا يناقض

عقله ، ويقلق وجدانه .

التقيت براهبة فاضلة ، رغبت أن أحاورها بالحق ، فقلت لها : إذا تدبرنا عقائد الإسلام لانبجس فيها ما يرفضه العقل . بينما إذا طبقنا ذلك على المسيحية وجدنا فيها ما يناقض العقل ، بل نجد ما يجزم العقل باستحالته ، إذ لا نجد نسقا رياضيا سويا يقبل القول بأن الثلاثة ثلاثة ، وفي الوقت ذاته واحد !

قالت : هذا صحيح .

قلت : فكيف نقبل عقيدة شأنها ذلك ؟

قالت : لأننا نعتبر غاية الإيمان أن نؤمن ونحن غير فاهمين .

قلت : هناك فرق بين عدم الفهم ، وفهم التناقض ، فكيف نؤمن بما يفهم العقل تناقضه ؟ وإن خاصة الإنسان : عقله ، كيف نهملها ؟

قالت : سوف نفهم يوم القيامة !

قلت : أنقضى حياتنا نخاطر بأهم شيء : العقل ، والعقيدة ، والمصير ؟

فكيف لو تبين لنا يوم القيامة أن ما اعتقدناه غير صحيح ؟

قالت : تريد الإجابة بصراحة ؟

قلت : هذا ما اتفقنا عليه .

قالت : ليس عندي ، ولا عند غيري جواب .

شكرتها ، وانصرفت .

نعم ، ليس عندها ، ولا عند غيرها جواب ، وهى المتخرجة فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وكلية اللاهوت فى فرنسا .

نعم ليس عندها ولا عند غيرها جواب ، لأنه لا جواب .

وهذا ما برأ الإسلام منه العالمين ، ودعاهم إلى احترام عقولهم ، ورفض التقديس لما لا عقل ، ولا علم فيه .

* * *

الدولة والدين

الدين الإسلامى يحترم العقل، ويستلزم العمل، ويراعى المصلحة، ويحافظ عليها. وحفظ المصلحة يكون: بإيجادها، ودرء الخلل عنها بعد وجودها.

وأوجب هذه المصالح، وأشدّها ضرورة، وألزمها لحفظ الحياة، ونفى قوّتها: هو الدين. ولذلك كان على الدولة المسلمة حراسته والمحافظة عليه، والجهاد فيه، والدعوة إليه. كما أن ذلك واجب أفراد هذه الدولة وجماعاتها. وهى من هذه الجهة تسمى: دولة دينية. ليس بمعنى أن حاكمها إله، أو أنه معصوم من الخطأ، طاعته فرض مطلق فى كل ما يأمر وينهى... إذ ليس فى الإسلام حاكم بهذه الصفات، حتى رسول الله ﷺ.

ولما كان الدين واجباً على هذا النحو، ولازماً حفظه
على ذلك الوجه كلفنا: بالإيمان لتحقيق الدين، وكلفنا
بالدعوة والتصدي للفساد، وكلفنا حفظ الوطن.

* * *

الإيمان

أساسه، في الإسلام، شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

ومعناها اللفظي: نفى أن يكون في الوجود معبود بحق إلا الله، الإله الحق الواحد، الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فاطر السموات والأرض ومافيهما... وإثبات أن محمداً رسول الله، ختم به الرسالات، وأكمل به الأديان، ليس بدعا من الرسل، ليس بإله، وليس بملك، إنما عبد الله ورسوله.

وحقيقتها المعنوية، ومعناها الشيعي وماهيتها: البراءة من العبودية لغير الله، وخلع كل صفة من صفات التقديس عن كل شيء سوى الله. ونظم كل ماعداه في

سلك واحد تستوى فيه جميعا بالنسبة له سبحانه ، فكلها له عبد . وتستوى هى فيه بنسبة بعضها إلى بعض ، من حيث هذه العبودية ..

ومع هذا البراء ولاء لله وحده بالعبودية الكاملة ، والطاعة المطلقة ، وخشيته فى الغيب والشهادة ، ومراقبته فى السر والعلن ، واليقين بأن المبدأ منه ، وأن المصير إليه ، وإيثاره على النفس وهواها ، وعلى الحياة ومتاعها ..

ومع هذا البراء والولاء فناء فى مراد الله عن كل مريد ومراد ؛ ليكون الإنسان سَلَمًا لله ، قائما عند أمره ونهيه ، آخذًا بمنهجه ، واقفا عند حدوده ، كما أبلغه عنه رسوله ، محمد عليه السلام .

معناها الحركى : سعى الإنسان نحو خالقه ، حنيفا مسلما ، مقبلا عليه ، معرضا عما سواه : (لا إله إلا هو) . وقرب من الله للعبد ، للإنسان ، وأخذ بيده إلى منهجه ، وعون له على التعرف على المنهج والعمل به ، وإيضاح لهذا المنهج فى صورة قريبة من الإنسان : (محمد رسول الله) وثمره كل ذلك :

أن يتخلص الإنسان من الوثنية الداخلية، في وجدانه وفكره. فلا طاعة لهواه ولا لشهوته. وأن يتخلص من الوثنية الخارجية. فلا قداسة مطلقة لموروث، ولا تقليد يلغى العقل والعلم، ولا جبت يحجر على الفكر، ولا طاغوت يُشرك في الطاعة والعبادة. ولا ظلم، ولا رضابه. ولا استبداد ولا تسلط. ولا ذلة ولا دنية، حتى الانحناء، لاتكون إلا لله. ولا اشتراع لما يخالف ماشرع الله...

وبذلك لانجد في دولة الإسلام وثنية سياسية، يستبد فيها الحاكم بالمحكوم، ويتقبل فيها المحكوم. كل أمر ونهى، وكل فعل يهبط عليه من السلطة...

ولا نجد فيها وثنية المال، فلا تجد المال فيها دولة بين الأغنياء، يستحوذ عليه كل قادر بالحق والباطل، ويصبح المال قيمة في ذاته، والوفرة قيمة في ذاتها، ويترك انتفاع المجتمع للتلقائية التي تأتي تبعا وتابعا غير مقصود لنعمة الجمع والاستحواذ والاكتناز. إنما هو في دولة الإسلام نعمة من الله، والإنسان مستخلف فيه، له نصيبه منه،

كما أنه موظف فيه وظيفة اجتماعية، فليس المال خارجا عن الإنسان كلبية، ولا هو مستبد به استبدادا. إنه فيه بين المالك والموظف.

ومن تلك الثمار التخلص من الطبقية. فلا استعلاء بلون، ولا جنس..

ويتحقق بتلك المعاني، وهذه الثمار: الإنسان المسئول، المكلف، الحر، المريد وتحقق المساواة التي تزيل المانع، وترفع العقبات، وتطلق المواهب، فيستبق بنو الإنسان إلى غايتهم، على معارج الكمال، ومدارج السمو..

ويتحقق التعاون الاجتماعي على حدود منهج مرسوم ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾ سورة الحج .

وبكل ماتقدم يتحقق للإنسان مبرر وجوده في هذه الحياة، وتتضح له معالم رسالته فيها، ويعرف: من أين؟

وإلى أين؟ ولماذا؟

وهي الأجوبة الثلاثة التي يفقدها الإنسان
انسجامه، ويجهل حقيقته، ويستبد به القلق، بين فقدان
التوازن، وجهل الحقيقة.

* * *

الدعوة

بعد أن يمكّن الله لدولة الإيمان، أوجب الإسلام عليها، كما أوجب على الأفراد الذين عرفوا الإيمان، وذاقوا حلاوته أن يعلنوا الإيمان، وأن يُعلّموا به، ويعلموه، ويدعوبنى الإنسان إليه، خروجا من الأثرة، وإخراجا للناس من الظلمات إلى النور، ونشرا للخير، وقياما بحق الله فى حياة الإنسان.

وقد جعل الله للدعوة مراتب بحسب حال الناس معها:

— فالمستجيب القابل الذكى، الذى لا يعاند الحق، ولا يأباه — يدعى بالحكمة.

— والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخر - يدعى بالموعظة الحسنة. وهى الأمر والنهى، المقرون بالرغبة والرغبة، وآثارهما فى مشاهد الخلق. فهى نوعان: عظة بالمسموع من الهدى والرشد، والنصائح التى جاءت على لسان الرسل، وما أوحى إليهم. وكذلك الانتفاع بقول كل ناصح أمين عارف فى مصالح الدين والدنيا. وعظة بالمشهود: بما يراه ويشهده فى العالم، من مواقع العبر، وأحكام القدر، وما يشاهده من آيات الله، الدالة على صدق رسله.

— والمعاند الجاحد يجادل بالتي هى أحسن، مالم يحدث فتنه: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن﴾ سورة النحل ١٢٥.

أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة؛ إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتى وأما الموعظة فقيدها بوصف الحسن إذ ليس كل موعظة حسنة. وكذلك الجدال، قد يكون بالتي هى أحسن، وقد يكون بغير ذلك.

ووصف الجدل بما يوصف به من الحسن وضده
يشمل أمرين: حال المجادل: من الغلظة والحدة، أو اللين
والرفق. فيكون مأمورا بالمجادلة بالحال التي هي أحسن.
كما يشمل صفة ما يجادل به، من الحجج والبراهين،
والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على
المقصود، وأوصله إلى المطلوب.

— وأما المعاندون الجاحدون، الذين يأبون الجدل
بالتى هي أحسن، ثم يفتنون الناس عن الحق، ويحولون
بينهم وبين حريتهم في الاختيار الحر، سواء في ذلك
بالإعلام المضلل، أو القلم المزور، أو السلطة الجائرة..
هؤلاء، مع إباؤهم الجدل بالتى هي أحسن تعلن لهم قوة
الدولة، تلويحاً بها لعلهم يرجعون عن فتنة الناس،
والحيلولة بينهم وبين حريتهم، فإن لم يجد ذلك فلهم
القتال ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾
فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴿سورة
البقرة: ١٩٣﴾

فالأمر بالجدال لا ينافي الأمر بالقتال، فلا نسخ. وكلُّ

من الجدال والقتال ينفع حيث لا ينفع الآخر .
واستعمالهما معا أبلغ في إظهار الحق، وحماية الدعوة ،
وإعزازها ، وأخضد لشوكة الباطل المعتدى . فالمواطنون
غير المسلمين ، ومن لهم عهد ، والمستأمن والمسلم لا يجاهد
بالقتال . وأما الظالم المعاند ، الذى لا يطلب العلم ، بل
يصد عنه ، ويحجر على حرية الناس فى الاختيار فلا يجادل
بل يجالذ أما طالب علم الإيمان ، ولم يظهر منه ظلم
العناد ، سواء كان قصده الاسترشاد ، أم كان يظن أنه
على حق فهذا يجادل بالتى هى أحسن (١) .

والناظر فى حروب المسلمين أيام الراشدين خاصة
وجدها كانت لدرء الخطر عن دولة الإسلام فكانت
حماية للدعوة ودولتها من حكومات تتربص بها الدوائر ،
فلما زال خطرهما ترك لشعوبها حرية الاختيار . وبذلك
حمت دولة الإسلام نفسها ، وحمت الناس من استبداد
حكامها . وهذه رسالة دولة الإسلام لأهل الأرض : إما
أن يفتئوا إليه ، وإما أن يسالموه . وعلى ذلك فدفاع

١ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . ج ١ ص ٦٦

الإسلام عن نفسه ليس دفاعا محليا، ولا إقليميا.. إنما هو دفاع عنه في سيره إلى الناس في كل مكان يدعوهم، ويعرض عليهم نفسه، وموقفه من الناس على حسب موقفهم من دعوته، فمنهم من يدعى بالحكمة، ومنهم من يوعظ بالحسنى، ومنهم من يحاور، ومنهم من يقاتل.

ومن يُلَمّ الإسلام في الأخيرة، ويحاول أن يغمزه بها فهو غير فاهم لرسالة الإسلام العالمية أو غير فاهم لطباع الناس. وهو في هذه وتلك يريد أن يسلب الإسلام قوته الخبيء في نفسه!

وهذه هي المرحلة الأخيرة من مراحل علاقة المسلمين بالمشركين أيام الرسول ﷺ، التي لخصها ابن القيم تلخيصا جامعا في كتابه زاد المعاد، تلك هي أن القتال كان ممنوعا على المسلمين ثم مآذونا فيه بسبب مالحقهم من ظلم، ثم مأمورا به لمن بدأ بالقتال، ثم مأمورا به أمرا عاما. وهذا لمن عاند، وأبى الجدل بالتي هي أحسن. هذا هو المعنى الصحيح لآية الدعوة من سورة النحل.

وأما استنزالها على طبقات الناس في مناهج الاستدلال، وأقسام الحجّة، فمنهم من لا يقنع إلا بالبرهان اليقيني المقدمات، ومنهم من يسلم بالمقدمات من غير استيقان، بل ينظر في النتائج؛ ليرى هل هي من حصيلة هذه المقدمات المسلمة. ومنهم من يأخذ بالمقدمات المشهورة.. كما فعل الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود في عدد مجلة العربى ٢٦١. فهذا تفسير للآية على ضوء المنطق وتقسيمه لأنواع الحجّة، ومواد الأقيسة، التى منها: اليقينيات، وغير اليقينيات ثم هو مع ذلك لم يعتمد من اليقينيات إلا ما يدرك بالحواس قال «فإما أن تجد أن آخر الشوط إنما هو مجرد فرض فرضناه، وهاهنا تعلم أن السلسلة كلها ظنون. وإما أن تجد أن آخر الشوط هو لقطة بإحدى الحواس من ظواهر الكون المحيط بنا. وعندئذ تعلم أن الأفكار هى من ذوات المضمون الحقيقى الذى يجوز الركون إليه..». مع أن علماء المنطق يقسمون اليقينيات إلى ستة أنواع^(١).

١ — راجع تحرير القواعد المنطقية للراى، شرح الشمسية للقزوينى، =

قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين^(١) : وأما ما ذكره بعض المتأخرين أن هذه (آية النحل) إشارة إلى أنواع القياسات، «فالحكمة» هي طريقة البرهان . «والموعظة الحسنة» هي طريقة الخطابة، «والمجادلة بالتي هي أحسن» طريقة الجدل . فالأول بذكر المقدمات البرهانية لمن لا يرضى إلا بالبرهان ، ولا ينقاد إلا له ، وهم خواص الناس ، والثاني بذكر المقدمات الخطابية التي تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة ، وهم الجمهور . والثالث بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذي يندفع بالجدل ، وهم المخالفون - فتنزِيل القرآن على قوانين أهل المنطق اليوناني واصطلاحهم . وذلك باطل قطعاً . إله

هذا ، والداعي ، في كل حال ، بصير بما يدعو إليه ، ومن يدعوهم ، وبطريقة الدعوة ، وذاك هو البصيرة في

= وحاشيته للشريف الجرجاني . راجع الإشارات والتنبيهات لابن سينا

شرح الطوس تحقيق أستاذنا د. سليمان دنيا - القسم الأول

١ - ج ١ ص ٤٤٦ تحقيق الأستاذ محمد حامد الفقى . وله مفتاح دار

السعادة ص ١٦٧ تحقيق أستاذنا محمد ربيع

قوله ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ سورة يوسف: ١٠٨

وسواء كان الوقف (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله) والابتداء (على بصيرة أنا ومن اتبعني) أم كان (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة) وقوله (ومن اتبعني) معطوف على الضمير في (أدعو) فالمعنيان متلازمان، (والبصيرة) قاسمهما المشترك.

* * *

المرتد

لأن الإسلام دين ودولة حمى دولته وطنا ومنهجها وحكومة: دافع عن حدوده، وحمى دعوته، وردعها الفتن الداخلية والخارجية منذ كان للإسلام حكومة لها أمتها، وأرضها، وشريعتها، ورئيسها، وجيشها، ونظمها المالية والإدارية، ولها سلطة التشريع، والقضاء، منذ عهد الرسول ﷺ، ثم عهود من تبعه ما كانت لهم خلافة أو ملك .

لهذا كان للارتداد عن الدين أحكامه، وكان للدولة نظامها في تنفيذ هذه الأحكام.

ما الردة ؟

مادتها : الردّ . وهو : صرف الشيء بذاته، أو صرفه

عن حال هو عليها إلى حال ٥٥ فيها . من الاول ، وهو الرد بالذات قوله تعالى ﴿ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ الأنعام ٢٨ . ومن الرد عن الحال إلى الحال التي كان عليها قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتقلبوا خاسرين﴾ آل عمران ١٤٩ . وقوله فيها ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ ١٠٠ . أى يرجعونكم إلى حال الكفر بعد أن فارقتموه .

فالارتداد، والردة: الرجوع في الطريق الذي جاء منه . لكن الردة تختص بالكفر . والارتداد في الكفر وغيره : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه﴾ البقرة ٢١٧ ، ﴿فارتدا على آثارهما قصصا﴾ الكهف ٦٤ (١) .

ومن بيان أصل المادة ، وتعريف الردة يظهر أن من نشأ من أبوين مسلمين ، حتى إذا بلغ أشده واستوى أراد

١ — بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزباده ج ٣ تحقيق العلامة الشيخ محمد علي البخار

اليقين؛ فتشكك وأخذ يبحث ويدرس ويسأل لاسمى
مرتداً، ولا يكونه؛ لأنه لم يكن كافراً ثم أسلم، ثم عاد
إلى حاله التي كان عليها بعد ما أسلم.

وبهذا تسقط وسوسة الشيوعيين لبعض الشباب بأن
الإسلام دين تقليد، يحجر على الفكر والحرية. وحكم
هذا داخل في مراتب الدعوة وأنواع الناس منها. الذي
سلف بيانه.

كما يظهر من التعريف ومادته أن المرتد هو من لم يكن
مسلماً ثم اختار الإسلام حراً، ثم عاد عنه إلى ما كان
عليه. وهذا إما أن يكونوا جماعة، أو فرداً:

فإن كانوا جماعة يخشى منها الفتنة كان واجب الدولة
قتالها. ومن ذا الذي يلوم دولة تركت الناس أحراراً في
اختيار عقيدتها، فدخلوا فيها أحراراً ثم ارتدوا عنها،
ويشغبون عليها - أن تحمي نفسها من هؤلاء.

لقد سوت الشيوعية بالأرض مدناً، ودحرت
جيوشاً... لأنها أرادت لنفسها نوعاً من الحرية في إطار

المذهب الشيوعي نفسه .

وأطارت الرأسمالية جيوشها آلاف الأميال بعيدا عن حدودها، وإلى خارج قارتها لنصرة مذهبها، وكُتبت حرية الناس هناك ! فمن عجب أن تلام دولة الإسلام على ما هو دون ذلك بكثير، مع ما أعطت من ضمانات : إذ تكفل حرية الاختيار، ولا تنقب عن الأسرار، ولا تشق عن القلوب !

وإن كانت الجماعة المرتدة ليست ذات خطر ولا فتنة، بل سالت معكوفة على نفسها جاز عدم قتالها لقول الله ﴿ فَإِنْ اعْتَزَلُواكُمْ فَلَاحِمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيَقَاتِلُوا ﴾ سورة النساء ٩٠ . فما جعل الله لكم عليهم سيلا . وهذا في حكم الفرد المرتد أولى بالقبول، وأحق بالأخذ .

فهل في مذاهب الناس عدل يقارب ذلك ؟ إنه عدل الإسلام وحضارته قام به أهله ودولته . بل ذهب الفقه الإسلامي في ذلك، بتوجيه الشريعة، إلى فوق ما يتصور البشر : فذهب بعض الشافعية إلى أن من انتقل من ملة غير الإسلام، إلى ملة أخرى غير الإسلام يقتل أبضا

عملاً بظاهر الحديث « من بدل دينه فاقتلوه » !
وذهب الحنفية إلى أن هذا الحديث مخصوص بنهي
الشرعية عن قتل النساء ، فإذا ارتدت المرأة فلا تقتل !
ومن العلماء من ذهب إلى عدم قتل (الفرد) المرتد ،
ويحاور ويستتاب أبداً (١) .



١ — نيل الأوطار شرح متقى الأخبار ج ٧ ص ١٩٣-١٩٥

حوار

ودونك هذا الحوار الحضارى الذى جرى بين المأمون ومرتد تعرف منه: حرص الدولة المسلمة على الدين، وحرصها فى الوقت نفسه على حياة الناس ودمائهم، وفهمهم لطبيعة الخلاف وأحقّيته، وحرصها على ضمانات القضاء والحكم والرأى، وحرصها على كرامة الإنسان... سجّل هذا الحوار الجاحظ فى كتابه: (البيان وتبيين)، قال:

مجادلة المأمون للخراسانى المرتد. ولما دخل عليه المرتد الخراسانى، وقد كان يحمله من خراسان حتى وافى به العراق. قال له المأمون: لأن أستحييك بنحو أحب إليّ من أن أقتلك بنحو، ولأن أقيلك بالبراءة أحب إليّ من أن

أدفعك بالتهمة. قد كنت مسلماً بعد أن كنت نصرانياً،
 وكنت فيها أتيح (=أيسر، وأكثر حركة) وأيامك
 أطول. فاستوحشت بما كنت به آنساً، ثم لم تلبث أن
 رجعت عنا نافريناً. فخبرنا عن الشيء الذي أوحشك من
 الشيء الذي صار آنس لك، من إلفك القديم وأنسك
 الأول. فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به.
 والمريض من الأطباء يحتاج إلى المشاورة، وإن أخطأك
 الشفاء، ونبا عن دائك الدواء كنت قد أعذرت، ولم
 ترجع على نفسك بلائمة. فإن قتلناك قتلناك بحكم
 الشريعة. أو ترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة،
 وعلّم أنك لم تقصر في اجتهاد، ولم تفرط في الدخول في
 باب الحزم.

قال المرتد: أوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف
 فيكم.

قال المأمون: لنا اختلافان:

أحدهما: كالاختلاف في الأذان، وتكبير الجنائز،

والاختلاف في التشهد، وصلاة الأعياد، وتكبير
التشريق، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفتيا،
وما أشبه ذلك. وليس هذا باختلاف، إنما هو تخيير
وتوسعة، وتخفيف من المحنة. فمن أذن مثنى، وأقام مثنى
لم يأثم. ومن أذن مثنى وأقام فرادى لم يَحُب (= لم
يأثم). لا يتعايرون، ولا يتعاييرون. أنت ترى ذلك عيانا،
وتشهد عليه تبياناً.

والاختلاف الآخر: كنحو اختلافنا في تأويل الآية
من كتابنا، وتأويل الحديث عن نبينا، مع إجماعنا على
أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر. فإن كان الذي
أوحشك هذا، حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب فقد
ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والانجيل متفقاً على
تأويله، كما يكون متفقاً على تنزيله، ولا يكون بين جميع
النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات،
وينبغي لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل
ألفاظها. ولو شاء الله أن ينزل كتبه، ويجعل كلام
أنبيائه، وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل. ولكننا لم

نر شيئا من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية . ولو
كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت
المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل . وليس على هذا
بنى الله الدنيا .

قال المرتد : أشهد أن الله واحد ، لاندله ولا ولد ،
وأن المسيح عبده ، وأن محمدا صادق ، وأنت أمير
المؤمنين حقا .

فأقبل المأمون على أصحابه فقال : فَرُّوا عليه عرضه
(=احفظوه) ، ولا تبرّوه في يومه ، ريثا يَتَّقَ إسلامه
(المراد : تمرّ عليه مدة) ؛ كيلا يقول عدوه : إنه أسلم
رغبة ، ولا تنسوا بعد نصيحتكم من بره وتأييسه ونصرته
والعائدة عليه !

مأشبه موقف د . فوده من اختلاف المسلمين ،
واختلاف علمائهم بموقف هذا الفتى الخرساني المرتد .
وما أفهم المأمون لحقيقة الدين ، وطبائع الناس ، وطبيعة
اللغات . هذا الفهم الذي غاب عن الفتى ، فعاب به
الإسلام وأهله ، حتى زين له المروق منه .

لقد سبق المسلمون - بدينهم وأفكارهم - دول الحضارة الحديثة إلى مزية: (تعدد الآراء) التي لم تعرفها أوربا إلا منذ (عصر التنوير). وعرفها المسلمون منذ فجر الإسلام، منذ قرر القرآن ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ هود: ١١٨-١١٩ وإذا كان هذا في العقائد، فهو في الفروع أولى وأقصّد.

لقد حسب الدكتور فوده أن فترة زمنية واحدة تستوعب علل التاريخ كله، كما تستوعب حكمه وأحكامه، وتفرغ منها على نحو يقبل قياس مابقى من الزمان عليها قياسا دائما، بحيث لايقبل المراجعة أو التعديل، بل يسرى حكمها على التعميم. ثم عاد فانتقى من هذه الفترة بعض حوادثها ليجعلها مقياس الزمن كله. وليس هذا بمنهج، وما هو بإنصاف وإنما هو الهوى المحض في تمحيص الحقائق على كر الغداة ومرّ العشي. والرسول يقول: مثل أمتي كمثل الغيث لايدري أوله خير أم آخره. ويقول: لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم...

سياسة الدين

إذا سلمنا أن الإسلام دين ودولة - ولا مناص من ذلك التسليم بهذه القضية، لشهادة حقائق الإسلام، وواقع التاريخ - فلا بد أن يكون للإسلام سياسة تقوم عليها دولته، ويحكم بها مجتمعه وهذا ما أعنيه (بسياسة الدين).

لم يكن الإسلام (بمجرد دين) يوجه الضمير، ويقدم الوعظ، ويحض على العبادة، ويدعو إلى الزهد في الدنيا، انتظاراً لنعيم الآخرة. إنما كان الإسلام الدين الذي حدد معالم العقيدة، وسماها الرقي العقلي والوجداني، الذي سماه بالإنسان فكراً ووجدانا وعملاً ونتائج وكان الإسلام الدين الذي شرع القوانين لحياة الإنسان العامة والخاصة،

وجعل الالتزام بها دليل سلامة العقيدة وكمالها . كما جعلها الشهادة للمتزم بها بالإسلام كما جعل تقبلها بالرضا والتسليم علامة الإحسان ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ سورة النساء: ٦٥ فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليما. وهذا حقيقة الرضا بحكمه. فالتحكيم: في مقام الإسلام. وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان. والتسليم في مقام الإحسان.

ورفض رفضا قاطعا للريب التفرقة بين الدين وسياسة الدين. بين العقيدة والشرعية. ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت...﴾ سورة النساء: ٦٠ «الطاغوت: كل ما تجاوز به الإنسان حده، من معبود، أو متبوع، أو مطاع. فطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه، غير الله ورسوله، أو يعبدونه

من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله. فهذه طواغيت العالم، إذا تأملت، وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت. وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت. وعن طاعته، ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته. وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة، ولا قصدوا قصدهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد معا..» (الإمام ابن القيم في (إعلام الموقعين ج ١ ص ٤١).

وأيضاً رفض رفضاً قاضياً على التردد - قبول بعض الشريعة وترك بعضها الآخر، لتعلق الزمان أو المكان، أو التطور.. إلا ما كان من قبيل الضمانات، والشروط المنوطة بتنفيذها، والعلل المرتبطة بأحكامها ﴿.. أفترمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما

تعملون ﴿ سورة البقرة : ٨٥ .

وبين المقابل لحكمة، وهى مقابلة تقتضى الالتزام
بالشريعة، ورفض مايقابلها، مما يخالفها : ﴿ وأن أحكم
بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن
يفتوك عن بعض ما أنزل الله إليك ... أفحكم الجاهلية
يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴿
المائدة : ٤٩ - ٥٠ .

فحكم الله يقابله حكم الهوى والجاهلية . وعند هذه
المقابلة تكون النتيجة : من أحسن من الله حكما . ولكن
لايعى ذلك، ولا يدرك مكنونه إلا (قوم يوقنون) .

والإسلام، فى سياسته الدينية، لم يقف عند نوع
معين، يختص به جانبا من الإنسان، أو الحياة . بل وضع
(السياسة الدينية) التى تشمل الإنسان وحياته، ابتداء
من (أدب قضاء الحاجة) إلى، (نظام الدولة) وشرعتها
الداخلية ونظمها وعلاقاتها الخارجية . (قيل لسلمان :
علمكم نبيكم كل شئ حتى الخراءة . قال : أجل ...)

نيل الأوطار ج ١ ص ٩٣ .

ومن ذلك: مايجمله ويضع قواعده العامة، التى يمكنها - بحكم صياغتها ملغيا - أن تستوعب الصور التفصيلية، التى تتجدد، وتختلف باختلاف الزمان والمكان، والأحوال .

ومن ذلك مايفصله، كقواعد المعاملات . ثم يفتح مجال الاجتهاد فيها، ومجال الاجتهاد فى القياس عليها، لكل مايتجدد .

ومن ذلك مايفصله تفصيلا، يقل فى مجاله الاجتهاد، ويكثر فيه شح النفس وهواها، كأحوال الأسرة والمال .

وهو فى كل مايجمل أو يفصل - يحيطه بسياج مكن من العقيدة ومراقبتها، ومبادئه الأخلاقية، التى هى الأخرى شريعة واجبة الامثال، لما تظهره مما فى الإسلام من جمال .

ولفقهاء الشريعة، فى كل هذه المجالات، اجتهادات، وتفرعات، وتطبيقات - شهد بدقتها، وشمولها،

وعمقها، وسبقها فقهاء أعلام، من أئمة الفقه، وعلماء القانون، من المسلمين، وغير المسلمين.

فمن (سياسة الدين) وشريعته مايتعلق بالقانون الأساسي للدولة المسلمين: كوجوب نصب الإمام (رئيس الدولة) واختياره، وقيامه بأمانات الحكم، وإقامة العدل، وأداء الحقوق. وكالطاعة في المعروف. والشورى. وحرية إبداء الرأي، ورد الاختلاف فيه إلى أصول هذا القانون الأساسي: القرآن والسنة. ومثل الكفالة الاجتماعية، والتكافل الأدبي لنشر الخير، وكف الشر، وحراسة الدين، وإصلاح الدنيا...

هذه المبادئ الرئيسة والأساسية، في الإسلام (دين) من جهة أن الإسلام أمر بها، ولا ينبغي الخروج عنها، والخارج عنها يجب على الجماعة رده إليها، قويا أو ضعيفا، غنيا أو فقيرا، حاكما أو محكوما. والسكوت عن الخروج عليها سكوت على منكر، تتحلل به الجماعة، وتفقد هويتها.

وهذه المبادئ (سياسة) من جهة تعلقها بقيادة الأمة، وتحقيق مصالحها.

ومما هو من (سياسة الدين) ما يتعلق بالقوانين التشريعية التي تنظم علاقات الجماعة في الملك، والمال، والزراعة، والتجارة... وسائر المعاملات، والآداب التي تزينها، والأخلاق الإسلامية التي تجملها.

وهذا النوع، أيضا، دين، من حيث ورود نصوص الشرع به، ووجوب التزامها، وجوبا تشريعيًا، أو وجوبا أدبيا. وهو سياسة من جهة تنظيم الجماعة، وقيامه بمصالحها.

ومجال العقل الإنساني في هذين النوعين - واسع وفسيح؛ إذ ترك الشرع له ردّ الجزئيات المتجددة إلى أصول الشرع، وقواعده، وروحه.

والفقه الإسلامي، وغزارته، ونموه على مراحل الزمان - شهيد على ذلك.

وقد وضعت له قواعده، وضوابطه. وكلها ضوابط

عقلية، استنبطها العلماء من نصوص الشرع. وكانت من مفاخر العقل الإسلامى. ولما كان الإمام الشافعى صاحب الجهد الأكبر فى هذا الميدان، وكان له فضل تأسيسه علما مدونا - قيل عنه، بحق: إنه فعل للفقه الإسلامى ما فعله أرسطو للمنطق اليونانى.

وبوقف الشريعة من الجزئيات المتجددة، وإفساحها للعقل مجال الاجتهاد فيها، والاجتهاد فى القياس عليها، والقياس هو حكم العقل - اتسعت شريعة الإسلام، وسياسة دينه؛ لتستوعب الزمان والمكان والأحوال. وتقضى مصالح البشر بما يتفق وحاجاتهم المتجددة، فى إطار من سياسة الإسلام وشريعته، وروحه التى تدرك من اتجاهات نصوصه، وقواعد السلوك فيها.

كما اتفقت عقيدة الإسلام والعقل والفطرة...

وكما اتفقت قوانينه الأساسية مع قيم الإنسان وكرامته...

— اتفقت شريعته مع احتياجاته ومصالحه، ويتجدد

ففيها الاجتهاد، ماتتجدد الحاجات والمصالح.
فأى دين، أو فكر، علا بالإنسان فوق هذه المنزلة،
أو مايساويها، أو إلى مايدانيها؟! (ايتوفى بكتاب من قبل
هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين).

* * *

الحسنة المقلوبة

هذه الحرية الفقهية الفكرية المقننة، بما لم يسبق له ضريب في التشريع - لم يوجد في ظلها (عشرات وعشرات من الفقهاء، ممن كان شغلهم الشاغل ترجمة أمانى الخلفاء، إلى أحكام فقهية، بل والعياذ بالله إلى أحاديث مختلفة تنسب إلى الرسول) كما قال صاحب السقوط ص ٢٧. ولم يوجد في ظلها فقهاء (يجدون لكل شيء مخرجا، ولكل خروج على الدين تأصيلا) السقوط ص ١٩ كما لم يوجد في ظلها من يجعل (الرأسمالية من الإسلام، ومن يجعل الاشتراكية هي الإسلام) ص ٦٤.

إنما وجد ذلك في ظل الاستبداد السياسى القديم والحديث، وفي ظل الدولة المدنية التى عاصرها كاتب

السقوط، والتي يدعو إلى دوامها والاستمسك بها -
وجد ذلك في ظل هذا القهر من بعض النفوس الضعيفة،
وليسوا من أئمة العلماء، ولا ممن يقتدى بهم، بل ليسوا
من أوساطهم - كما يصور الكاتب. والاستبداد،
والتحريف كلاهما قد حرمه الإسلام: حرم الاستبداد
بكل ألوانه وصنوفه، عندما كان أساسه الأول توحيد
الإله وتساوى البشر. وحرم تحريف الكلم عن مواضعه،
والكذب على الشرع، عندما وصف من قبلهم بقوله:
﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك
يحرفون الكلم من بعد مواضعه...﴾ سورة
المائدة: ٤١.

فهل إذا زاغ زائغ، واستخدم خصيصة (سياسة
الدين وشريعته) في إفساح المجال للعقل والاجتهاد
والقياس لهواه تحمّل وزره الإسلام، وأتخذ زيفه برهانا
على رفض الإسلام دولة؟! أم يكون الواجب حماية
الإسلام دينا ودولة من زيف الزائغين من المنتسبين إليه.
كوجوب حمايته من زيف الزائغين عنه المطالبين بعزله عن

الحياة، والحجر عليه في الصوامع والزوايا.

وهذا وذاك أمر ميسور إذا صدقت النوايا، وصحت العزائم، ومن سبله وضع الضمانات التي تحمى الحكم الاسلامى من الاستبداد، الذى يتحمل وزر كل ماذكر الكاتب من زيغ وجرائر. والتي نشارك الكاتب التنديد بها، من غير أن نشاركه جعلها قاعدة للحكم الكلى على تاريخ الإسلام كله، وإبتناء خيالات عليها، لاتمت إلى المنهج العلمى بنسب أصيل أو زنيم.

والكاتب هنا قد وقع في (تداعيات خيالية) سببها تجاهل حقيقة علمية:

أما التداعيات الخيالية، فهي كثيرة في كلامه، كتداعيات تطبيق حد الزنا: من إغلاق شارع الهرم، والرقص.. ص-٥٣. ومثل تداعيات إذا أدى دوره على عهد السلف، إذ يقول: (المسجد إذا عاد إلى أداء دوره في عصر السلف الأول سوف يكون ذلك مدعاة إلى اختلاف وفتنة. وليس إلى ائتلاف وتوحد) ويدلل على

ذلك بتخيل إمام مسجد حدائق القبة معارضاً معاهدة السلام مهدداً للحاكم .. (وبالمقابل سوف يرتفع صوت إمام آخر في مصر القديمة مؤيذا لما أعلنه كبار علماء الأزهر ... من أن معاهدة السلام نصر للإسلام ... ليس هذا فحسب، بل إن تصورا منطقيا (هكذا) يتوارد إلى الذهن، مضمونه أن الصدف قد تدفع بعض شباب مصر القديمة إلى الصلاة في مسجد حدائق القبة، فيرتفع صوتهم بالمعارضة ... وتنقسم القاهرة ومساجدها فهذه مساجد للسلام، وهذه مساجد للحرب ..)
ص ٣٨ - ٣٩ .

ويحكم على هذا بقوله: (لست مبالغا أو مستندا إلى خيال مريض) (بل تصور منطقي ص ٣٩) ومن تداعياته الخيالية: (ما إن يبدأ تطبيق الحدود .. حتى يصبح منطقيا أن تتوالى التداعيات الجزئية، بادئة بمنع السفور، ومنتية بمنع الفجور، وهي عبارة مطاطة قد يراها المعتدلون في المعازف، وقد يراها المتشددون في ملابس لاعبي الكرة، وينتهي الأمر بقيام الدولة الدينية في

مصر) (تستند إلى الحكم بالحق الإلهي الذي لا يعترف بالقوانين الوضعية، ولا يرى مصدرا إلا الكتاب والسنة، ولا يعرف من الأحزاب إلا حزب الله وحزب الشيطان. وحزب الله ممثل فيمن يحكمون بإسم الدين. وحزب الشيطان اسمى ليس له وجود ملموس. وفي حد الحرايه مساحة لمن يطلق عليهم «المفسدون في الأرض» وهو تعبير يتسع لكى يشمل كل مخالف لحزب الله) ص ٦٣.

وكذلك يتسع القرآن - في رأى صاحب السقوط - فيكمن الخطر كذلك فيه (وكل ذلك يدفع إلى تأكيد حقيقة هى أن القرآن لكونه كتابا مقدسا أنزل لكل العصور لا يمكن أن يضيق بمرحلة من مراحل التاريخ.. وهنا يكمن الخطر الشديد؛ لأن الأمر سوف يتوقف على رؤية من يفسره) ص ٦٤. وهنا يعيد الاستشهاد بالموقف من معاهدة السلام، ثم يبنى عليها أن (التاريخ الإسلامى بعد الراشدين ملئ بمثل هذه المواقف. ويستشهد بفتنة خلق القرآن (فكم من دم أريق، وكم من أرواح أزهقت) ص ٦٨!!.

(إننى أرىحك وأتجاوز شطحات الخيال السابق التى أرى لها عن خطأ أو صواب سنداً من واقع الحال أو احتمالاته) ص ٤١ .

مرة ينفى أن يكون ذلك خيالا مريضا، ويحكم عليه بأنه تصور منطقى، وأخرى يحكم عليه بأنه شطحات خيال، لها سند لا يقطع به.

وليت شعرى أى أسلوب علمى هذا، الذى يزعم لنفسه المنطقية والعقلية التى يعتز بها؛ لأنها منة الله للإنسان، لحل بها التاريخ (وخرج بحقيقة واضحة أمام المحلل الهاوى الذى استخدم أعظم نعم الله عليه، وهى نعمة العقل والمنطق) ص ٢٧ .

وأى حقائق مادية فى هذه الشطحات الخيالية، التى رأى أنه لابد منها فى تحليل وتعليل ما يصيب الدولة من شذائد وأهوال، بعيدا عن التعليل بمشيئة الله ص ٢٢ فليس من المقبول عنده تعليل هزيمة سنة ٦٧ (بأن الله قد تخلى عنا حين تخليتنا عنه ص ١٦٩) .

وليس من المقبول عنده أن ما يصيب الأمم من كوارث ابتلاء واختبار، إنما ذلك جائز عنده في الأفراد ص ٢١-٢٢ .

ألا فلندلنا على الحقائق المادية، والعلمية، والمنطقية في هذه الشطحات الخيالية، والتداعيات الذهنية!

إنها نسج على منواله الذى تخيل فيه تاريخ الإسلام وجها واحداً (يستحل فيه الخلفاء القتل في غير حق، والظلم بلا راع، ويدخلون على الموائسة أبواباً لوسمع بها الصدر الأول لعجز عن أن يدخلها في باب من أبواب الجاهلية) ص ١٨ .

وعلى منوال هذا الخيال ماتخيله من كثرة الدماء المراقبة في فتنة خلق القرآن، التى لم يرق فيها دم واحد، وترك المأمون الناس فيها أحرار، ولم يؤذ فيها الإمام أحمد إلا بعد موت المأمون سنة ٢١٨ . والحركة في جملتها وتفصيلها كانت حماية لدولة الإسلام ودستوره من فتنة يهودية نصرانية أرادت أن تأخذ من القرآن حجة على ألوهية

المسيح ! إذا أخبر عنه بأنه كلمة الله : فإن كانت كلمات الله قديمة فالمسيح قديم إله ، وإن كانت كلمات الله حادثة فالقرآن حادث مخلوق . فأرادت حاشية المأمون أن تدفع تلك الشبهة باجتهاد عقلى ، وأراد أحمد الالتزام بعدم وصف القرآن بما لم يوصف به (تاريخ المذاهب الفقهية للشيخ أبو زهرة) .

وقامت فى ذلك مناظرات ، إن انتهى بعضها إلى إيذاء جسدى ، فقد كانت فى إبانها متعة فكرية ، ودليلا واقعا على صدر الإسلام ، وفكر دولته الرحيب . ووزرا الضيق الإسلام منه براء .

وتنقل لنا المصادر التاريخية المناقشات الدائرة بين الامام أحمد وبين اسحق بن إبراهيم القاضى ، يتدخل فيها ابن أبى دؤاد أحيانا تدخلا سافرا ، وفى كل مراحلها تدخلا خفيا ، يظهره ماييديه مناظرو الإمام أحمد من آراء وحجج . من هذه المناظرات :

القاضى اسحق : أليس الله قال : (الله خالق كل شئ)

الإمام أحمد: وقال الله: (تدمر كل شيء) فدمرت إلا ما أَرَادَ الله.

القاضي عبد الرحمن بن اسحق: أتقول إن القرآن مخلوق.

ابن حنبل: القرآن كلام الله، لا أزيد على هذا.

القاضي: ماتقول في كلام الله؟

ابن حنبل: ماتقول في علم الله؟

القاضي: أكان الله ولا قرآن؟

الإمام أحمد: أكان الله ولا علم؟ (١).

السؤال الآن: لماذا ترك صاحب السقوط هذا الجانب
الفكري ودلالته الحضارية، وسقط على التجاوزات
السياسية؟

لماذا يترك الحقائق الواقعة، ويأخذ بتداعى المعانى
الخيالى؟

فقى أى ميزان من موازين العقل والحق والتاريخ هذه

١ — معجم أعلام الفكر الإنسانى: ترجمة أحمد بن أبى دؤاد

الشطحات ١٩

إنه الرفض المسبق لحكم الإسلام. والتأثر القديم بموقف مستورد من الدين، طلبت له التعلات، ولو كانت خيالات. أما الحقيقة العلمية، التي يعرفها الكاتب - ويتجاهلها - فهي:

أن الحكم الشرعى شىء، واجتهاد المجتهدين شىء آخر. ولم يقل أحد - لافى القديم، ولا فى الحديث - إن اجتهاد المجتهد هو حكم الله، الذى من خرج عليه خرج على الحكم الإلهى. فيكفر أو يفسق. ومحنة خلق القرآن التى استشهد بها الكاتب، وجعلها أوضح مثال على فساد دولة الإسلام، وشاهد صدق - عنده - يرد قول المتشدقين بازدهار الحضارة العباسية - هذه المحنة، لم يُرم فيها أحد بفسق أو كفر، ولم يدع فيها أحد من الخلفاء أو حاشيتهم أن كلامهم فيها حكم إلهى تلقوه من الله. وهامى ذى مصادر هذه المحنة تشهد بذلك.

كما تشهد بأن مصدر المحنة أولاً لم تكن الدولة، بل فريق من المجتهدين العقلين الذين تصدوا للدفاع عن

الإسلام ضد الهجمات الفكرية التي حققت عليه وعلى دولته على نحو ما نشاهد نحن في هذه الأيام . ثم استغلت هذه الطائفة قربها من الحاكم، وزينت له مازينت، على نحو ما يقع في كل عصر وأوان .

وهذا الاختلاف في الاجتهاد تقرير عملي من مناهج الإسلام في إقرار حرية العقل، وهو في المناهج الفقهية توسعة ورحمة - استقرت في أمة الإسلام بجانبها العقلي والفقهى ، منذ فجر الإسلام .

فهذه الحسنة الإسلامية، في إفساح المجال للعقل البشرى، في مجالات البحوث الفكرية النظرية، ومجالات التشريعات الفقهية، ودلالاتها الحضارية، وشهادتها بسبق إسلامى عالمى - أهذه الحسنات تقلب فتجعل من سيئات المسلمين؟ وينى عليها تداعيات خيالية للوصول إلى رفض حكم الاسلام!!؟

هذه المجالات العقلية والتشريعية، التي اضطرع فيها الفكر الإسلامى حراً طليقاً في جميع مجالات الحياة، والتي يعترف بها الكاتب - ضمناً - عندما تخيل خلافاً

أئمة المساجد . هذا الاصطراع الذى كان من ثماره هذه
الذخائر من فقه السياسة والمال والمعاملات والأسرة ،
والحرب والسلام ... كل ذلك يقرب عند كاتب السقوط
ليكون مدعاة سخرية واستهزاء .

كيف يوفق لنا صاحب السقوط بين تقديسه للقرآن
وقوله إنه صالح لكل زمان وبين جعل هذا نفسه مكمناً
الخطر لأن العلماء هم الذين يتولون الشرح والتفسير
ص ١٩ .

القرآن يتسع بنصوصه لكل عصر (هذا كلامه) .
وتفسيره فى كل عصر يحدث فيه الاختلاف (هذا
مراد كلامه) .

والاختلاف خطر يفضى إلى الاضطهاد باسم الدين
(هذا كلامه) .

وإلى التفسير والتكفير والقتل وإراقة الدماء ... (هذا
كلامه) .

ما النتيجة المنطقية لهذه المقدمات ؟
أراها فى غاية البدهة . إنها ترك القرآن !!

وبذلك عادت المعجزة منقصة يكمن فيها الخطر،
وعادت الحسنة سيئة، وقلت على وجهها.

كيف يتفق ذلك مع دعوى الإيمان؟

كيف يمكن قبول الإسلام عقيدة، ورفضه حكما
وقيادة ص ١٨-١٩؟

كيف يمكن قبول الإسلام مصحفا، ورفضه سيفا
وحكما ص ١٨-١٩، وعلى غلاف الكتاب: (نعم
للمصحف والدين. لا للسيف والحكم).

كيف يخدم الإسلام فصله عن السياسة والحكم،
وتحويله إلى عظات واحتفالات ص ٢٣، ٢٤٣؟

كيف يفهم أن القرآن يؤيد الشيء ونقيضه، فيتخذه
كل من المختلفين حجة لهم؟!

كيف يتفق مع الإيمان أن تكون شهادة لا إله إلا الله
محمد رسول الله مسبوقة بشعار المواطنة؟!

وكيف يتفق مع هذه الشهادة رفض مافي القرآن من

آيات الحكم والتشريع، والخوف على المعازف، وأنواع الرقص، وشارع الهرم - أن تزول؟!!

إن هذا الشطر بين الدين، وسياسة الدين هو ماأراده للمسلمين أعداؤهم.

أنا لأتهم، ولكن أدعو إلى مراجعة النفس بهذه المقابلات التى نقلتها من غير تحليل ولا استنباط!!

ثم يبقى من جانب المقابلة شئ مهم، بل أشياء: . ينتهى د. فوده من عرض عصر الراشدين إلى استخلاص ست نتائج، هى:

١ - أن المجتمع المثالى أو اليوتوبيا لم يتحقق على مدى التاريخ كله، ولا فى عصر الراشدين والخلافة كله.

٢ - هناك فرق بين الإسلام الدين والإسلام الدولة، والأول مقدس، والثانى تجدد فيه النقد الكثير.

٣ - الدعاة إلى الإسلام يقعون فى خطأ التجزئة، ويهملون فارق القياس.

٤ — ينكر على الدعاة أن يروا في الكوارث انتقاما إلهيا
جزاء مفارقة منهجه ، يرجع إلى إرادة الله ..

٥ — فصل الدين عن السياسة يخدمهما معا .

٦ — استقراء التاريخ الإسلامى يدل على أن أئمة الفقه
كانوا أكثر من عانى من الحكم السياسى المتسريل بالدين .
(المجتمع المثالى لم يتحقق على مدى التاريخ الإنسانى كله)
(وبالتالى على مدى تاريخ الخلافة الإسلامية كله)

مجازفة بالغة بالجزم بالحكم الكلى الذى يلزم
لاستنتاجه الاستقراء العلمى ، والكامل للتاريخ وهو أمر
جد عسير من جهة النظر ، وجدُّ مستحيل من جهة
الواقع .

مثلهما فى المجازفة قوله (قد حفل التاريخ الإسلامى
كله بالمزايدة فى الدين ص٥٧) .

إن القرآن - الذى يؤمن به صاحب السقوط ، والذى
هو عنده فى القلب - قد أثبت مدينة فاضلة بقوله
(﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس

لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا
ومتعناهم إلى حين ﴿ سورة يونس: ٩٨ .

وأخرى فى قوله ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية
جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا
له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ سورة سبأ: ١٥ .

وللتاريخ فى مملكة سبأ، وإنتاجها، واقتصادها،
وجناتها، وحكمها، وسياستها.. تفاصيل تفوق الحصر،
وتفوت الأمل .

ومن الممكن أن أذكر غير هاتين، ولكن أكتفى؛ لأن
القضية السالبة الكلية كقوله: (أمر لم يتحقق على مدى
التاريخ كله) تنقض، ويظهر خطأها بقضية واحدة
موجبة جزئية بلغة قضيتين: قوم يونس، ومملكة سبأ .

وقوله (حفل التاريخ الإسلامى كله بالمزايدة فى
الدين) قضية موجبة كلية ينقضها، ويطلها قضية سالبة
جزئية . وصاحب السقوط لا ينكر أنه لم تحدث مزايدة فى
الدين فى حكم الصديق، ولم تحدث مزايدة فى الدين فى

عهد عمر، فضلا عن عهد الرسول. وهو لا ينكر أيضا أنه لم تكن مزايدة في الدين في عهد عمر بن عبد العزيز. والذي كان عهده دليلا عمليا على قدرة الإنسان على تغيير مجرى التاريخ، وإصلاح اعوجاجه. عبرة للمتشائمين، والمتشككين والمشككين!.

ومثل ذلك قوله (الدولة الإسلامية التي استمرت ثلاثة عشر قرنا لم تعرف حديث المعارضة داخل المسجد إلا فيما لم يزد عن واقعيتين يتغنى بهما الركبان) ص ٤١.

ومبدئيا: ينقض قوله هذا قوله في الصفحة نفسها (بل قل إن التأييد في أغلب الأحوال لم يكن يأتي إلا بالسيف) فإذا كانت المعارضة موجودة على الأغلب؛ والسيف يقهرها، فالذنب للسيف، والفضل للمبدأ أن يكون غالبا على التاريخ مع وجود السيف.

وتاليا: روى مسلم، والبخاري أن مروان بن الحكم أراد أن يخطب خطبة العيد قبل صلاته، فأخذ أبو سعيد الخدري يجره نحو الصلاة، ثم قال له: الابتداء بالصلاة، غيرتم والله. فقال له الأمير: قد ذهب ماتعلم، فقال:

ما أعلم خير مما لأعلم . فقال الأمير الأموى : إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبلها .

فها هنا معارضة فى المسجد موثقة فى أصح مصادر التاريخ الإسلامى : البخارى ومسلم . ولكن عذر صاحب السقوط قائم حين لا يعلم ما فى الصحيحين !

ثم إن قول الأمير : إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة : معناه وجود معارضة جماعية فى المسجد ، وليس مجرد معارضة فردية .

الكاتب يقصد بالمعارضتين اليتيمتين : معارضة المرأة فى رغبة عمر فى تحديد المهر ، ومحاوره أحد المسلمين له فى ثيابه الطويلة .

هل نسى الكاتب قول الرجل لعمر : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بالسيف ، ويحمد عمر الله لذلك ؟

وهل نسى معارضة بلال لعمر فى قسمة أرض العراق ، حتى إن عمر يرفع يديه ويقول : اللهم اكفنى بلالا وأصحابه . انتبه من فضلك : وأصحابه .

نبينا يا حافظ تاريخ الإنسانية كله بمثل تاريخ الإسلام :
عبدٌ غريب ، في أرض عصبية ، أصبح بالإسلام يعارض
عمر . وكفى به مثلاً . وبلال هذا هو الذى قال عنه
عمر : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا . وبلال هذا هو
الذى اعتقل خالداً بعمامته ، وكفى به مثلاً ، ليحاسبه
على ما كان عنده من مال المسلمين ، بعد أن تهيب حياءً
أبو عبيدة من مساءلته !!

ومعارضة عليّ لعمر عندما همّ عمر بتولى قيادة
الجيش فى فتح العراق .

ومعارضة عمر للصديق فى حرب الردة ، ومانعى
الزكاة .

ومعارضة السعديّين للرسول فى مصالحة عطفان أيام
حصار الأحزاب .

ومعارضة الأصحاب والتابعين لمعاوية فى أثناء خطبته
مرات .

ومعارضة المصرى لعمر بن العاص ، حتى نفقه
عمر ، ولما شكى المصرى إلى عمر ، حكم عمر على

عمرو بأن يرد عليه المصرى كلمته على أعين الناس .
ومعارضة الناس لعثمان مرات في المسجد .
أويكفى هذا يا صاحب السقوط لنقض قضيتك .
إنها الجراءة على التاريخ !!

أما حديث التجزئة ، ومفارقة القياس ، فقد عرضت
له مرات ، مبينا أنه قد حصر نظره ، عامداً على فترة
تاريخية ، بل على بعض وجوها . تاركا المحصلة الكلية
للتاريخ الإسلامى التى وجهت العالم كله غير وجهته ،
وصححت مساره بشهادة أصحاب القلوب .

ثم هو قد قاس جميع عصور التاريخ الإسلامى كلها
على تلك الوقائع التى انتقامها ، فأى مفارقة للقياس أبعد
من ذلك ؟!

بل الأبعد من ذلك فى المفارقة أنه قاس الإسلام نفسه
تاريخيا زذلة على بعض التصرفات السياسية . ليخرج
بحكم دائم بضرورة إبعاد الإسلام عن الدولة ، لحتمية
الرجوع إلى هذه التصرفات لوعاد الإسلام الدولة . مخالفا

بذلك النظرية الماركسية في الجدلة التاريخية المادية . فهل
يعذر في هذه كعذره في الجهل بما ذكر الصحيحان ؟ !

ولكن ماعلينا من كل هذه المقابلات والتناقضات ،
على أهميتها ، فهي أمور تتعلق بمنهج التفكير ، ولنأخذ مثلاً
من استنتاجاته ، الذى يتعلق بالموضوع لا بالمنهج .

يقول : إن من يصورون للشباب الغرض أن قيام حكم
دينى سوف يحول المجتمع كله جنة فى الأرض (يوطوبيا)
يسودها الحب والطمأنينة ، ويشعر فيها المواطن بالأمن ؛
ويستمتع فيها الحاكم بالأمان ، ويتخلص فيها الأفراد من
سوء القصد ، وحقد النفوس ، ونوازع الشر - إنما
يصورون حلماً لا علاقة له بالواقع ، ويصورون وهماً
لأساس له من واقع التاريخ ، ولا سند له من طبائع البشر .
استحلفك بالله الذى تقول إنك تؤمن بدينه ، وتحفظ
كتابه فى القلب ، وتأخذ بدينه (كأحد أسس تكوين
الضمير فى المجتمع - وتركه كأساس لبناء الدولة) من
من الدعاة صور المجتمع جنة إذا قام فيها حكم الدين ،
ونفذ فيه سياسته ؟

قل ولا تعرض عن ذكر الأسماء (حتى لا يتصور أحد أنك تبني موقفك الفكري على عداً شخصي له ص ٥٧).

قل مهما (كان حكم المفارقة، وحجمها بين مناصب هؤلاء المصورين وبين الحلم الذي صوره).

قل فإنك قد صرّحت غير مرة باسم الشيخ صلاح أبو إسماعيل، واعترفت له بأنه عندما وصفك بأنك كالملح إذا وضع على النار. وشرحتها بأن معناها أنك تنفجر، وأنه أصاب في وصفك كبد الحقيقة ص ٩٩. وأغلب الظن أنك كتبت كتابك وأنت في زئاط هذا الانفجار الإسماعيلي فعدوت الحق، وحرّفت الكلم من بعد مواضعه.

وأنت أيضاً صرحت باسم إبراهيم مصبح، والدكتور الراجحي رغم ما زعمت من تعفك عن ذكر الأسماء ليكون حكمك موضوعياً لا شخصياً.

إن الفكر السليم لا يتناقض، وإنما يتناقض الفكر المنفجر.

قل الأسماء، ولا نخش لائمة، لكن على أن تكون
أسماء حقيقة، ليست إيهاما كما فعلت في نقلك عن كتاب
الدكتور زكريا البرى.

قل لتزيد معلوماتنا، أو نصححها.

فإننا نعلم أن الذين صوروا هذا الحلم (اليوطوبى) هم
أفلاطون في جمهوريته. والمعلم الثانى فى مدينته، وسير
(توماس مور) فى يوطوبياه!

ومع ذلك فقد فات صاحب السقوط أن مؤلفى هذه
(اليوطايبا) ماعدا الفارابى كانوا ذوى نزوع استبدادى،
يؤمن بالإذعان الكامل للسلطة، ولم يدركوا تغير
العلاقات البشرية، كعملية مطردة، فضلا عن التطور.
على الرغم من أنهم، ومعهم كارل ماركس، سطوروا على
الورق فكرة تلاشى الدولة وزوالها، كممثل أعلى نهائى.

وهذه المدينة على مافيا، مما وصف صاحب السقوط
كانت عقيدة إنسان (العصر الفكتورى)، والذى تمت
رئاسة وزراء الإنجليز اليوم العود إليه. (وخلاصة هذه

العقيدة، لإنسان العصر الفكتورى: الإيمان بمبدأ التقدم، الذى يقضى بأن الناس جميعا، فى نهاية الأمر، إخوة أحرار متساوون، ولا حاجة إلى الشرطة، ولا الضرائب. والعمل طوعى. ممتع للنفس، ولن يكون هناك فقراء، وسوف ينتهى العنف بكل أشكاله.

وعلى الرغم من أن هذا المجتمع المثالى بعيد جدا من حيث الزمان، إلا أنه يقينى (سوف يتحقق من خلال التربية والتعليم، وتوسيع نطاق الديمقراطية تدريجيا... (١).

هل فى الدعوة إلى دولة الإسلام من قال ذلك أو قريبا منه، أو حلم به؟

أم أنه نقل التهم التى قالها غيرهم وإصاقها بهم؟
تخفف القول بالحكم الإلهى من عصور أوروبا المظلمة، وما ترتب عليه من الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة - نقل

١ - كرين بريتون: تشكيل العقل الحديث: ص ٥١، ٢٥١ من سلسلة عالم المعرفة

ذلك إلى الإسلام والصّاقه به، وبأهله؟!

إذا كانت (سياسة الدين الإسلامى) تقضى بقانون
أساسى يحمى الدولة، وقانون تشريعى يحمى المجتمع -
فكيف يتأتى القول بجنة على الأرض بلا آثام؟

وهب الدعاة قالوه، فلماذا لم نردّ قولهم إلى الكتاب
والسنة؟ وهما بينا أن المجتمع تقع فيه آثام، ووضعها لها
علاجاً؟ أم أن الحديث (سياسة فى سياسة) لا تجد فيه آية
ولا حديثاً؟ (قوله) (١) والأهم الآن:

هل عندما فصلنا الدين عن الدولة منذ أواخر القرن
التاسع عشر، الذى شهد صراعاً حول هذه القضية،
فيما ذكر كاتب السقوط، وحسم الصراع لصالح الدولة
المدنية، واختيار النظام الأوربى على يدى محمد على إلى
يومنا هذا - هل أصبحت حياتنا جنة بلا آثام، تسوّغ
لنارّد الحكم الإسلامى، والاستمساك بالنظام الأوربى،

١ - ومع هذا ستشهد بالحديث (إن الدين «وعر» وهكذا...) ص ٥٨ .
وتفيه الاستشهاد ص ٣٣

أم أصبحت آثاماً بلا جنة ١٩

إن الإسلام لم يأت للقضاء على الطباع، وتبديلها كلية، بل جاء لإعلاء الفرائض، وتوجيهها، وتكميلها؛ ليصل بالإنسان إلى أقصى ما يمكنه من كمال حجه عنه نظم فاسدة، وديانات حرّفت. فأقام له الدين، وشرع له سبيل الترقى. يتقاسمها أفرادها، وجماعاتها، فتوجد في مجموعهم - وإن لم توجد في جميعهم فضائل الإسلام. ولولا الدين، وسياسته لما وجدت هذه الفضائل سندها الشرعى، ولا يواعثها الشعورية.

إنه مما ينبغي أن يعلم أن الله تعالى بعث الرسل، وأنزل الكتب ليكون الناس على غاية ما يمكن من الصلاح، لا لتبديل نوعهم، فإن هذا ممتنع في الطبيعة الإنسانية، كما هو ممتنع في طبيعة (سياسة الإسلام) التى وضعت حدوداً وعقوبات. فقيم كانت، إذن، تشريعاتها لوزعت. تغيير الإنسان. ولهذا قال الله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ سورة البقرة: ٣٠.

ولذلك قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ..﴾ سورة
التغابن: ١٩ .

فليست القضية، إذن، قضية جنة على الأرض،
تحققها دولة الإسلام، لكنها قضية منع الفساد إلى أقصى
حد تستطيعه طبيعة الإنسان، وتحقيق الخير بأقصى طاقة
للإنسان . مع فتح باب الترقى للأفراد يتسابقون في الخير،
بحيث يجوز، لمن تبلغ به همته، ويبعد به مناط العزم. أن
يصل إلى درجة العصمة. فلا هو مفضل بالميلاد، ولا
هو وارث خطيئة بالميلاد!

ولا ريب أن انفصال الانسان عن الدين عامة، وعن
الاسلام خاصة قد هبط به عن تلك الغاية، وحرمه هذا
السبق الحميد . ولا ريب أن انفصال الاسلام، خاصة،
عن دولته قد قضى على أمته، ووصل بها إلى حالها الآن،
مما لايسر صديقا، أو مخلصا لدينه وأمته .

إن صورة المجتمع التي تحققها سياسة الاسلام ليست
الصورة الخيالية التي يرسمها خيال فيلسوف مثالي النزعة،

ميتافيزيقى التفكير . ولاهى الصورة التى يرسمها أحد من
الناس . إنما هى الصورة التى يوضحها القرآن ، وتفصلها
السنة :

صورة المجتمع الإسلامى

فى سياسة الدولة :

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا
حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما
يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾ يأبىها الذين آمنوا
أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن
تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول .. ﴿ سورة
النساء : ٥٨-٥٩ ﴾ ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو
كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف
عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت
فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ (سورة آل
عمران : ١٥٩) .

(إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها) حديث شرف فى الولاية ومنصب الحكم.

فى العلاقات الخارجية :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾ سورة

المائدة : ١

﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾... ﴿وَإِنْ جَنَحُوا
لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا..﴾ سورة الأنفال : ٦٠ - ٦١ ﴿فَإِنْ
اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ
لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ النساء : ٩٠

فى علاقة المخالف فى العقيدة :

﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ
بِالْمُودَةِ﴾... ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا

إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم .. ﴿ سورة الممتحنة : ١ ، ٨ - ٩ .

في القضاء :

﴿ ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا - هو أقرب للتقوى .. ﴾ سورة المائدة : ٨ .

في المال :

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ سورة البقرة : ١٨٨ .

﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ﴾ سورة النساء : ٥ .

وآيات ثلاث في تفصيل الموارث هي : (١١ - ١٢ ، ١٧٦ من سورة النساء) .

وفي الدِّين :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ
مَسْمُومٍ فَارْتَبِعُوا...﴾ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا
كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ
الَّذِي أَوْثَمَنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾
سورة البقرة: ٢٨٢-٢٨٣ .

في المرأة والأسرة :

﴿لَا أَضْجِعْ عَمَلٍ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى
بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ سورة آل عمران: ١٩٥
﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً...﴾ ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ
تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ...﴾ سورة
النساء: ٣، ١٢٩ ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ...﴾ سورة البقرة: ٢٢٨ .

في المجتمع وآدابه وسلوكه :

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ

إحساناً، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا
تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض
لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب إرحمهما كما ربياني
صغيراً ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين
فإنه كان للأوابين غفوراً وآت ذا القربى حقه
والمسكين وابن السبيل، ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين
كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً
وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل
لهم قولاً ميسوراً ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا
تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً إن ربك
يسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً
بصيراً ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم
وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً ولا تقربوا الزنى إنه
كان فاحشة وساء سبيلاً ولا تقتلوا النفس التي حرم
الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً
فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ولا تقربوا مال
اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا

بالعهد إن العهد كان مسئولاً* وأفوا الكيل إذا كلم
وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً*
ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد
كل أولئك كان عنه مسئولاً* ولا تمش في الأرض مرحاً
إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا* كل ذلك
كان سيئه عند ربك مكروهاً* ذلك مما أوحى إليك
ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في
جهنم ملوماً مدحوراً ﴿ سورة الإسراء: ٢٣-٣٩ .

وأساس كل هذه التشريعات والآداب في المجتمع
المسلم، وذرورة سنامها هو توحيد الله . لاحظ آيات
سورة الإسراء افتتحت به، واختتمت: ﴿وقضى ربك
ألا تعبدوا إلا إياه... ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾:

﴿قل هو الله أحد الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم
يكن له كفواً أحد﴾ سورة الإخلاص .

هذا المنهج في وضوح جماله، وجمال وضوحه هو
الذي حققته دولة الإسلام، واتصف به المسلمون في

مجموعهم ، لافى جميعهم ، إن فات بعضهم بعضه أدرك غيره ، وإن قَصُرَ أحدهم دون بعضه ، بلغ فى الآخر شأوه ، وتحقق جميعه فى مجموعهم ، ولم يكن حلما عابرا للحلم ، ولا خيالا شاردا لشاعر ، ولا ضربا بالغيب من كاهن . شهدت به الدنيا ، وقام به فى فم الزمان ناعق ، وأذن به على قمة المجد مؤذن . لا يرغب عنه إلا من سفه نفسه .

وهو هو الذى يزحف اليوم فى العالم . برغم ما عليه المتسبون إليه زوراً وبهتاناً ، والمدعون الاعتزاز به رثاء الناس - من تخلف لا يغرى بالقبول ، بل يكون حجة لمن رفضه . عمن لا يعلم حقائقه . يزحف الإسلام بحقائقه الذاتية ، وحيويته الخاصة . يؤمن به من أهل الحضارة المسيطرة على العالم اليوم ، ولا يحملون عليه آثام تاريخ أهله ، ولا مآسى حاضريهم ولا يزعمون لأنفسهم وحضارتهم ما يزعمه لها صاحب السقوط ، إذ يرى الحوار الحر ، غير العنيف لا يتحقق إلا فيها ، بينما لا يتحقق إلا بالسيف فى دولة الإسلام !! ص ٢٧ والرزق الواسع

أيضا لا يكون إلا فيها ص ١١٣٢ وحفظ الأرواح لا يكون
إلا فيها ص ٤٠ .

هذه هي سياسة دين الإسلام، تحققت على مدى
أربعة عشر قرنا من الزمان على تفاوت من قرب الحكام
وبعدهم عن الإسلام وعلى الذين يزعمون أن سياسة
الدين تتحقق مع غيبة السلطان أن يعلسوا أنهم هم
أصحاب (اليوطويا)، والقائلون بأحلام الخيال وخیال
الأحلام.

إن فصل الإسلام عن الدولة، قضاء على الدولة
والإسلام معا، شهد بذلك التاريخ (ولا ينيثك مثل
تاريخ) وماذل المسلمون، وما ضاع عزهم إلا منذ ضاع
من يدهم سلطان الدين، ودين السلطان.

عندما هاجمت جيوش (هتلر) روسيا، لم يجد قادتهم
غناء في (دين الماركسية) فنفعخوا في روعهم (دين
الوطنية). ولما كان (نابليون) في (امبابه) وقبل معركتها
نفع في روح جنوده (دين القومية) وقال لهم: إن أربعين

قرنا من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام !
ولا باعث كالإسلام، ولا إسلام بغير سلطان !
والتاريخ والحاضر شاهدان عدلان !

فما بالنا نهجوه ونهجره، ونقطعه إربا إربا، بينما ندعو
إلى (دين الغرب) وحضارته؟ ولم يجد أصحاب هذه
(الحضارة الأصل) ما يجده الدعاة إليها منا، أصحاب
(الحضارة التقليد). وأصحاب الأصل شهدوا للإسلام،
وما زالوا يشهدون :

نقل د. يوسف إدريس في أهرام ١٩٨٥/٦/١٠
عن الأديب والفنان السويسري (دور يناث) والذي
سيزور القاهرة في نوفمبر القادم قوله : (أنا حقيقة مواطن
في دولة أوربية ولكنني دائم التبع لما يحدث في عالمكم . أنا
أعرف الكثير عن أمريكا اللاتينية، وأفريقيا والشرق
الأوسط حين كنت في أمريكا صدمت تماما بما رأيته في
مستوطنات اليهود الحمر، ولدرجات الفقر غير الانساني
التي يعيشها الهندي الأمريكي هناك . وقد جعلتني تلك

التجربة أغير كثيرا من أفكارى حول التقدم، ومفهوم الحضارة، ودور أوروبا وأمريكا. أنا لم أقرأ كثيرا في تاريخ الشعوب الإسلامية والإسلام، ولكنى شديد الإعجاب بالحضارة الإسلامية في العصور الوسيطة، وما استحدثه العرب والمسلمون من اكتشافات في علوم كالرياضة والفلسفة إلى درجة أن كثيرين من الأكاديميين الأوروبيين كانوا يعرفون العربية، ويدرسونها ويتعلمون منها منطق أرسطو وفيثاغورس وأفلاطون دون أن يلموا بالإغريقية نفسها.. وكثير من التراث الإغريقى وصل إلى أوروبا عن طريق ترجمته من اللغة العربية وليس الإغريقية.. إن تأثير الفكر الإسلامى العربى كان قويا على أوروبا...هـ.

وأعلن د. يوسف سعاده لهذه الشهادة من الأديب والفنان العالمى. وهو قد سبق له إعلان هذا الاعتقاد في أثر الحضارة العربية الإسلامية في أوروبا، وأعلنه قبلا في أهرام ٨٥/٥/٦ وسبق اقتباس عبارته.

ولكنه في أهرام الاثنين ١٧/٦/١٩٨٥، وأهرام الاثنين ٢٤/٦/١٩٨٥ م تساءل منكرا على دعاة تطبيق

الشرعية : أية شريعة هذه التى ينادى بها المنادون .. ؟ هل
هى شريعة الحمينى .. ؟ هل يعنى تطبيق الشريعة أن نتبع
نظام البيعة .. فيجتمع ستة وأربعون مليوناً من المصريين ،
أو مائة مليون وعشرون من العرب ليختاروا إماماً يحكم
حكماً مطلقاً ، حتى الشورى لا تكون بالنسبة إليه أمراً
ملزماً .. أهذا هو الوقت المناسب لنجعل من تطبيق
الشريعة قضيتنا ؟ هل قطع يد السارق ، وجلد الزاني
سيوقف سيل الدماء فى حرب إيران والعراق ؟ أليس
أعداء الإسلام قد أفلحوا فى أن يشغلونا بقضية
الشريعة .. ؟ ... إن الإسلام الذى سيطبق هو إسلام
الميكروفونات إسلام الإرهاب .. وما نفع بلالين الأقباط
إذا هم أبصروا على تطبيق الشريعة المسيحية ... ؟ اهـ .

ألا يا قوم للعجب العجيب

وللغفلات تعرض للأريب !!

لست أدري أمن توارد الخواطر اتفاق هذه الأسئلة
وما أثاره صاحب السقوط ؟ أم ماذا ؟ وهل كان يصعب
على مثيرها إجاباتها لو آمنوا بتطبيق الشريعة ؟

كيف نسعد بالحديث عن حضارة المسلمين
السالفين، ونعلن إيماننا بها، ثم نعارض دولتها؟ وما تلك
الحضارة إلا ثمرة من ثمارها، ما كان لها أن تكون جنى
دانيا إلا في دولتها؟

هل نلغى الشريعة للاجتهادات الفقهية في تفسيرها؟
مرة أخرى أعيد كلمة المأمون للمرتد الخراساني: ينبغي
لك ألا ترجع إلا إلى لغة لاختلاف في تأويل ألفاظها..
وينبغي علينا أن نلغى القوانين والدساتير لاختلاف
القضاة، والمحاكم بدرجاتها في تفسيرها!

إن إقامة الحدود لن توقف دماء المسلمين المقتولين،
ولكنها ستوقف هذه السرقات، والاختلاسات:.. كما
ستقضى على أسبابها الاجتماعية التي تدفع إلى ارتكابها..
أما دماء المسلمين المراقبة فلها تشريع آخر شرعه الإسلام،
لو التزمه المسلمون لحفظت دماؤهم.

والشريعة ليست هي الحدود، هذه غفلة، أو تغافل..
إنما هي الصورة التي قدمت من القرآن الكريم—على

إنجاز - التي كون بها الإسلام المجتمع الإسلامي .

وكما تكون هناك محكمة دستورية تقطع الخلاف في تفسير القانون - تكون هناك، كذلك محكمة، أو هيئة من فقهاء الشريعة، والقانون والاجتماع .. لحسم الخلاف . وقدما عرف الفقه الاسلامي هذه المشكلة، ولهم فيها عبارتهم المعروفة، وهي: حكم الحاكم يقطع الخلاف . وإلى عهد ليس بالبعيد كان قانون الأحوال الشخصية يعتمد على مذهب أبى حنيفة، ولم تعرف في ذلك مشكلة، ولم يدع أحد إلى وقف قوانينها لاختلاف أئمة الفقه فيها .

ياسبحان الله . الإسلام الذي سيطبق هو إسلام الميكروفونات، وإسلام الإرهاب ! من قال ذلك؟

إن هذا الذي ينكره، وننكر معه بعضه إنما هو التنفيس عن الرغبة المكبوتة في عدم تطبيق الإسلام والتي يجد كتبها سندا من القوة على عهود متوالية .

إن مشروعات التطبيق، وتنفيذها، لن تكون إلا

بأيدي ذوى خبرة ودراية وتخصص . هذا هو الإسلام
(إن خير من استأجرت القوي الأمين) (اجعلنى على
خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) .

كما أن مشروعات القوانين الاسلامية يقوم بها من هم
أحق بها وأهلوها ، كذلك تنفيذها . يكون ، فى كل موقع
لأهله . لم يقل أحد إنه للأصوات الهاتفة ، والعقائر
المرفوعة . ولا لعالم الدين مجرد أنه عالم دين . فى كل مجال
من اجتماع له العلم بطبيعته والقوة على تنفيذه فهو له ،
لا يقضى عالم الدين لأنه عالم دين ، ولا يقدم لعمل مجرد
أنه عالم دين . كلا ليس هذا ولا ذاك فى الإسلام .
والزعم بأن تطبيق الإسلام ينتهى إلى قيام حكومة دينية
يتولاها (رجال الدين) الذى يحتكرون تفسير الكتاب
والسنة - زعم غريب ، ليس من الله ودينه فى شيء ، إنما
هو على حد المثل : (رمتنى بدائها وانسلت) وأشد منه
غربة الزعم بأن الإسلام إذا طبق لن يكون إلا إسلام
الهاتفين !

على أن كثيرا من هؤلاء ليسوا أقل شأنا من كثير (من

أهل الثقة) الذين تولوا الكثير من المناصب الخطيرة،
والدكتور يوسف بذلك، وبآثاره جد خبير.

إنه لمن أعجب العجب أن نختلف على تطبيق الإسلام
ونحن مسلمون!!

لو بغير الماء حلقى شرق
كنت كالفصان بالماء اعتصارى

لماذا الآن ؟

سؤال يجلب الأسى، ويجرح المشاعر.
وهل سؤال مردود بمثله: ولماذا ليس الآن ؟
لماذا الآن ؟ لأننا وأنتم مسلمون. ولأنه واجب فوري
لاتراخى فيه. ولأنه واجب أمس قبل الآن، فلا تزيد
إثم التراخى.

لماذا الآن ؟ لأنه - كما قال د. يوسف في رده على
الأستاذ خالد محمد خالد: وهذه الطريقة في (الحكم

الإسلامي) هي الطريقة الجديدة حقاً بإسلام له أربعة عشر قرناً، يعلم الناس علم التفكير وقيمة العقل، والأخذ بأسباب التحضر. ولو كان الحكم الإسلامي سيطبق بالطريقة التي أوجزتها لكان شيئاً أعظم بكثير من كل المذاهب الدنيوية المعاصرة. لكان الجنة على الأرض... له.

حسناً، تعالوا نتعاون على هذا الذي أعجبكم. بل كونوا أنتم القادة، ونحن الأتباع. كونوا أنتم المفسرين للشرعة عن علم، والمنفذين لها عن قوة وأمانة، ونحن المحكومين بها على أيديكم. ولو أن المراد من سؤال: لماذا الآن؟ التآني في التقنين والتروى في التنفيذ، حماية للحق، ورغبة في العصمة، وبعداً عن فورة الحماس... ففي ظني أن أحداً لا يمانع في ذلك، ولا سيما أمور لا يؤمن فيها الفور الكامل مثل النظام الاقتصادي ولكن الخوف أن يكون سؤال لماذا الآن سؤال تسويق. وكاتب السقوط يقول مرة في معارضته تطبيق "الشرعة": (التطبيق الفوري) ص ٦٣، ص ٧٠، ص ٧٣، وأخرى يطلق

المعارضة من غير تقييد بالفورية ص-٢٣ . وههنا موضع
الخوف فلنفرغ من التقنين ، ولنرتب الأولويات ، ثم لنبدأ
 بالتنفيذ .. وعند ذلك لاعذر لحماس ، ولا متحمس !
 إن الاحتجاج بالوسوسة الخارجية يقطعه قيامكم أنتم
 بحق الإسلام . فلماذا إلا تفعلون ذلك الآن ؟

هل تعوقه القضايا الخارجية ؟
ومتى شغلت أمة بقضاياها الخارجية عن قضاياها
الداخلية ؟

إن الداخل ظهير الخارج ، يقوى بقوته ، ويهن بوهنه .
ثم إن (الحكم الإسلامي) إذا نفذ سوف يحل أولى
قضايانا الخارجية : قضية فلسطين ومأساتها في ظل التفرق
العربي والاسلامي ، وتبعية دوله للشرق أو الغرب .
ثم هو كذلك يحل أولى قضايانا الداخلية : الديمقراطية
المطلوبة في بلاد العرب بين الوعد والتنفيذ
تعالوا نفذوا ونحن من ورائكم .

وإلا ، فتعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين .

أما التعلّة بالأقباط فعله مردودة بما قدمت، فأنسنته
المطبق للإسلام يرى حق القبط ديناً. أما قول د.
يوسف: ماذا نفعل بملايين الأقباط إذا هم أصرّوا على
تطبيق الإنجيل؟

فنقول: أهلاً وسهلاً! فليطبقوه والتوراة. وقد
أسلفت صورة موجزة من تشريع التوراة والإنجيل.
فليطبقوه على أنفسهم ﴿وَلِيَحْكَمْ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ فِيهِ﴾ سورة المائدة: ٤٧. ليحكموا، ثم لينظر د.
يوسف أذاك مستطاع؟ وليحكموا به كله بما فيه من
البشارات. مأسعدنا إذا طبق المسلمون القرآن،
والأقباط الإنجيل!

* * *

الدولة المدنية

يرى الدكتور يوسف ألا ننشغل بما وسوس لنا به أعداء الاسلام والمسلمين: بقضية تطبيق الشريعة عن قضايانا الخارجية!

ونرى أن القضية الخارجية الأولى التي أذكاها التمزق العربى هى فلسطين. نراها كذلك برؤية الواقع، ثم برؤية الأستاذ (الفقيه البصرى) الزعيم المغربى البارز وأحد المؤسسين التاريخيين لجيش التحرير المغربى والاتحاد الوطنى للقوات الشعبية - كما عرفت به صحيفة الأهرام فى عددها يوم الخميس ١٩٨٥/٦/٢٧ إثر مقاله المنشور بها، الذى يقول فيه: كثيرة هى القضايا التى يتشعب حولها المأزق العربى الراهن. غير أننى أعتقد

بضرورة التركيز على ثلاث منها . تشكل - برأى العقدة الرئيسية فى المأزق .. وهى القضية الفلسطينية فى ظل حال التبعية الذى تعيشه معظم الأنظمة العربية . وقضية الديمقراطية .. ثم قضية عودة مصر .

ونرى أن حل هذه القضية ، بما يذكىها . يكمل فى عوامل ، إن لمن يكن الاسلام أولها ، فهو روحها ، الذى يبعث فيها الحياة ، ويمنحها فاعليتها .

فى عدد الأهرام السابق نفسه يقول الزعيم الفلسطينى ، والكاتب المعروف : (أحمد صدقى الدجاني) : (ولانغفل عن التناقض الرئيسى القائم بين الإخوة العرب مجتمعين وبين عدوهم الذى يحتل أراضيهم .. وكل مادونه تناقضات ثانوية . ولكم تأثرت حين سمعت عددا من المسئولين وهم يذكرون بهذه الحقيقة فى اجتماع فلسطينى بينهم .. كان الحديث يدور مع زائر قادم من الوطن المحتل .. قال : .. إننى الآن أكثر ميلا لتوطين النفس على فكرة الصراع الطويل .. وسؤال هو : كيف نحدد العوامل التى تمكنتنا من الانتصار فى هذا

الصراع؟ قلت له: تداعى إلى خاطرى حديث شيخ حكيم.. تعود هذا الشيخ، الذى ناهز الثمانين كلما التقينا فى أكاديمية المملكة المغربية التى تجمعننا عضويتها أن يسألنى عن قضية فلسطين، وفى آخر لقاء، قبل شهرين، علق على إجابتي قائلا، وهو الذى شغل منصب الرئاسة الأولى فى بلده سنوات:- صراكم طويل المدى، وقضيتكم معقدة، ولكنها ستحل فى يوم من الأيام. لقد عاشت بلادى صراعا من هذا النوع، وجاء وقت توافرت فيه لها ثلاثة عوامل أوصلتنا إلى النصر: العامل الأول: رجال دين نجحوا فى شد الشعب إلى عقيدته. الثانى: رجال فكر سياسى تميزوا بالثقافة، وأقاموا صلات صحيحة: بالعالم الخارجى. والعامل الثالث: رجال عسكريون آووا إلى قمم الجبال، وتابعوا المقاومة بلا كلل ولا ملل ولا فتور، وكانوا قدوة لشباب معطاء التحق بهم، قال ابن الوطن المحتل: العوامل إذن هى: العقيدة أولا. والنضال العسكرى ثانيا. والنضال السياسى ثالثا. هـ

نجحت دولة المغرب في قضيتها بهذه العوامل . شهادة
مغرب خبير ، ولا ينبغي مثله خبير .

ويرى صاحب السقوط أن نعدل عن دولة الإسلام
إلى نظام الدولة العلمانية الأوربية ، التي اختارها شعب
مصر من أيام دولة محمد علي ، وأنه في ظل هذه الدولة
يتحقق في ظلها أننا (نتحاور ولا نتصارع بالسيف ،
ونقبل بهزيمة الرأي أمام الأغلبية عن رضا) ص ٢٧ ،
ص ٦٨ . ويتحقق الرزق الوافر من التكريم وحرية إعلان
الرأي . ولك أن تقارن (قصص التاريخ ، بل مآسيه إلى
واقع اليوم ، وأن تقارن ما يحصل عليه علماء الدين من
تكريم وإجلال ومنابر إعلام .. وبين ما حدث لأئمة
الفقه .. الذين لا يدعى أحد من المعاصرين أنه
يطاؤهم ..) ص ٣٢ .. وحفظت فيه الأرواح ولم يرفع
سيف (وكل هذا مرهون بإطار الدولة
المدنية ..) ص ٤٠ .

لست أدري من الحالم ؟

أحكم الإسلام ، والإسلام الدولة هو الذي يستحل

دم المخالف (بينما الأمر على العكس من ذلك تماما في ظل
مانعيشه من فصل بين الدين والسياسة ...)؟

كم وددت - والله - أن يكون الأمر كذلك . ولكن
ما الحيلة والحقيقة تصرخ بأندى صوت بغير ما يصور
الكاتب ؟!

(محمد على) - الذى رأى الكاتب أن عصره حسم
الصراع بين الاتجاه إلى الحكومة الإسلامية والحكومة
المدنية ، والذى كان اختياره بلسان الزعامة الشعبية التى
كان على رأسها عالم الدين المتصوف السيد : (عمر
مكرم) .

فماذا كان جزاؤه ؟

بعبارة شيخ مؤرخى العصر الحديث ، عالم الدين :
الجبرتي : «أخذ محمد على يدبر تفريق جميع الشيوخ ،
وخذلان السيد عمر .. وهو الذى قام بنصره .. وجمع
الخاصة والعامة حتى ملكه ، ويرى أنه إن شاء فعل نقيض
ذلك» ثم كان جزاؤه النفي . ولولا أن محمد على كان

بحسب حسابا كبيرا لمكانة السيد عمر مكرم لكان عقابه القتل أو السجن؛ لذلك اكتفى بنفيه، وعزله من نقابة الأشراف. وكذلك كان جزاء أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر في فجر النهضة القومية (عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي).

وما خبر مذبحه المماليك بالقلعة منكم ببعيد، والتي قتل منها بالقلعة، غدرا، أربعمائه وسبعون، لم ينج منهم إلا واحد. وعقب هذا الذعر نزلت جماعات من الجنود إلى المدينة، فاقتحموا بيوت المماليك، وأخذوا يفتكون بكل من يلقونه فيها، وينهبون ماتصل إليه أيدهم. ولم يكتفوا بقتل من يلقونه من المماليك، بل تجاوزوا بيوتهم إلى البيوت المجاورة. ثم نبه محمد علي على الجنود بقتل كل من يلقونه من بقايا المماليك.

هذه صورة من صور الحكم المدنى الذى ارتضاه كاتب السقوط، والذى يستمسك به، ويدعو إليه.

ويجب أن ننبه على أن هذه المأساة الانسانية - مهما قيل في تسويغها - لم يقتصر أثرها على المماليك، وخصوم

محمد على السياسيين ، بل امتد أثرها إلى نفوس الشعب عامة . حيث زرعت في القلوب الرعب ، واجتثت منها الأمن ، وقضت على الشجاعة ، وأثمرت الخوف والجبين .
ولسان حال كل مصرى يقول : (انج سعد فقد هلك سعيد) فلم تكن ، إذن ، كارثة محدودة بحدودها ، بل كانت كارثة قومية ، قضت على الصفات النبيلة ، التى هى من ضرورات قيام الأمم . ثم كانت كارثة سياسية ، إذ قضت على بذرة الديمقراطية ، والمراقبة الشعبية التى كانت تحتمى بالسيد عمر مكرم ، والتى كان يرعاها بشخصيته الفذة . وغرست مكانها فسيلة الاستبداد السياسى ، التى أرواها خلفاء محمد على . فلم يكن من الغريب أن يقول أعضاء (مجلس شورى النواب) للخديو إسماعيل : (نحن عبيد أفندينا) . ولا أن يُنفى ، فى عهد توفيق ، الشيخ جمال الدين الأفغانى ، موقظ الشرق ، وأن يذاع ، فى تسويغ نفيه ، بلاغ رسمى ملؤه الكذب والبهت والجرح . كما كان النفى والمحاكمة جزاء كل صوت معارض ، وتعطيل صحف المعارضة . واستعظم توفيق مطالب

الشعب التي تقدم بها عرايى . ولننظر فى كلماته،
ولنوازنها بما أورد كاتب السقوط مما نسبته إلى الخليفة
المنصور: قال الخديوى: كل هذه الطلبات لاحق لكم
فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى،
وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا (مذكرات عرايى ص ٢٣٦ .
انظر الثورة العربية . عبد الرحمن الرافعى).

والليل موصول الظلام . فهذا كبير فقهاء القانون:
عبد الرازق السنهورى . يقود طائفة من الرعاع إلى مقره
بدار القانون والعدالة، وميزان التعادل بين الشعب
والحكومة أحد رجالات الحكم المدنى للاعتداء عليه؛ لما
أبدى من رأى . وأخرج من منصبه، واجتمع فقهاء
القانون المدنى وأصدروا فتوى بشرعية عزل شيخهم .
وهذه مانسيتها منذ علمتها: (الميثاق المقدس)،
والذى كان (الإيمان) به شرطاً مكتوباً لصحة عضوية
الهيئة السياسية الوحيدة . والذى قال عنه أحد (الكبار):
نصوصه مقدسة! وقال عنه آخر (على الهواء): لا يأتية
الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقال عنه ثالث فى

حفل جامع بنادى المعلمين بالإسكندرية، فى قصيدة
(عصماء):

لو جَوَزَ التزِيل بعد محمد

لاستبدل الميثاق بالقرآن !

وأعوذ بالله من النار .

وإن ننس لانسى (الرأى الحر المعبر عنه بخمس
التسعات ٩٩٩ر٩٩٩) .

وسجون القلعة، والسجن الحرى، وكتاب مصطفى
أمين عن سنوات السجن الذى ذاقه . وعهود طويلة
طويلة (تشهد) بما زعم كاتب السقوط من «أن الحكم
المدنى، المفصول عن الدين يختلف فيه فى الرأى، ولا
يتعدى ذلك حد الحوار وأما الإرهاب فكان من الأيدى
المتوضئة» !

ولولا فضل الله ورحمته لما طلعت شمس، ولا ذر
شارق .

هذه شهادة التاريخ . وتلك شهادتك . فإلك من
شاهد عدل، ومؤرخ خلدونى، وزعيم مستقبلى !!

لم أرد أن أتتبع التفاصيل، وأستكشف سجلات الأضاليل، ولم أشأ أن أتجاوز إلى أوروبا، (مهند الحضارة الأمم): حضارة المدنية، ومنبت الدعاوى القومية، فأذكر (حروب السبعين). ولا قوله لويس الرابع عشر: (أنا الأمة) ولا سجن الباستيل، ولا موقف رجال ثورة فرنسا. عندما زحفت جيوش أوروبا على فرنسا، حتى سقطت في أيديهم (فراذن) مفتاح باريس في ١٧٩٢/٩/٢١ فاستولى الرعب والجزع على رجال الثورة، فأرسلوا عصابات مسلحة طافت بالسجون، وأعدمت من فيها من الأشراف، ورجال الدين، وبقي هؤلاء الجلادون يزاولون عملهم الفظيع وكلما تعبوا قدمت لهم المرطبات. حتى إذا استعادوا قوتهم عادوا إلى عملهم الذي كان يسميه الثوار تحرير فرنسا. وكان نساء باريس الشريرات يشاهدن ذلك بالتهليل، ويحملن الطعام إلى أولئك الجزائريين... وكانت الملكة لاتزال مع ولديها في سجن (التأميل) فصدر قرار لجنة الأمن العام في يوليو ١٧٩٣ بأن يفصل عنها ابنها، وحاولت الملكة

عبثاً أن تستبقيه، ولكن يد القوة انتزعتها منها غضبا وعهدت به إلى رجل اسكاف يدعى (نسيمون).. ومكث الولد طريحاً في حجرته ستة أشهر لم يخلع فيها قميصه.. ونقلت الملكة إلى سجن آخر، ولم يسمح لها بغير ثوبين باليين.. ثم سيقّت إلى الإعدام، وقد شد وثاقها، وجزّ شعرها.. وقد ظلت جثتها ملقاة في العراء أسبوعين لا تجد من يعنى باحتفار حفرة توارى فيها^(١).

ولا أذكر مآسى الحريين العالميتين، والثالثة المتوقعة، التى تهدد العالم كله بالفناء الماحق ولا الملايين التى حصدها البلشفية، ولا حرب الأسماء، التى تقوم بها (بلغاريا) اليوم لتجبر المسلمين فيها على تغيير أسمائهم الإسلامية.

يا لها من حرية، فى ظل حكومة مدنية...

لأريد أن أستفيض، حتى لا يطول حديث ليل

السرى بالعجائب!

١ — محمد الحسينى رخا: الثورة الفرنسية وعهد نابليون ط ١٩٣٨ -

مقرر معاهد الأزهر ص ٣٩ - ٤٦

لكن أذكر كاتب السقوط بإشارة، لعلها أبلغ من العبارة، تذكره في سؤال (ظاهرة سذاجة وباطنة حجة): ماهى «ثورة التصحيح»؟ وضد من؟ ولماذا؟

وماهى (انتفاضة الحرامية)؟

ومن هى (مارى انطوانيت مصر)؟

سؤال برىء، براءة الأطفال فى عينيه!!

ومن الذى قال: أنا كبير العائلة؟ وأنا توليت منصبى بإرادة الله؟ وما مقدار الشبه والمفارقة بينها وبين ما زعم عن المنصور (أنا الإسلام والإسلام أنا) ص ٢٨!! أحقا قال المنصور ذلك؟ أم هى قولة لويس الرابع عشر محرفة، كتحرير النقل عن كتاب د. زكريا البرى؟

أكان الحكم حكما دينيا استلزم هذا؟

وسؤال آخر، وليس بالأخير: ماذا حققت الحكومة المدنية، فى ظل الحكم المدنى والقومية المحلية، التى نذر الكاتب حياته لها؟ الحكومة المحلية فى أى بلد عربى؟

لندع الجواب للدكتور سعد الدين إبراهيم أستاذ علم

الاجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، والأمين العام للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، ورئيس الشؤون العربية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

والمنظمة العربية استشهد بها الكاتب على كيفية تطبيق الشريعة بالسودان.

قال في أهرام الأربعاء ١٢/٦/١٩٨٥ م:

هناك خمسة أنواع من التحديات عجزت عنها مؤسسة الدولة القطرية (القومية المحلية) عن التصدى لها بنجاح، وهى :

- ١ — العجز عن حماية الاستقلال الوطنى .
- ٢ — العجز عن التنمية الاقتصادية المستقلة .
- ٣ — العجز عن إقرار العدالة الاجتماعية .
- ٤ — العجز عن التجديد الحضارى والثقافى .
- ٥ — العجز عن توسيع دائرة المشاركة السياسية الشعبية .

ويرتبط بالعجز فى مجال التنمية الحقيقية عجز مماثل فى مجال إقرار العدالة الاجتماعية ونعنى بالعدالة هنا ثلاثة

أشياء محددة، هي : تكافؤ الفرص، والاتساق بين معايير الأداء في العمل، ومعايير المشاركة في الثروة الوطنية، وإشباع الحاجات الأساسية لأغلبية المواطنين ... وكانت النتيجة هي : «التشوه، والتفتيت في البناء الحضارى والثقافى للأمة ... المفارقة المأساوية .. أنه كلما اشتد عجز المؤسسة القطرية عن الوفاء بوظائفها الأساسية .. تعاضم استئسادها على مواطنيها ... يفوق أى قهر تعرض له المواطنون فى أحلك عهود الاستعمار .. والحريات الأساسية تكاد تكون معدومة تماما ... فالدولة القطرية ... عجزت عن القيام بوظائفها ... فلاهى حافظت على الاستقلال الوطنى، ولاهى أنجزت تنمية اقتصادية حقيقية، ولاهى أقرت عدالة اجتماعية، ولاهى حافظت على أصالة حضارية، ولاهى سمحت بمشاركة سياسية. ومع اخفاقها فى هذا كله .. تحولت الدولة القطرية إلى مؤسسة قمعية ..» اهـ

والذى نفسى بيده ليس هذا كلامى، بل هو كلام أمين المنظمة التى اعترى الكاتب بتقريرها.

ومن أجل هذا كله نريد حكم الإسلام . فمن
ذا الذى يأبى علينا أن نبتغى الخير لأمتنا ، برجوعها إلى
الدواء . الدواء الذى صحت به قرونا « لقد كنا ولسنا
شيئا مذكورا حتى أعزنا الله بالإسلام فإذا ذهبنا نلتمس
العز فى غيره ذللنا » عمر بن الخطاب .

لقد فارقتنا الحكم الإسلامى إلى الحكم المدنى ، منذ
عهد محمد على ، فى مصر بزعم الكاتب ، ومنذ الحرب
العالمية الثانية ، منذ أن قُضى على الخلافة سنة ١٩٢٤ فى
العالم الإسلامى رسميا فارقتنا بزعم الاصلاح والتقدم ...
بأسلوب الغرب ، فماذا كان ؟

وكننا نستطب إذا مرضنا

فصار الداء من قبل الطبيب !!

* * *

ليس إلهنا معزولا

يقول صاحب السقوط - منكرًا أن يكون لله في الأمم والدول ابتلاء-: إذا كانت هزيمتنا في سنة ١٩٦٧ م. غضبا إلهيا فما القول في نصر إسرائيل؟ هل هو رضا من الله في المقابل؟ وإذا كان تدهور مستوى المعيشة في بلادنا سخطا من الله لترك شرعه الصحيح فما القول في ارتفاع مستوى المعيشة في دول الغرب؟ ص ٢٢، ص ٥٢

ثم يقول: دفعت هزيمة ١٩٦٧ م العقل المصري، بل العقل العربي كله إلى مراجعة مع النفس... وفرض حجم الهزيمة إعادة طرح الاختيارات التي كان المعتقد أنها حسمت في نهاية القرن التاسع عشر. وعلى رأسها الاختيار بين نظام الحكم الإسلامي السلفي ونظام الحكم

الأورف. وهو الاختيار الذى تمخض عن الأخذ
بالأسلوب الثانى بصورة تدريجية.. بدءا باختيار
المصريين، بقيادة عمر مكرم لحاكمهم ممثلا فى (محمد
على) وانتهاء بالاتصال الوثيق بالحضارة الغربية فى عهد
إسماعيل، وبعد الهزيمة برز اتجاهان: أولهما: يدعو إلى
مواجهة إسرائيل بمزيد من التأقلم مع حضارة العصر..
وثانيهما: يرى أن الهزيمة كانت لتبنى المصريين للاختيار
الغرى. وأن حجم الهزيمة لا يمكن تبريره إلا بمقولة: إن
الله تخلى عنا حين تخلىنا عنه. وأنه من الضرورى أن
يُجتمع (المسلمون) فى أنحاء الأرض لمواجهة (أعداء
الدين)، ولتحرير (بيت المقدس) أولى القبلتين...
ورفعت شعارات (القومية الإسلامية) (حيث يكون
المسلم يكون الوطن) (لا من أجل وطن. خرجنا... نحن
جند الله) (يادولة الإسلام عودى).

ثم يقول: لهذا السبب أهمية كبيرة.. لكون معالجته
أحد بدائل الحلول الممكنة للخروج من أزمة تنامي
التيارات السلفية.. للعلاقة العكسية بين القومية الإقليمية

وبين نموّ التيارات السياسية الإسلامية.. ودعاوى الارتداد السلفية (ص ٥٢، وص ١٦٨-١٧٢).

قبل بيان سنة الله في الأمم والدول نصّح الأخطاء التاريخية في أقوال داعية السقوط:

لم تكن حكومة محمد على رفضا للحكم الإسلامي، واستجابا للنظام الأوربي عليه. بل كان نظام هذه الحكومة والبعثات العلمية التي ابتعثها أخذًا بسنة الإسلام الصحيحة. يدل لذلك: أن البعثة العلمية الأولى كان بها عدد من الطلاب (المشايع). وأن الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى، الذى صار أنبه رجال البعثة ذكرا، وأرفعهم شأنًا - أرسل ليكون (إماما) للبعثة، ومرشدا لها لتحافظ على قيمها الإسلامية. وأن الشيخ عمر مكرم لم يكن منفذا للنظام الغربى! بل كان منفذا للنظام الإسلامى فى اختيار الحاكم عن طريق الأمة، التى هى، فى الإسلام، مصدر السلطة السياسية.

ولم يكن اختيار (محمد على) حسما لقضية (اختيار بين نظامى حكم) بل ظلت الدعوة إلى وحدة المسلمين،

وعودهم إلى النظام الإسلامى الكامل فى الدين والدنيا قائمة منذ كان يدعو إليها الشيخ الزيدى، والشيخ حسن العطار، والشيخ المؤرخ الجبرى، ثم جمال الدين الأفغانى، ومن بعده، وبتوجيه الشيخ محمد عبده، ثم تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ثم تحولت هذه الدعوة القولية والكتابية إلى واقع عملى على يدى الشيخ حسن البنا!

وكان الاختيار الرسمى للنظام الأورى، والقضاء على الخلافة الإسلامية. فى مارس ١٩٢٤ ومع هذا الإلغاء الرسمى ظلت مطلباً عاماً للأمة الإسلامية يقول (أحمد شفيق باشا) المؤرخ الذى كان يسجل أحداث تلك الفترة: لقد كان فى مصر إجماع على وجوب بقاء الخلافة، ويقول الدكتور (محمد حسين هيكل) الذى كان رئيس تحرير جريدة السياسة، فى كتابه (مذكرات فى السياسة المصرية): فى هذه الأثناء - أى عام ١٩٢٥ م أخذ حديث الناس يكثر فى أمر كانوا من قبل ذلك

١ - لم يكن إذن التوجه إلى النظام الأورى اختياراً مصرياً حراً، بل كان اجباراً أوربياً...

يتناولونه بالحديث أحيانا.. ذلك: أمر الخلافة الإسلامية. فقد أراد الخلفاء، وأرادت إنجلترا بنوع خاص، بعد أن انتهت الحرب الكبرى، أن تقضى على السلطنة العثمانية التي قامت بأمر الخلافة الإسلامية قرونا عدة - قضاء ميرما. ثم قال: «وعند ذلك - أى بعد إلغاء أتاتورك الخلافة - قامت في الهند، وفي غير الهند من البلاد الإسلامية هيئات تريد أن تجعل الخلافة في دولة إسلامية قديرة على الدفاع عنها..» .

ولم يكن اتجاه إسماعيل إلى أوروبا اختيارا كاملا له، بل كان سياسة مفروضة عليه من الأجانب، وخاصة إنجلترا لإحكام قبضتهم على مصر، وللتمهيد للاحتلال العسكرى الذى كانت تنافس عليه فرنسا مثل حملة نابليون. يقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه: (الثورة العربية) ص ٣١: تقلد محمد توفيق مسند الخديوية يوم الخميس ٢٦/٦/١٨٧٩ ومصر إذ ذاك تجتاز مرحلة من أدق المراحل.. فالشعب يئن من المظالم والضرائب الفادحة، التى عاناها فى عهد إسماعيل،

ويتطلع إلى حكم جديد ينتهى فيه عهد الإسراف والمظالم، والخواطر ساخطة على التدخل الأجنبى فى شئون مصر، وماتعدد من مظاهره، وتلاحق من أشكاله ووسائله.. وقد بدأت ثورة الأفكار، والتطلع إلى الحرية،.. فى أواخر عهد إسماعيل، وتأصلت فى نفوس الطبقة المثقفة، واتسع مداها فى أوائل عهد توفيق... فالبلاد، إذن، كانت تتطلع إلى نظام جديد يضع حدا للإسراف والنفوذ الأجنبى.. ١٨٨٠هـ.

لم يكن اذن التوجه إلى النظام الأوربى اختيار مصريا حرا بل كان إجبارا أوربيا.

ومن المناسب للمقام أن نذكر أبيات الشاعر، والسياسى، والقائد العسكرى المعاصر لهذه الفترة: محمود سامى البارودى فى تهنئته لتوفيق بتولى منصبه، قال:

وَصَفَتْ موارد مصر، حتى أصبحت
بعد الكدورة، شرعة للورد

سنّ المشورة ، وهى أكرم خطة
 يجرى عليها كل راع مرشد
 هى عصمة الدين التى أوحى بها
 رب العباد إلى النبی محمد
 هيات يحيا الملك دون مشورة
 ويعزّز ركن المجد مالم يُعمد
 فحباك ربك بالجميل كرامة
 لجزيل ما أوليت أمة أحمد .
 هذه شهادة زعيم معاصر ، وتلك شهادة شيخ
 مؤرخى العصر ، وكلتاها تدفع زعيم كاتب السقوط
 باستحباب المصريين النظام الأوربي ، وطرح الفكرة
 الإسلامية ، وكلتاها شاهد عدل على أن كاتب السقوط
 يجازف فى إلقاء أحكام التاريخ ، كما كان قبل كالصيرفى
 المزيف لا يختار إلا الزيف ، ولا يروج عنده إلا المغشوش !
 ذلك قول كاتب السقوط فى التاريخ ، وسنة الأثم .
 أما الله فإنه يقول :

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض ﴾

فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴿ سورة آل عمران: ١٣٧ ﴾ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين . وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴿ سورة القصص: ٥٨-٥٩ . ويقول الله ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ سورة الرعد: ١١ ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ سورة الأنفال: ٥٣ .

قال الله تعالى ، وما كذب الله . حاشا لله . وما كذبت عليه رسله ، تقدر الله ، وصدق رسله . أثبت لهم أن نعمه منوطة ، ابتداء ودواما ، بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها . فإذا غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد ، وما يترتب عليها من كريم الأخلاق ومحاسن الأعمال . غير الله ما بهم من نعمه .

فإن الله ، سبحانه ، قد وضع للأمم سننا متبعة ، ثم قال :

﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ فمن تنكب عن تلك السنن من الأمم سقطت من عرش عزها؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم، ولعدولهم عن سنة العدل والاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعفة في الشهوة، والحمية على الحق، والقيام بنصرته، والتعاون على حمايته، فأخذهم الله بذنوبهم^(١). ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ الكهف : ٥٩ .

هكذا جعل الله بقاء الأمم ، ونمائها في التحلي بالفضائل ، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها - سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم .
عرف سنة الله هذه في الأمم أولو بقية من عقل وحكمة ، كما عرفها علماء الاجتماع ، بعد تقرير القرآن لها بقرون .

١ - الإمام الشيخ محمد عبده في العدد السابع عشر من جريدة العروة الوثقى - وراجع تفسير المنار ج ٩ - ٢١ ، ج ١٠ ص ٤١

عندما التقى الشيخ محمد عبده بالفيلسوف الانجليزى
(هربرت سبنسر) بمدينة (بريتن) يوم ١٠/٨/١٩٠٣ م
قال للأستاذ الإمام: مُحى الحق من عقول أهل أوربا،
واستحوذت عليها الأفكار المادية، فذهبت بالفضيلة.
وهذه الأفكار المادية ظهرت فى اللاتين أولا، فأفسدت
الأخلاق، وأضعفت الفضيلة، ثم سرت عدواها منهم إلى
الانجليز فهم الآن يرجعون القهقرى بذلك، وسترى هذه
الأمم يختبط بعضها ببعض، وتنتهى إلى حرب طاحنة..
قال له الأستاذ الإمام: إني آمل أن يحول دون ذلك
همم الحكماء مثلكم، واجتهادهم فى تقرير مبادئ الحق
والعدل ونصر الفضيلة.

قال الفيلسوف: وأما أنا فليس عندى مثل هذا
الآمل؛ فإن هذا التيار المادى لا بد أن يبلغ مده غاية
حدده. اهـ.

ومن يطلع على كتب الدكتور (غوستاف لوبون) فى
علم الاجتماع يجد فيها شواهد كثيرة على هذه السنين
الاجتماعية، التى سبق إليها القرآن. ومن كلامه فى تأثير

الأخلاق في ترقى الأمم وتدليها، وقوتها وضعفها قوله في كتابه (روح الاشتراكية) في الفصل الثالث: «وأذكر هنا ماأشرت إليه كثيرا في كتيبي الأخيرة، وهو أن الأمم لاتنحط وتزول إذا تناقص ذكاء أبنائها، بل إذا سقطت أخلاقها. هذه سنة طبيعية جرت أحكامها على اليونان والرومان، وأخذت تجري في هذه الأيام أيضا، ولا يزال كثير من الناس لايفقهون هذا القول ويجادلون في صحته...»إ.هـ.

هذه أقوال الأعلام من العلماء والفلاسفة، أتممها برأى بعض السياسيين الأوربيين: ذكر السيد رشيد رضا في رحلته الأوربية التي نشرت في المجلد الثالث والعشرين من مجلة المنار ج ٨، قوله: إننى ذاكرت، في معانى آراء (سبنسر) سياسيا أوربيا في (جنيف) فرأيته يعتقد اعتقاد (سبنسر) بل أخبرنى أن كثيرا من عقلاء أوربا يعتقدون أن فساد الأخلاق بالترف الذى أهلك الأمم الكبرى كالرومان واليونان والفرس والعرب - قد أوشك أن يقضى على أوربا، وستهلك بالحرب التى تلى هذه

الحرب، وماهى ببعيد، ونصح لنا بألا نقلد أوربا فى مدنيّتها المادية، وأن نحافظ على آداب ديننا وفضائله، وأن نجمع كلمتنا، ونجعل الزعامة فىنا لأهل الرأى والفضيلة منا...» .

. ماأجمل أن يراجع صاحب السقوط آراءه، وأن يزن أقواله بأقوال هؤلاء وآرائهم، إن كان حقاً ينشد الخير، ويتتغى الصواب .

هذا هو معنى التخلّى عن الله الذى قال عنه الدعاة، ويقولون . وهذا هو معنى الرجوع إليه . وهذا هو الذى غاب عن كاتب السقوط . ولم يغب عن دعاة الحق من كل ملة وأرض !

ليس التخلّى عن الله إلا ترك ماأمر، ومخالفة ماشرع، وعدم الاعتبار بما أخبر من وقائعة فى الأمم والجماعات، والغفلة عن أيام الله، وسنته فى تحقيق عز الدنيا وسلطانها، والفوز بالآخرة .

وليس العودة إلى الله تهويمات متناوم فى الذكر، ولا

خفقات و سنان فى التلاوة. إنها إيمان يعمر القلب،
وعقيدة تشعل الخمم، وتشحذ العزم، وتنقى رقدة
الكسل. عن النفس الأبية، وتضجر لها كل مأرب، ولو
كان بين أطراف الأسنة، وقصف المدافع... وتكلف بها
الأيام مائس يوهب، وتجب خا فى سبيلها كل الذى
تلقى. غايتها إحدى الحسينين الموعودتين من الله وعدا
حسنا. ومن أوفى بعهدده من الله: النصر أو الشهادة.
عقيدة تدفع إلى عمل الخير، وخير العمل ..

وعلى مقدار التخلّى عن هذا المنهج الإلهى بشرطيه
المعنوى والمادى تكون سنة الله فى الخذلان.

وعلى مقدار التحلى بهذا المنهج بشرطيه تكون سنة الله
بالعون ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾
سورة محمد: ٧.

وعلى مقدار فتنين تلتقيان من هذا المنهج بشقيه يكون
الفلج، ومقدار النصر.

هذه حقيقة قرآنية، وسنة الله الكونية الاجتماعية،

كتلك السنن الطبيعية التي استنها الله في الكون. كل
يجرى بمقدار، ويتحقق بأسباب.

وهي هي التي شهد بها التاريخ، وقررها القرآن سنة
عملية في غزوة أحد. لم يمنعهم وجود الرسول بين
المسلمين، أصحابه من المهاجرين والأنصار، من الهزيمة،
عندما خالفوا أمرا يتعلق بالنظام المادي للمعركة، فتخلي
الله عنهم، وحقق سنته، وأصابهم الكفار ﴿ولقد
صدقكم الله وعدة إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم
وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ماتحبون
منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم
صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل
على المؤمنين﴾ سورة آل عمران: ١٥٢ ﴿يا أيها الذين
آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم
تفلحون﴾ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا
وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ سورة
الأنفال: ٤٥ - ٤٦.

ذاك بعض تفصيل ، ذكره الله ، لبيان سننه في النصر والهزيمة . لما خالفه المسلمون في أحد أصابهم الكفار . فهل يقال ، في المقابل ، إن الله كان مع الكفار ؟ !

إنها سنة الله التي لا تحابي ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿ سورة النور : ٥٥ .

تلك سنة الله . وهذا وعده . ولكن ذلك يغيب عن ذهن الذين اتخذوا أيمانهم جُنه . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم .

وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله لووا رءوسهم . ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظّمهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ .

ومن سنن الله، التي يعلمها الدعاة أن الله ما أرسل من رسول يدعو الناس إلى الهدى الذى بعثه به، والكتاب الذى أنزل عليه. ولا نبي يدعو قومه إلى هدى رسول سابق عليه وكتاب سبق إنزاله عليه - إلا إذا تمنى كتاب الله، وقرأه على الناس ألقى الشيطان فى أمنيته، بلسان المترفين، المغرورين بمآلهم، ومكانهم، ومكانتهم، يحرفون كلام الله ورسوله عن مواضعه، والتقول عليه بما لم يقل، واتباع المتشابه منه ابتغاء الفتنة، وتفريق جماعة المؤمنين.

وما تمنى رسول، ولا نبي، وأخصهم خاتمهم عليه السلام أمنيته بإسلام قومه، وأمله فى هدايتهم إلا وضع الشيطان، بأيدى حزبه، فى طريق رغبة الرسول والنبي العقبات، وألقى العثرات، وأثار الشبهات، وسخر من السنن والآيات. واستخدم فصاحة الكلمات، وبلاغة العبارات (مغتريا بالسلامات، ومارفع له من علامات.. وهكذا سجعات فى سجعات) مع الاعتذار إلى ص ٨٤ من قبل السقوط.

ويُفتتن بهذا الزيف في التأويل والتقول، ويُصرف بهذه العقبات والعترات. أصحاب القلوب المريضة، والعقول المفتونة بما عندها من العلم. ثم تغلب سنة الله، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق، ويمحو ما ألقى الشيطان. وتكون كلمة الله هي العليا ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾. ليجعل ما يلقي الشيطان فتنه للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم. وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾. ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾.

وعلى سنة الله في دعوة الرسل والأنبياء يسير الدعاة، يؤمنون بسنة الله، ويؤمنون بأن العاقبة للمتقين، وأن

أصحاب الأيدي الآثمة يخزيهم الله في الدنيا، ولعذاب
الآخرة أخزى، ويعلى كلمته بتلك (الأيدي المتوضعة) -
مع الاعتذار مرة أخرى إلى ص ١٠٧ !!

* * *

السياسة

قصدت (بالدين) كل مايجب اعتقاده شرعا. سواء ما هو عام بين الأديان، وهو الإيمان بالله، واليوم الآخر، والوسائط بين ذلك من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل. وما هو من دين الاسلام خاصة من التوكيد على توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية. والإيمان بالقرآن، وبرسالة محمد خاتم النبيين.

وقصدت (بسياسة الدين) ماشرعه الله في الإسلام، مما نزل به القرآن، أو شرعه الرسول وحيا؛ لضبط حركة العباد الاختيارية، وجعلها موافقة لما شرع.

فمبنى (سياسة الإسلام) وشريعته على التعريف بمواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد

الاختيارية (١) .

ولا أقصد من لفظ (السياسة) في هذا التقسيم المنهجي في هذا البحث، المقابل لكلمة (الدين) و(سياسة الدين) معناه العام الذى هو: القيام المطلق بتدبير شئون الأمة العامة . والتي هى ، بهذا الإطلاق، قد تتفق والإسلام، أولاً تتفق . وإن كان هذا المعنى المطلق سيرد في البحث .

إنما قصدت (السياسة) مقيدا بقيد (الإسلامية)

والسياسة الإسلامية هى : تدبير الشئون العامة للأمة ، بقوانين ونظم تكفل تحقيق مصالحها ودفع الضرر عنها ، فيما لمن يرد فيه نص جزئى مباشر ، من غير تقييد بكيفية معينة فى هذه القوانين والنظم ، ولا باجتهاد معين .

قال أبو الوفاء بن عقيل : السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسول ، ولا نزل به وحى . ومن قال : لاسياسة

١ — راجع مفتاح دار السعادة ، لابن القيم ص ١٧١ ، ١٧٤ ، ٣٢٨

إلا ماوافق الشرع . إن أراد به : لم يخالف مناطق به الشرع
فصحيح . وإن أراد به : لاسياسة إلا مناطق به الشرع
فغلط ، وتغليط ، للصحابه (١)

قال ابن القيم (٢) : وهذا موضع مزية أقدام ، ومضلة
أفهام . وهو مقام صنك ، ومعترك صعب ، قرط فيه
طائفة ، فعطلوا الحدود ، وضيعوا الحقوق ، وجرعوا أهل
الفجور على الفساد ، وجعلوا الشريعة قاصرة لاتقوم
بمصالح العباد ، محتاجة إلى غيرها ، وسدوا على نفوسهم
طرقا صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له .. ظنا منهم
منافاتها لقواعد الشرع . ولعمر الله إنها لم تناف ما جاء به
الرسول . وإن نافت مافهموه من شريعته باجتهادهم ...
فلما رأى ولاية الأمور ذلك ، وأن الناس لا يستقيم لهم
أمر ، إلا بأمر وراء مافهمه هؤلاء من الشريعة ، أحدثوا
من أوضاع سياستهم شرا طويلا ...

١ - الطرق الحكيمة لابن القيم ، بتحقيق الشيخ محمود عرنوس ط أول

سنة ١٩٥٣ ص ٢٣ - ٢٤

٢ - المرجع السابق

وأفرطت طائفة أخرى قابلت هذه الطائفة، فسوغت من ذلك ماينافى حكم الله ورسوله. وكلتا الطائفتين أوتيت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله، وأنزل به كتابه؛ فإن الله سبحانه أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه، بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه... بل قد بين الله بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط. فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهى من الدين، ليست مخالفة له، فلا يقال: إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل موافقة لما جاء به، بل هى جزء منه... اهـ.

أرجو أن يكون فى كلام هذين الإمامين مقنع لطائفتين من الناس :

الأولى : من يرفضون كل جديد انطلاقا من قاعدة : كل مالم يرد فى الشرع مرفوض .

الثانية : من يتعلقون بهذا القول : ويحسبونه على الاسلام نفسه ، فيقبلونه عقيدة ، أو يتظاهرون بقبوله عقيدة ؛ لأن رفضه كذلك يضعف موقفهم . ويرفضونه دولة ، استنادا إلى ظلم قديم ، أو غلو وتنطع حديث ، فيقع الاسلام بين ظلمين : محب مفرط ومبغض مفرط

ظلمته ألسنه تؤاخذه بكم
وظلمتوه مفرطين كسالى !

من سياسة الإسلام ماهو مرتبط بنصوص كلية مباشرة : كالنص على الشورى ، أمراً ، ومدحا . والعدل ، أمراً وغاية . وأداء الأمانة ، أمراً وتعظيماً . والدعوة إلى الله ، أمراً ، وتقريراً . وجدال المخالف . وجلاد الفاتن . واعتزال المسالم . وإعداد القوة . والحرب . والسلام . والمعاهدات ... وكل مانصت عليه الشريعة من القواعد الكلية ، التى يتخذ تنفيذها وتطبيقها الزمانى والمكانى صوراً متعددة ، وكيفيات مختلفات ترك للعقل ، والتجربة اختيار أحسنها فى زمانه ، وأنسبها إلى أهله .

ومن السياسة مالم يرتبط بنص كلّى مباشر ، مثل

تعبيد الطرق، وشق الترع، وإجراء الأنهار، وغرس الأشجار، وإقامة المرافق، وتدوين الدواوين، وتنظيم الهيئات. وكل ما يتصل بالشئون العامة للدولة، وتتطلبه حياتها من نظم دستورية أو مالية، أو تشريعية، أو قضائية، أو تنفيذية. وما يتصل بشئونها الداخلية، وعلاقاتها الخارجية عامة، إجمالاً وتفصيلاً.

فتدبر هذه الشئون، والنظر في أسسها، ووضع قواعدها، بما يتفق وأصول الشرع هو من السياسة الشرعية.

وهذا النوع يلزم ربطة بتحقيق مصالح المسلمين. سواء المنافع الدينية والدنيوية؛ ودفع المضار كذلك. لأن الإسلام راعى الدين والدنيا.

وتعرف المصلحة في هذا النوع من السياسة بقياسها إلى أغراض الشريعة التي جاءت لتحقيق مصالح العباد.

ويكون هذا التعرف بالرجوع إلى نص عام مثل ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾

﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ .

وما من أمر شاق إلا وجعل الشارع للمكلف منه مخرجا، فإذا تَوَخَّى المكلف الخروج من المشقة، على الوجه الذي شرع له كان ممثلا لأمر الشارع، أخذًا بالحزم في أمره. وإن لم يفعل وقع في محظورين: أحدهما: مخالفته لقصد الشرع. والثاني: سد أبواب التيسير عليه^(١).

أو يكون بالرجوع إلى توجيه نص مثل تقديم دفع المفسدة الأكبر، على جلب المنفعة الأقل، أخذًا من قوله ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ مع الأمر بالاجتناب في قوله ﴿يأياها الذين آمنوا إِنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ .

ومثل دفع الضرر العام بتحمل الضرر الخاص أخذًا من تحريم الاحتكار .

١ - الموافقات للشاطبي ج ١ ص ٣٤٦

درجات المصالح

ومصالح الناس التي قصد الشارع إلى تحقيقها،
تختلف درجاتها، من جهة حاجة الناس إليها:

فمنها ما هو ضروري، تفوت الحياة بفوته، أو تجرى
مصالح الدنيا على غير استقامة، بل على فساد وتهارج.
وفي الآخرة فوت النجاة والنعيم.

وهذه الضروريات هي: حفظ الدين، والنفس،
والعقل، والمال، والنسل، (=النسب = العرض).

ومن أجلها حرمت المحرمات الخمس في قوله ﴿قل﴾
إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم
والبغى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به

سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعملون ﴿٤﴾ .

ومن أجلها شرع كثير من (سياسة الدين) كال دعوة إلى التوحيد ، والقصاص ، وتحريم الخمر وكل مسكر ، وتحريم السرقة ، والإسراف والتبذير ، وأخذ المال بغير عوض صحيح ، وأمر بالسعى على الرزق .. وحرم الزنا ، وشرع النكاح . وأصول ذلك كله في القرآن .

ومن المصالح ما هو حاجي ، وهو ما يحتاج إليه من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدى في الغالب إلى الحرج والمشقة التي تمنع سعادة الناس بالحياة .

ومن أجل هذه المصالح :

شرعت الرخص في العبادات ، كالقصر والجمع .
والتييم . وإفطار المريض والمسافر ، والصلاة من قعود
غير القادر .

وفي المعاملات : شرع القراض ، والمساواة ،
والإجارة ، والرهن .

وفى العادات : أباح الصيد، والتمتع بالطيبات مما هو
حلال مأكلا ومشربا وملبسا ومسكنا ومركبا .

وفى الجنائيات : شرع القسامة، وضرب الدية على
العاقلة، وتضمن الصناع إذا أفسدوا...

ومن هذا النوع - الحاجيات - ما شرع احتياط لأصل
من الأصول الخمسة الضرورية: كأخذ الخذر من
العدو، والنظرة المحرمة، والخلوة، والتحذير من إثارة
الفتن، والشبهات. ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر. وأداء الدين.

النوع الثالث من الحاجات : التحسينيات :

ومعناها : الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب
الأحوال المدنسات، التى تأنفها العقول الراجحة. مثل :
ستر العورة، وإزالة النجاسة، والنظافة فى البدن والثوب
والمكان. ولبس الجديد فى الأعياد. وآداب التحية
والحديث، وسائر الآداب السلوكية والاجتماعية، مما
يجمعه : مكارم الأخلاق. فهذه الأمور راجعة إلى محاسن

زائدة على أصل المصالح الضرورية، والحاجية؛ إذ ليس
فقدانها بمخل بأمر ضرورى ولا حاجى وإنما جرت مجرى
التحسين والتزين^(١).

ومصالح العباد لا تخرج عن هذه الثلاثة:
الضروريات، والحاجات، والتحسينات. وهى موجودة
فى القرآن على الجملة، وفى السنة مع التفصيل وزيادة
البيان والشرح^(٢).

ونجد أن مجال العقل والتجربة فيما ارتبط بمبدأ عام
كالشورى، والعدل، وتولى الحكم بالعدل والحق، وأداء
أماناته. وفيما لم يرتبط بهذا النص العام ولكنه ارتبط
بتحقيق المصلحة - نجد أن مجال العقل والتجربة فيه أوسع
مدى، فى موضوعه حتى يشمل الكون كله. وفى
منهجه، بحيث يتحقق للفكر حريته، وللحسن تجاربه.
وليس لذلك من قيد إلا أن يكون محققا للمصلحة، وغير
متعارض تعارضا حقيقيا مع نص قطعى. وليس فى

١ - المواقف للشاطبى ج ٢ ص ٥ - ١٢

٢ - المرجع السابق ج ٤ ص ٢٧

الشرعية مايتعارض مع صحيح العقل، وثابت التجارب .
وبذلك نجد أن حركة العقل ثابتة - إسلاميا - فيما
هو دين، وماهو من سياسة الدين، وماهو سياسة
إسلامية . على ماسبق بيانه في كل منها .

وأنها - حركة العقل - كلما اقتربت من سياسة
الدين، والسياسة الإسلامية اتسع مجالها الموضوعي
والمنهجي، حتى لايجد لها قيد إلا قيد هو عصمة لها وقيد
هو توجيه لها نحو غاية إنسانية . وبهذا وذاك سلمت بما
أصاب سائر الحضارات الأخرى، مما سلف به البيان
المستفيض .

ومن البدهى أنه كلما اتسع مجال العقل في المنهج
والموضوع كانت احتمالات الاختلافات، وتعدد
الاجتهادات أقوى من حيث النظر، وأكثر من حيث
الواقع ..

وبذلك تتفاعل الأفكار، وتتلاقح العقول . وتسير
بذلك التفاعل، وهذا التلاقح حركة الحياة في تطور يخدم

الإنسان، ويخدم الدين على سواء ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ .

وهذا غرض مقصود للإسلام .

فماذا فى هذا من عيب ؟!

إن الذين يعيبون تاريخ الإسلام بعيدون عن معرفة هذه الأصول والأنس الإسلامية .

والذين يرفضون الإسلام دولة، لأخطاء فى مواقع مجالات التجربة والعقل والمنهج - إنما يلزمهم - أرادوا أم لم يريدوا - الحجر على الفكر، وقتل التجارب، والجمود، من حيث يدعون الاعتداد بالعقل والتجارب والتحرر، ويرمون علماء الإسلام (بحركة الارتداد السلفية) وسحب مصر للخلف بتزيين حياة السلف . (ص ٨٤)، ثم مطالبتهم بصب العقول والأفكار فى قالب واحد لتخرج منها (بمجما عليه منهم . ص ٧٦) .

وأشد من هذا ضلالة عن الحق زعم أنه لا يمكن
الانتباه إلى رأى واحد فى جميع القرآن، بزعم أن فهمه
يتوقف على (رجال الدين) وهم لم يتفقوا، وما يتفقون
على رأى واحد فيه .

عجب لتلك قضية، وإقامتى
فيكم على تلك القضية أعجب

لا يفهم القرآن إلا بالرجال
والرجال لا يتفقون على رأى واحد
- إذن .. لا يفهم القرآن على رأى واحد

لا يفهم القرآن إلا بالرجال
والرجال لا يفسرونه إلا بالهوى
إذن .. لا يفهم تفسير القرآن إلا بالهوى

لا يفهم القرآن إلا من خلال رجال الدين
ورجال الدين لا يفسرونه إلا بالهوى
والهوى يمالئ الاستبداد
إذن .. القرآن يمالئ الاستبداد

لا يفهم القرآن إلا من خلال رجال الدين
 ورجال الدين لا يفسرونه إلا بالهوى
 والهوى يجب تركه
 إذن .. القرآن يجب تركه
 رأيتم إلى هذه القضايا (الفرحية . العلوية . الفودية .
 السقوطية) (١) .

رأيتم إلى هذه القضايا ولوازمها، التي اهتدى إليها
 صاحب السقوط، حيث ضل عنها المسلمون أربعة عشر
 قرناً من الزمان !

أما الله، منزل القرآن، فإنه يقول :
 ه أفلأ يتدبرون القرآن . ولو كان من عند غير الله
 لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴿ سورة النساء : ٨٢ ﴾ أفلأ
 يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿ سورة
 محمد : ٢٤ .

١ - مع الاعتذار إلى ص ١٠٨ (مصر مسلمة قبطية عربية فرعونية إفريقية
 بحر متوسطية) .

هكذا يريد الله، ولكن صاحب السقوط يكتفى به
تلاوة (ويسعد بأن يتعلم أولاده أصول الدين، وأن
يحفظوا كتاب الله، وأن نستمع جميعا إلى آيات الله
تتلى .. ص ٢٣).

ورحم الله الحسن البصرى: (أنزل القرآن ليعمل به،
فاتخذتم تلاوته عملا)!

قال ابن الجوزى: يعنى أنهم اقتصروا على التلاوة،
وتركوا العمل به،، (١).

وقال الدكتور يوسف إدريس: الإسلام دين كفاح،
ونضال وثورة. جاء ثورة على العالم القديم كله. وروحه
محشودة بالآيات التى تحض على قتال الأعداء، وكأنها
أوامر عسكرية يومية كان يصدرها المولى سبحانه وتعالى
لعباده المؤمنين؛ كى يحاربوا أعداءهم المفسدين الذين
كانوا يمثلون قمة الجشع، والإجرام، والوثنية، والجاهلية
﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أليس هذا أمرا

١ - تلبس إبليس ص ١١٢

عسكريا واضحا. كل ما في الأمر أننا حين حولناه إلى
أنغام يقرؤها مقرئون، ويتأيلون على وقعها - فقد
مضمونة الحق، واستحال إلى شكل قرآني غنائي، لا يمكن
أن يتبين معه المؤمن المقصود بمعناه، ومحتواه...، (أهرام
الأثنين ١٩٨٥/٧/١ م).

مرة أخرى :

ألا يا قوم للعجب العجيب
وللغفلات تعرض للأريب

يعاضد الدكتور الأديب الأريب صاحب السقوط في
ترك دولة القرآن!

ويعارض قيام دولة الإسلام؛ (لأن إسلامها لن يكون
إسلام الأستاذ خالد محمد خالد، ولا إسلام محمد عبده،
ولا جمال الدين الأفغاني. بل إسلام الميكروفونات) أهرام
٢٤ / ٦ / ١٩٨٥ م.

لماذا (إسلام الميكروفونات) بهذا الجزم؟
ولماذا لانعمل جميعا متعاونين على تحقيق الإسلام

الضحيح؟

ولماذا لانبحت عن دافع الغلو، ونقف عند رد الفعل؟

ثم هل يتحقق الإسلام على ما وصف الدكتور يوسف دون دولة؟

الإسلام دين كفاح . . آياته كأنها أوامر عسكرية . . د . يوسف

لا ، للسيف صاحب السقوط
بأيهما نأخذ؟ ولماذا اختلفا في بيان المراد من القرآن،
وكلاهما ليس (رجل دين)؟ حضارة الاسلام أشرفت
على أوروبا . . د . يوسف

مأصاب ابن حنبل درس لمن يتشدقون بازدهار الفكر
الإسلامي في عهد الخلافة العباسية . . د . فودة !

ثم هما معا يعارضان دولة الإسلام، ويسألان معا
سؤال إنكار: لماذا الآن؟

كيف اختلفا في المقدمات، ثم اتفقا في النتيجة؟!
الله أعلم !

الثواب والمتغيرات

﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون أمنا به﴾ كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولو الألباب ﴿آل عمران: ٧.

هناك ما يرجع به إلى مقاصد الشريعة: الضروريات، والحاجات، والتحسينات.

وهناك ما يرجع إلى نص عام، قد تختلف جزئياته، أو تطبيقاته.

وهناك المتشابه، الذى تحتل دلالة وجوها من حيث اللفظ والتركيب، لامن حيث المراد.

وهناك المحكم الذى لا اشتباه فى دلالة، بل هو واضح الدلالة، لا التباس فيه على أحد. فمن ردّ ما شبّهته إلى الواضح، وحكم المحكم على المتشابه فقد اهتدى. ومن عكس انعكس. ولهذا قال: ﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه...﴾.

· إذن ليس كل ما فى القرآن تختلف فيه الأفهام. بل منه الثوابت التى يفهمها كل أحد مادام يعرف لغة القرآن. ولهذا أيضا دعا الله الناس جميعا إلى تدبر القرآن.

فالشريعة كلها ترجع إلى قول واحد فى فروعها، كما أنها فى أصولها كذلك. ولا يصلح فيها غير ذلك. والدليل عليه أمور:

أحدهما: أدلة القرآن: منها قوله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ فنفى أن يقع فيه الاختلاف البتة. ولو كان فيه ما يقتضى قولين مختلفين لم يصدق عليه هذا الكلام على حال.

وفي القرآن: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وهذه الآية صريحة في رفع التنازع والاختلاف؛ فإنه رد المتنازعين إلى الشريعة، وليس ذلك إلا ليرتفع الاختلاف. ولا يرتفع الاختلاف إلا بالرجوع إلى شيء واحد؛ إذا لو كان فيه ما يقتضي الاختلاف لم يكن في الرجوع إليه رفع تنازع. وهذا باطل.

وقال تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفْزِقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ والبيّنات هي الشريعة، فلولا أنها لا تقتضي الاختلاف ولا تقبله لما قيل لهم: من بعد ما جاءهم البيّنات.

والثاني: لو كان في القرآن تعارض لكان يصح العمل بكل من المتعارضين، وهذا باطل بالاجماع.

والثالث: لو كان في الشريعة مساع للخلاف لأدى إلى تكليف مالا يطاق، لأن أحدهما يقتضي: (افعل) واقتضى الثاني (لا تفعل) لمكلف واحد، من وجه

واحدة، وهو عين التكليف بما لا يطاق. وهو باطل (١).

إذن القول بترك القرآن، وحكمه، وحكومته بزعم اختلاف العلماء في تفسيره، مع القول بأن المصحف في القلب - تصديق ظاهر، وتكذيب خفي.

وقديما قالت طائفة بترك النظر في القرآن، والاكتفاء بتقليد العلماء.

وحديثا يقال بترك القرآن، وأقوال العلماء معاً، حتى يتفقوا.

والحديث مثل القديم. دعوة إلى هجر القرآن وهو سر الإسلام، وروح نهضة المسلمين. وما نجهد أعداء الإسلام، قديما وحديثا، في شيء قدر جهدهم لفصل القرآن عن المسلمين، وفصل الإسلام عن الحكم.

غير أن الأعداء القدامى، كانوا أصرح قولاً في هجومهم على القرآن؛ إذ منهم من وجه إليه التهم مباشرة

١ - الموافقات للشاطبي ج ٤ ص ١١٨ - ١٢١

بقول عامّ، كقولهم: إنه سحر، إنه أساطير ..
أو بقول مفصّل لمحاولاتهم الطعن في بعض أحكامه،
ومحاولة إظهار التعارض ...

وأما أعداء اليوم فإنهم يعلنون الإسلام شهادة، وأن
المصحف في القلب، وأن الإسلام بخير، وأن الدين
ضمير المجتمع ... ثم يسلبونه قوة السلطان، ويزعمون أن
ذلك له أحفظ، وللدولة أصلح. كأننا في (يوطوبيا)
حلم جميل نحفظ فيها لكل ذي حق حقه، ولكل ذي
مكانة مكانته، ويسود فيها المبدأ قبل المصلحة، والحق
قبل القوة. ويستطيع المصحف فيها أن يقوم برسائله من
غير سيف، ويسبح المسلمون في أرضها من غير خوف.
ويزورون (قدسها) من غير تهويد، ويصطافون في لبنانها
من غير تمزيق ...

على تلك الأسس الإسلامية في الدين، وسياسته،
وسياسة الاسلام وعلى مقدار صلة العقل والتجربة يجب
أن تناقش الدعوة إلى تطبيق الشريعة، لاعلى أساس تتبع

الهنات؛ لأن هذا المنهج هروب من مواجهة حقائق الإسلام، وتعلق بأباطيل خصومه. وهو أمر يستلزم هدم جميع القيم الإنسانية، فما من قيمة من قيم الإنسان، في أى مجتمع على وجه الأرض، كالحرية، والديمقراطية.. إلا وقد ارتكبت باسمها آثام تقشعرّ منها الجلود. وإن منطق صاحب السقوط يستلزم هدم تلك القيم لهذه الأثام.

فهل يقول بذلك ذو لب، وذو إنصاف؟
وعلى هذه الأسس يجب أن ينظر إلى مسائل:
الشورى، ونظام الحكم الإسلامى، واختلاف الصحابة.



الشورى

المبدأ :

لا يمتري أحد - ولو كان من المنقيين عن المعايب - في إرساء الإسلام الشورى، وتقريرها مبدأً من مبادئه، وجعلها صفة لازمة من صفات المؤمنين به، وقاعدة من قواعد سياسته، وعزائم أحكامه.

شهد بذلك القرآن :

فمن مشهوره أن الله - سبحانه - قد أمر بها نبيه في سياق أوامر وصفات، تضع منهاجا للحاكم لتجتمع حوله القلوب، وتنجح قيادته، ويكون تجمعها ونجاحها ببواعث ذاتية، لا بتسلط خارجي.

﴿فما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ
القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم
وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ إن الله
يحب المتوكلين ﴿ سورة آل عمران : ١٥٩

ومن مشهوره : بيان القرآن ؛ بالوصف الخبرى - أن
الشورى من صفات المؤمنين ، المنظومة فى سلك واحد
مع الايمان والإسلام ولوازمهما الاعتقادية والعملية
﴿وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم
يتوكلون﴾ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا
ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا
الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون
والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ سورة
الشورى : ٣٦ - ٣٩ .

ومن هذه أخذ اسم السورة ، فسمّاها الله : سورة
الشورى . وفيه من الدلالة مالا يخفى .

كل هذا من مشهور القرآن ، ولكن من لطائف
توجيهاته ، ووسائل تثبيته مبدأ الشورى ، إخباره أن الله

عرض مسألة استخلاف ادم على الملائكة، وإخباره بما أبدوه من رأى فى ذلك الاستخلاف ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّ جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة: ٣٠ .

قال الزمخشرى: أخبر الله الملائكة بذلك ؛ ليعلم عباده المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحاءهم . وإن كان هو بعلمه وحكمته غنيا عن المشاورة .

قال الرازى: الوجه الثانى: أنه تعالى علم عباده المشاورة .

وفى هذا غاية البيان التعليمى "الموجه إلى التخلق بهذا الخلق الإلهى لكل من آمن بالقرآن ومنزله، وبكل عارف بربه وبنفسه .

ومن هذه اللطائف القرآنية فى تقرير مبدأ الشورى: سلبه عن الرسول صفة التسلط على قومه، أو التصرف

في شعونهم فقال له (ليس لك من الأمر شيء) (لست عليهم بمسيطر).

وشهدت السنة القولية والعملية :

قال أبو هريرة: «مارأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من النبي ﷺ (١). وقال ﷺ: المستشار معان والمستشار مؤتمن» (٢).

وشاور النبي أصحابه قبل حرب بدر، وقال لهم: أشيروا عليّ أيها الناس..

وشاور الضاحيين في أسراها. وقال لهما: لو أنكما تتفقان على أمر واحد ماعصيتكما في مشورة أبدا.

وشاور أصحابه في التحصن بالمدينة في غزوة أحد.

وفي حنين، لما جاءت هوازن مسلمة ورغبوا في ردّ سباياهم، ردّ من لهم مايخصه، أما مايخص المسلمين فلم

١ — سنن أبي داود والترمذي — فتح الباري جـ ١٣ ص ٢٨٦

٢ — محمد بن المنكدر عن عائشة: أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٧٨

يعط نفسه الحق في ردّه حتى أذنواهم فيه . ومن تردّد من الناس أغراه الرسول بأنه يعرضه ضعفه مستقبلا حتى رضاهم !

وبلغ من اعتزازه بالشورى أنه شاور في أموره الخاصة، فقد استشار عليا وأسامه في حديث الإفك^(١).

بل الأعجب من ذلك مشاورته في كيفية تنفيذ بعض أحكام الوحي: فمن عليّ: لما نزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المجادلة: ١٢ قال لي النبي ﷺ: ماترى؟ دينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فنصف دينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فكم؟ قلت: شعيرة. قال إنك لزهيد. فنزلت: (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا

١ - الفتح جـ ١٣ ص ٢٨٧

الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون) قال :
فبى خفف الله عن هذه الأمة (١) .

وشهدت سيرة الصحابة ، وأقوالهم . ومواقفهم
العملية فى المشاورة مشهورة : كالمشاورة فى حروب
الردة ، و قتال مانعى الزكاة ، وحروب العراق والشام .
وتولية القادة . وجمع المصحف ..

ومن أولاهها ، وأدلها على تقرير المبدأ قصة التحكيم ،
حيث نزل الإمام على ، على رأى جيشه فى قبول
التحكيم ، مع يقينه بأنها خدعة . وقال لهم مبيناً : إنها

١ - رواه الترمذى وصححه ابن حبان - الفتح ج ١٣ ص ٢٨٦
وفيه دليل على أن الله سبحانه مأمراً بشىء ثم أبطله رأساً ، بل لا بد
أن يبقى بعضه أو بدله ، كما أبقي شريعة الفداء ، وكما أبقي استحباب
الصدقة عند المناجاة التى كان مأموراً بها فى آية المجادلة ﴿... إذا
فاجئكم الرسول...﴾ وكما أبقي خمس الصلوات بعد رفع الخمسين
وأبقى ثوابها وقال : (لا يبدل القول لدى) هى خمس فى الفعل
وخمسون فى الأجر . (ابن القيم : الجواب الكافى ص ٢٢٠) وقال
الشافعى فى الرسالة ص ١٧ : وليس ينسخ فرض أبداً إلا أثبت مكانه
فرض ، كما نسخت قبله بيت المقدس ، فأثبت مكانها الكعبة

كلمة حق أريد بها باطل...

أعيروني سواعدكم وجامحكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه.. فلم يوافقوه. وضار الأمر إلى التحكيم فاختر عبد الله بن عباس، فلم يرضوه، ثم اختار الأشتر النخعي، فلم يرضوه. فوافقهم على أبي موسى الأشعري.. ثم كان ما كان. فقال لهم معاتبا: إن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحيرة، وتعقب الندامة. وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى، ونخلت لكم مخرون رأيي.. فأبيت على إباء المخالفين الجناة، والمنابزين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنضحه، وضمن الزند بقدحه^(١).

هذا، ولم يعتبروا قوله، واختياره، حكما إلهيا!

وأما أقوال الصحابة فإنها كاشفة عن تقديرهم لها، موضحة آثارها. قال عمر بن الخطاب: الرجال ثلاثة:

١ — نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده. تحقيق الشيخ محمد محي الدين

عبد الحميد ج ١ ص ٨١

رجل ترد عليه الأمور فيسدها برأيه . ورجل يشاور
فيما أشكل عليه ، وينزل حيث يأمره أهل الرأي . ورجل
حائر برأيه ، لا ياتمر رشدا ، ولا يطيع مرشدا .

وقال الامام عليّ : نعم الموازنة المشاورة ، وبئس
الاستعداد الاستبداد . وشهدت أقوال حكام المسلمين ،
ومجربهم . وسجلها أدب لغتهم : قال عمر بن عبد
العزیز : إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ، ومفتاحا بركة ،
لا يضل معهما رأى ، ولا يفقد معهما حزم .

وقال بشار بن برد ، وهو أحد أعلام البصرة الستة في
علم الكلام (١) ، وأحد أعلام الشعر العربي ، الذين شهد
لهم الأصمعي :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
فإن الخوافي قوة للقوادم

١ — هم : عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وبشار ، وصالح بن عبد
القدوس ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، جرير بن حازم

قال الأصمعي : قلت لبشار : يا أبا معاذ ، إن الناس تعجبوا من أبياتك في المشورة ؛ فقال يا أبا سعيد إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يشارك في مكروهه فقلت له : أنت - والله - في قولك هذا أشعر منك في شعرك (١) .

والأدب مرآة الأمة ، ومقياس فكرها ، والكاشف عن مدى رقي وجدانها ، وعن وجوه حياتها ، واتجاهاتها .

ولا يزكو مثل هذا الذي شهد له إمام أهل الأدب في حياة يسودها سواد الظلم ، وتتغشاها غاشية من سطوة الاستبداد .

والنقد وجه من وجوه الرأي . مثله مثل المشورة ، وهو أيضا وجه من وجوه الأدب ، له دلالاته على مادل عليه .

وله في حياة المسلمين أمثلة تسفر عن وجه حياتهم وعن طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم :

١ - الأغاني ج ٣ ترجمة بشار

نقد الحباب بن المنذر رأى الرسول ﷺ ، فى موقع معسكر الجيش يوم بدر .

ونقد عمر صلح الحديبية، ورأى فيه الدنية، يعطاها المسلمون - برضا الرسول- فى دينهم عن طوعية . وأعلن رأيه فى ذلك غير مخادع ولا مدهن .

ونقد (السعدان) رأى الرسول فى مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة؛ ليفكوا حصارهم للمدينة يوم الأحزاب . وقالوا للرسول : لقد كنا نحن وهم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو يبيعوا، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لن نعطيهم إلا السيف . فصوّب الرسول عليه السلام رأيهما، ونزل عليه!

لما قتل الرسول النضر بن الحارث يوم بدر، قالت أخته فى رثائه، تخاطب الرسول :

أحمد، ولأنت نسل نجيبة
فى قومها، والفحل فحل معرق

ما كان ضرّك لو مننت، وربما
 مَنْ الفتى وهو المغيظ المحق
 والنضر أقرب من أخذت بزلة
 وأحقهم إن كان عتق يعتق
 فيقال: إن شعرها أكرم شعر موتورة وأعفه وأكفه
 وأحلمه.

قال صاحب الأغاني: فبلغنا أن النبي ﷺ قال: لو
 سمعت هذا قبل أن أقتله ماقتلته (١).

القول هنا في تقبل النبي هذا النقد الحفيف، وفي
 تقريره مبدأ العفو بعد الاعتذار، حتى عمن اشتدّ أذاه،
 وطالّ باعه في العدوان. وهي أريحية إسلامية عربية،
 وجهلها من جهلها، فسخر منها، كما يسخر كل جاهل
 بنقائض الوجود، ومكارم الأخلاق، حتى يقول قائلهم:
 (واضرب معي كفا بكف وأنت ترى مسلما يقوده إلى
 حتفه بيت شعر، وتنجيه من الموت طرفة أو دعابة

أو سرعة بديهة — ٦٩) .

ولما همّ أبو سفيان بن حرب بإثارة بنى هاشم على ولاية أبي بكر، وقال: أين الأذلان: عليّ والعباس، وتمثل:

ولا يقيم على ضيم يراد به
إلا الأذلان: غير الحى والوئد
هذا على الخسف مربوط برمته
وذا يشجّ فلا يكي له أحد .

قال له عليّ: يا أبا سفيان، ما أردت إلا الفتنة، وطالما عادت الإسلام وأهله، فلم تضره بذلك شيئاً. وما نال أبا سفيان من أبي بكر الخليفة أذى. ولو أراد لفعل، ولكنّ نضج الإيمان في قلوب المسلمين عامة، والخلفاء خاصة، والصديق على وجه أخص - كان يقيم في نفوسهم حداً فاصلاً بين الحق في ذاته والخلق العظيم، وبين المنافع والمصالح الشخصية، التي يسعى إليها كثير من الناس باسم الحق.

وكاتب السقوط يعلم علم اليقين ماذا كان مصير
كثير من الناس، في ظل حكومات يعتز هو بنظامها،
كانت جرائمهم (هزّ الرأس) لحديث لم ترض عنه هذه
الحكومات. وآخرين لم يُقبل منهم (الصمت) وترك
(التصفيق) وشق الخناجر (بالهتاف) ... فاستخرجت
ضمايرهم، واستدرجت سرائرهم، ثم صب عليهم سوط
العذاب؛ للضماير المكنونة، والأسرار الدفينة!!

فلينز المنصف ذلك بقول معاوية: لانحول بين الناس
وألستهم مالم يحولوا بيننا وبين سلطاننا.

عبارة، من أحد جانبيها، معبرة عن إقرار مبدأ النقد،
وإبداء الرأي، ولو كان نقد إمام المسلمين من غير
(رقابة) تأخذ بالكلمة، وتحاسب على (المصمصة).

عبارة جاء تقريرها العملي عندما كان الأحنف بن
قيس عند معاوية، وقام بعض (المتنفعين) بحمد لمعاوية
استخلاف يزيد؛ فالتفت معاوية إلى الأحنف وقال له:
ما تقول يا أبا بحر؟ فقال له: أخاف الله إن كذبت،

وأخافكم إن صدقت. فقال معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيرا.

هذا معاوية الذى قال عنه لعمر عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه. فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جشمناه ما حشمناه! وقال - وقد ذمه رجل فى مجلسه - : دعونا من ذم فتى من قريش، من يضحك عند الغضب، ولا يُنال ما عنده إلا على رضا، ولا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه (١).

لذلك لم يكن عجبا أن يستقر ملك معاوية على أحسن ما تكون قرارة الملك فى تاريخ الإسلام، ولا كان الناس فى زمان ملك من الملوك خيرا منهم فى زمان معاوية، حتى تجرى المفاضلة بين عهده وعهد عمر بن عبد العزيز؛ فعن أبى بكر الأثرم أن ناسا اجتمعوا عند الأعمش؛ فذكروا عمر بن عبد العزيز وعدله؛ فقال

١ - إبراهيم الأيبارى: معاوية ص ١١٩

الأعمش: فكيف لو أدركتم معاوية! قالوا: في حلمه؟
قال: لا والله، بل في عدله.

وعن البغوى عن أبى قيس: كان معاوية قد جعل في كل قبيل رجلاً. وكان رجل منا يكنى أبا يحيى، يصبح كل يوم فيدور على المجالس: هل ولد فيكم الليلة ولد؟ هل حدث الليلة حادث؟ هل نزل اليوم بكم نازل؟. قال: فيقولون نعم، نزل رجل من أهل اليمن بعياله، يسمونه وعياله. فإذا فرغ من القبيل كله، أتى الديوان فأوقع أسماءهم في الديوان.

وعن عطية بن قيس، قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان يخطبنا يقول: إن في بيت مالكم فضلاً بعد أعطياتكم، وإنى قاسمه بينكم؛ فإن كان يأتينا فضل عاماً قابلاً قسمناه عليكم، وإلا فلا عتبة على؛ فإنه ليس بمالى، وإنما هو مال الله الذى أفاء عليكم

أحسب أن صاحب السقوط سوف يجرى رضراضاً نحو كلمة: (مال الله) ليقول: انظروا هذا هو الحكم

الدينى فى تاريخ الاسلام!

والمعنى بين، لا يحتاج إلى إيضاح لمن ابتغى الحق
﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا
يزيد الظالمين إلا خساراً﴾.

وفضائل معاوية فى حسن السيرة، والعدل،
والاحسان، وإدراك واجب الولاية، (وتكليف) علاقتها
بالرعية - كثيرة مشهورة.

دخل عليه (أبو مسلم) فقال: السلام عليك أيها
الأجير! فقال القوم: قل: أيها الأمير. وكرر أبو مسلم،
وكرر القوم. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم؛ فإنه أعلم بما
يقول. فقال أبو مسلم: أنت أجير المسلمين، استأجروك
على رعاية مصالحهم.

وفى الصحيح أن رجلاً قال لابن عباس: هل لك فى
أمير المؤمنين معاوية... فقال: إنه فقيه.

وروى البغوى فى معجمه، أن أبا الدرداء قال:
مارأيت أحداً أشبه صلاةً بصلاة رسول الله ﷺ من

إمامكم هذا، يعنى معاوية .

فهذه شهادة الصحابة والتابعين ، والعلماء بسيرة معاوية فى ملكه ، ومانال المسلمين فيه من حقوق الرعاية الاجتماعية ، والقضائية . وشهادتهم بفقعه . وشهادة عمر له وعبد الرحمن بن عوف . شهادات جامعة لفضله ديناً ودنياً .

أما شهادة صاحب السقوط عن معاوية فإنه يقول
ص ١٧ : (عاشق للدنيا بلا شبهة أو مرأء) .

يأبىها الناس ، دعوا شهادة عمر ، وابن عوف ، وابن عباس ، وأبى الدرداء ، والأعمش ، دعوها ولو جاءتكم راجية أن تقبلوها بلسان أهل السماء ، باكية بدموع أهل الأرض ، متوسلة بجاه جميع الصالحين .. دعوها ولا تقبلوها ، واقبلوا وصدقوا شهادة صاحب السقوط أن معاوية كان عاشق دنيا بلا شبهة أو مرأء !!

ويحكم !

مالكم ؟

كيف تحكمون !!؟

ألا ماأصدقها، وأخبرها بالنفس، كلمة قالها الرسول
الحكيم ﷺ :

إذا لم تستح فاصنع ما شئت!

وعايشت حركة النقد مجتمع المسلمين على امتداد
تاريخهم .

وقصائد عبيد الله بن قيس الرقيات في نقد بنى أمية،
ومدح الزبيريين مشهورة معروفة . وقصائد الكميت في
مدح الهاشميين، ونقد الحكام الأمويين أشهر ذكرا،
وأندى صوتا .

ومازال الأمر على مثل ذلك على عهد العباسيين،
حتى فيما يمس معيشة الخلفاء وآراءهم، ومواقعهم من
الحكم والسياسة :

سأل سائل الامام مالكا عن حكم قتال البغاة . وهو
سؤال له . في التناحر السياسى، مغزاه ومرماه . فقال

الامام : إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم .
فقال السائل : فإن لم يكن كعمر ؟ فقال : دعهم ينتقم الله
من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما !!

مأحسب جراءة هذه الفتيا تخفى على فطين ، ولا
أحسب نظام حكم ديمقراطى يكون العالم فيه جرىء
المقدم مثل جرأة مالك هذه . والكتب التى ألقت فى
القانون والاقتصاد ، والميثاق فى عهدنا ، من غير علماء
الدين ، شاهد صدق (بلا شبهة أو مرأء) .

لكن اسمع ، بعث الرشيد إلى مالك ينهيه أن يحدث
بحديث السفرجل . فلما جاء مالكا النهى جلس لدرسه ،
وتلا قول الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ
اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ثم قال : والله لأخبرن بهذا فى
العرصة ، واندفع يقول : حدثنى نافع عن ابن عمر قال :
كنت عند رسول الله ﷺ ، فأهدى إليهِ سفرجل ،
فأعطى أصحابه واحدة واحدة ، وأعطى معاوية ثلاث
سفرجلات ، وقال له : القنى بهن فى الجنة .

ومن هنا ظهر . فى التفكير والعمل جميعا ، قوة تحمى النظام ، وتوقف الطغيان ، وهى أن علماء الدين هم ورثة الأنبياء فى حماية الشريعة ، وأينا مايرسخ هذه الفكرة ويوصلها ، مثل قول (مالك) : بلغنى أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء (١) .

فالعالم الحق قيس من نور النبوة ، يضئ ظلمات الحياة ، وإذا جار دليل الرأى هداه بكوكب من العلم يبدد الحيرة ، ويهذى السبيل . وهكذا فعل علماء الإسلام ، واستجاب لهم الحكام مااستقام لهم دين .

فى مجلس المهدي رفض الإمام مالك أن يشرب الماء فى كوز عروته من فضه ، فأمر المهدي بالعروة فنزعت .

وحث الرشيد فى يمين ، فأفتاه مالك بصيام ثلاثة أيام ، فقال الرشيد : أنا معدم ؟! فقال مالك : يأمر المؤمنين ، كل ما فى يدك ليس لك .

كان بشار جالسا فى دار المهدي والناس ينتظرون

١ — الشيخ أمين الخولى : مالك . تجارب حياة ص ١٩١

الإذن ، فقال بعض موالى المهدي لمن حضر : ما عندكم في قول الله عز وجل : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ ۖ ﴾ فقال له بشار : النحل التي يعرفها الناس . قال : هيهات يا أبا معاذ ، النحل : بنو هاشم ! وقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ يعنى : العلم . فقال له بشار : أراى الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بنى هاشم . فقد أوسعنا غثاثة . فغضب ، وشم بشارا . وبلغ المهدي الخبر ، فدعاهما ، فسألها عن القصة ، فحدثه بشارها ، فضحك حتى أمسك على بطنه ، ثم قال للرجل : أجل ! فجعل الله طعامك وشرابك . مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فإنك باردغث .

ولم تكن محنة الرأى التي أصابت الإمام أحمد ، في أحد وجوهها ، إلا دليلا على الاعتزاز بالرأى ، وقوة الاعتصام بالدين . كان له أثره في تراجع الحكام عن موقفهم ، ثم مزيد من الثقة العامة في الإمام ، فما زاد إقبال الناس عليه ، وكأثما كانت تلك السياط التي ضربها الإمام

(نياشين) أعلت قدره في أعين الناس، فذاعت كلمته، واستمسك بها من بعده.

إن هؤلاء القوم من الأئمة لا يرون الموت فناء، ولا يستقر في نفوسهم لكلمة: (الموت) معنى الهلاك. إنما يرون الموت الوجه الآخر للحياة. به تتم الحقيقة السامية، وينكشف عنها ما يحجبها، ومن ثم لا يفرغهم الموت، ولا يخوفون به.

وهم، أيضا، لا يرون فضائلهم فضائل يتمدحون بها، أو يُمدحون. وإنما يرونها (أمانات) ائتمنوا عليها؛ لتبقى بهم معانيها في هذه الدنيا. فهي عندهم ليست فضائل للتباهي. إنما هي أمانات للحساب!! ومن ثم لا يفرطون فيها برغب أو رهب!!.

كل أولئك، وعلى هذا الزمن الطويل دليل على الصفة العامة للمجتمع الإسلامي الذي أشرقت فيه هذه المثل. فلم يقتصر الأمر، إذن، (على نصيحة من عابد، أو حكمة تأتي على لسان زاهد. ص ٢٧).

ولو كانت العلة في النظام الإسلامي ، أو الديني على إطلاقه ، كما يرى صاحب السقوط ؛ للزم ، عقلا ، ألا توجد هذه المآثم ، التي ننكرها نحن أيضا إلا فيه ولكن التاريخ والواقع شاهد ببطلان ذلك الزعم . وليس صحيحا أن الحكم المدني ، على إطلاقه ، هو العاصم من مثلها . فقد شهدنا علماء من كل نوع يسامون كل أنواع العذاب ، التي تصغر إلى جانبها حوادث الفتن في تاريخ المسلمين ، ثم سكوت أمة بأكملها على ذلك لاختوفا (من رأس الذئب الطائر) بل من رأس الإنسان المهشم ، ودمه المهرق ، بل من الإنسان الموضوع (في الأحماض) ليزوب من فوره !

لن أقول : فلان ، وفلان ، ولا الشيخ محمد الأودن^(١) ، وقد نيف على السبعين . لن أذكر أسماء ، بل أكتفى ، غير ماسبق ذكره ، والإشارة إليه ، بالإشارة إلى كتاب الأستاذ فتحي رضوان : (٧٢ شهرا مع عبد

١ — أستاذنا . أستاذ الحديث بكلية أصول الدين . عرض عليه منصب مشيخة الأزهر إبان قيام ثورة سنة ١٩٥٢ فأبى ...

الناصر) ، والذي لخصه الأستاذ مصطفى أمين في (أخبار
اليوم) في يوم ٦/٧/١٩٨٥ م.

وكفى بها إشارة .

وما خفى أعظم .

فسل أهل الذكر؛ لعلك تدري غيب ما لم تكن

تدري .

قولوا ماشئتم ، وتزيدوا ماشئتم وماشاء أعداء الإسلام .

وتتبعوا السقطات ماشئات لكم عين السخط ..

فسوف تظل في قوصرة الثمرات حقيقة لن يستطيع أحد

مهما لج في المكابرة أن ينكرها . تلك : أن الإسلام نقل

البشرية نقلة حضارية لم تكن لتوجد في تاريخها لولا

الإسلام ، وأنها أثرت في أهل الأرض حتى لم يدخل منهم

حوزة الإسلام . وأنه في امتداد تاريخه كله ، مع مظالم

أهل السياسة ، ظل حلما بعيد المنال لمن عاشوا تحت غير

ظلاله ، وأنه كان أفقا ساميا للمعاني الإنسانية ، محققة في

واقع بشرى على تفاوت ، وأنها - مع ذلك - جذبت إليها

كثيرا من غير أهلها ، إذ كان - على سبيل المثال - كثير

من جنود الصليبيين ، ومن أمرائهم يفرون إلى معسكر المسلمين شغفا بما أدركوه من هذه القيم . ولم تكن فترات الحروب الصليبية إلا من فترات انحدار المسلمين ، وإلى الإسلام ، وتاريخه ، وحضارته يرجع الفضل في انتصار المسلمين فيها ، وفيما تلاها من حروب التتار . ولولا الإسلام لتغيرت معالم تاريخ هذه الأرض إلى ماأراد متطرفوا أوربا ، وهمج التتار .

فيا عجباً من الذين يجحدون ذلك ، ويحاسبون الإسلام على ما لم تصنع يداه حساب الملائكة ، ثم يجحدون أفعال الشياطين . وهم يزعمون أنهم لقومهم ربيثة المستقبل ، ورواد الآمال .

الا ماأقدرنا على هدم ما لا نريد ، وما أعجزنا عن تحقيق ما نريد !

إن الذين لا يقدرّون على التحرر من الأهواء ، والآراء الخاطئة التي تعتمد على الأوهام والخيالات ، والتداعيات الذهنية ، والانتقاء الشهوانى ... ليسوا إلا رعايا في مجتمع العبيد (الأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .

الإلزام بين المبدأ والشكل

جاءت الشريعة الإسلامية مقررة لمبدأ الشورى بأساليب متعددة على النحو الذى سلف تبيانہ . ولم يكن تقرير النظرية نتيجة لحال الجماعة ؛ فقد كان العرب فى أدنى دركات الجهل . . وإنما قررت الشريعة النظرية ؛ لأنها من مسيئزمات الشريعة الكاملة الدائمة المستعصية على التبديل والتعديل ؛ ولأن تقرير النظرية يؤدى بذاته إلى رفع مستوى الجماعة ، وحملهم على التفكير فى المسائل العامة والاهتمام بها ، والنظر إلى مستقبل الأمة نظرة جدية ، والاشتراك فى الحكم بطريق غير مباشر ،

والسيطرة على الحكم ومراقبتهم . فالنظرية ، إذن ،
مقررة لتكميل الشريعة ، ولتوجيه الجماعة ورفع
مستواها (١) .

• ومن مباحث الفقه السياسى مبحث (الالتزام) بتنفيذ
نتيجة المشاورة . بعد الاتفاق على الالتزام بالمبدأ . بمعنى
أنه هل يجب على الحاكم تنفيذ ما انتهى إليه رأى مجلس
الشورى ، أو أكثره ؟

لننظر فى الأدلة التى قررت المبدأ :

١ — جاء الأمر بالشورى والوحى ينزل . وكان
مقتضى زمان نزول الوحى الاكتفاء به عن تقرير مبدأ
الشورى . على نحو ما كان ينزل القرآن مفردا منجما ،
يقرؤه الرسول على الناس على مكث ؛ ليثبت الله به
فؤاده ، وليجيب بالحق على ما يوزدونه عليه من أسئلة ، أو
شبهه . وفى ذلك دلالة قوية على العناية بالمبدأ ، المقررة

١ — الأستاذ عبد القادر عوده : التشريع الجنائى الإسلامى ج ١ القسم

للعام من ٣٧ ط ١٩٤٩ م

للالتهزام به ، ولا قيمة للالتهزام بالمبدأ من غير الالهزام
بنليهله .

٢ — جعل الشورى صله من لوازم الإلهمان . والإلهمان
المعهء به شرعا ، اللى لالهلب عليه النلهة فى الآلهة ،
والفلاح فى اللىا هو الإلهمان اللى يلهر العمل الصالح ،
اللى يصءق ماوقر فى القلب . وهءا يلهلزم العمل
بنليهله الشورى ، وإلا كانل أمرا نظريا شكليا عليم
الشمر ! .

٣ — وجعلها صله لازمة ، لاعارضة ، للمؤمنين ،
وقرنها من صفالهم بإقام الصلاه والأنفاق ﴿ وأقاموا
الصلاه وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾
والصلاه مفروضة لآثارها النفسية والاجتماعية ﴿ إن
الصلاه لتهى عن الفلهشاء والمنكر ﴾ ﴿ إن الإنسان
خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الللر
منوعا . إلا المصلين ﴾ ، وما لم لوأ الصلاه هءه
اللمرات فليسل الصلاه ﴿ من لم لهه صلاله عن
الفلهشاء والمنكر فلا صلاه له ﴾ .

والإنفاق مقصود لأثره الاجتماعى فى التكافل، ومحو العوز، ولذلك يزداد بمقدار ازدياد الحاجة.

والأمر فى صفة الشورى كذلك، لابد أن تؤتى ثمراتها فى الاهتمام إلى الصواب، والأصوب، ومحو الاستبداد بالأمر. فإذا وقف الالتزام فيها عند حد استخراج الآراء دون التزام بالتنفيذ كانت كالصلاة التى لا تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولا تمنع هلعاً ولا جزعاً.. ومثل الإنفاق الذى لا يقضى الأرب، ولا يوفى الطلب!

٤ - والاستبداد من أنكر المنكرات، والالتزام برأى الجماعة من أعرف المعروف. وقد أمر الله أن تكون أمة المسلمين أمة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر. وأن تكون منها جماعة قائمة على هذه الوظيفة: وظيفة الدفاع الشرعى العام. وجعل ذلك فرض عين على الأمة، وأبنائها، وعدّد لهم وسائله.

وهذه الوظيفة الإسلامية سر من أسرار تماسك الأمة، والمحقة لمعنى (أمة) بمعنى زائد على معناها السياسى فى

عناصره المادية فى الأرض والشعب والحكومة، والمحقق
لمدلول (الدولة) ماديا.

والإسلام - مع إقراره لهذا الهيكل المادى، كما يصوره
الفقه الغربى فى عناصره الثلاثة - يحيط هذا الهيكل المادى
بإطار من معنوياته وروحانياته وأخلاقه، يتمثل فى أصول
عامة، بدونها يتسرب الفساد إلى كيان الأمة المادى (١).
وهذه الوظيفة، بسرّها وتحقيقها، هى التى تقوم
عوج الحكومة. والمعروف أن الحكومة الإسلامية مبنية
على أصل الشورى. وقول الله ﴿ولتكن منكم أمة
يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وأولئك هم المفلحون﴾ - أدل دليل على هذا الأصل.
ودلالة هذه الآية عليه أقوى من دلالة قوله ﴿وأمرهم
شورى بينهم﴾؛ لأن هذا وصف خبرى يدل على أن
هذا الشئ ممدوح فى نفسه، محمود عند الله. كما أنها
أقوى من دلالة قوله تعالى: ﴿وشاورهم فى الأمر﴾؛

١ - أستاذنا الدكتور محمد عبد الله العربى : محاضرات فى النظم الإسلامية

سنة ١٩٦٥

فإن أمر الرئيس بالمشاورة يقتضى وجوبه عليه، ولكن إذا لم يكن هناك ضامن يضمن امتثاله للأمر فماذا يكون إذا هو تركه؟ وأما هذه الآية فإنها تفرض أن يكون في الناس جماعة متحدون أقوياء يتولون الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو عام في الحكام والمحكومين. ولا معروف أعرف من العدل، ولا منكر أنكر من الظلم. وقد ورد في الحديث: (.. لتأمرن بالمعروف، ولتنهين عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضرين الله بقلوب بعضكم على بعض..)(^١).

٥ — قال الرسول لأبي بكر وعمر: لو أنكما تتفقان على أمر واحد ماعصيتكما في مشورة أبدا وهذا التزام عن الاتفاق. يدل عليه عملا القزامة برأى السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عباد في رفضهما رأيه في مصالحة غطفان يوم الأحزاب!

١ — الإمام الشيخ محمد عبده. تفسير المنار جـ ٤ ص ٩٧-٩٨

٦ - والتزم برأى أكثرهم يوم أحد على مارأى فى منامه - ورؤيا الأنبياء حق - مأوله بإصابة رجل من أهل بيته ، وقتل نفر من أصحابه ، وأن المدينة درع حصينة . ومع كل ذلك عمل برأى جمهورهم الذين رفضوا رأيه فى التحصن بالمدينة ، وكان أكثرهم من الشباب ، الذين فاتتهم بدر ، وأغراهم ما علموا من فضل أهلها - إقامة لقاعدة الشورى ، مع أنه كان يسير فى حروبه على قاعدة : (ارتكاب أخف الضررين ، وأبعد الأمرين عن العدوان) رحمة بالناس ، وإيثارا للسلام . لكنه ههنا لم يوازن بين ضرر الخروج من المدينة وبين البقاء فيها ، بل قايى بين البقاء فى المدينة مع مخالفة رأى أكثرهم ، وبين الخروج مع موافقته لرأى الأكثر ، فاختر ما فيه موافقتهم . وهو داخل فى قاعدة (أخف الضررين) ؛ لأن مخالفة الجمهور ، ولو إلى خير السلامة والتحصن هضم لحق الجماعة ، وإخلال بأمر الشورى التى أساسها الخير كله (١) .

١ - الإمام الشيخ محمد عبده . تفسير المنار ج ٤ ص ٩٧ = ٩٨ .

يتبين من هذه الأدلة أن الالتزام بتنفيذ نتيجة الشورى
التي تراها الجماعة، أو أكثرها واجب مثل الالتزام
بمبدئها.

ويزيد الأمر بياناً أن ننظر في أدلة القائلين بأن الواجب
إنما هو في المبدأ لافي التنفيذ، ونتعرف على وجه دلالاتها،
وعندئذ يتوضح الصواب، ويبين ماقد يكون بينهما من
اتفاق أو اختلاف:

١ — يرى صاحب كتاب: (مبادئ نظام الحكم في
الإسلام) (١). أن قوله تعالى ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ﴾ معناه: إذا عزمْتَ وأخذت بما عزمْتَ عليه فامض
فيه سواء كان موافقاً لما انتهت إليه الشورى! أم لا

ولست أدري وجه الدلالة في الأمر بالمضي على ما عزم
عليه متوكلاً على الله على ترك ما انتهت إليه الشورى!
وإذا كان من حقيقة التوكل الأخذ بالأسباب، وأنه

١ — هو الدكتور عبد الحميد متولى. راجع (بين الحاكم والرعية) رسالة
دكتوراه لم تطبع من جامعة الأزهر. د. نادية محمد عياد

لا يصح إلا مع القيام بها^(١)، ومن نفى الأسباب فتوكله
مدخول - فكيف يكون العزم على المضي في الأمر بعد
المشورة غير مستلزم للأخذ بنتيجتها؟

ويجب أن نلاحظ أن أمر الرسول بالشورى نزل بعد
أحد، وما كان فيها مما أصابهم نتيجة الأخذ بمشورة
جمهورهم. ومع ذلك أمره بالغفو عنهم والاستغفار لهم
وبمشاورتهم. وهو وجه من الإلزام جدّ غريب، جاء
مقوماً للطبيعة البشرية، التي تندفع في مثل هذا الموقف؛
لتلوم المشيرين، وتقول لهم: كان ذلك نتيجة
مشاورتكم، والأخذ بها، ومخالفة ما كنت أرى، الآن
تبين لكم صدق رأيي، وبعد نظري، وإحاطتي بما لم
تحيطوا به. جاء التوجيه الإلهي على غير هذه الطبيعة
البشرية، ومقوماً لها، أمراً للرسول بأن يغفو عنهم فيما
هو من حق الرسول نفسه، وأن يستغفر لهم فيما هو من
حق الله، وأن يلتزم - مع كل ذلك - بمشاورتهم! فكيف
يقال بعد كل هذه الأوامر القاطعة إن نتيجة الشورى غير

١ - مدارج السالكين ج ٢ ص ١١٦، ١١٨

ملزمة؟!

٢ — ويرى أستاذنا فضيلة الشيخ متولى الشعراوى فى كتاب نشرته له (دار ثابت) بعنوان: (الشورى والتشريع فى الإسلام) أن الشورى لاتلزم الحاكم الذى بايعته الأمة الإسلامية ببيعة إيمانيه؛ لأن الحاكم حين ينال ثقة الأمة الإسلامية على أساس دينى يكون متحملا للأمر بأكمله مسئولا عنه أمام الله وأمام الرعية^(١).

وأقول: إن البيعة بهذه الهيئة بمثابة توكيل صاحب الشئء وكيلا عنه، مع شرط رقابته فى التصرف فيما وكل فيه، ومسئوليته عن تصرفه أمام موكله. فضلا عن مسئوليته أمام الله. وهو - فى أصل الاختيار - مختار على أساس (قوته على الأمر، وأمانته عليه). وذلك يوجب عليه المشاورة من عدة وجوه: أمانته - قوته التى منها رأى غيره - مسئوليته أمام الرعية. ولهذا كان من حق الأمة - إذا خرج عن رأيها - أن تعزله. قال القرطبى:

١ - د. نادية محمد عياد. المرجع الأسبق

قال ابن عطية : والشورى من قواعد الشريعة ، وعزائم الأحكام ، من لا يستشر أهل العلم والدين فعزله واجب .
أترى هذا العزل الواجب لمجرد أنه لم يسمع الرأى ؟ أم لغدم تنفيذه ؟

٣ - ومن حجج القائلين بعدم التزام الحاكم بنتيجة الشورى أن الرسول أمضى معاهدة الحديبية مع معارضة الصحابة جميعا غير أبى بكر .

وهذا دليل على غير موضع الاستدلال ؛ لأن مخالفة الرسول هنا - إن صح تسمية موقفه مخالفة - إنما كانت اتباعا للوحي ، لإعراضا عن رأى الجماعة . فلم يكن الموقف خيرة بين رأى للرسول ورأى للجماعة ، بل كان اتباعا لأمر الله ، الذى أنزل فيه بعد سورة كاملة هى سورة الفتح . فلم تكن ههنا مشورة خالف الرسول نتيجتها ، بل كان اعتراض لم يأخذ به الرسول امتثالا للوحي ، الذى دلّ أبى بكر عليه ، وفطنه إليه ، بما لم يدركه غير ما كان من ناقة النبی ﷺ من احجام عن دخول المدينة ، وبروكها وعدم استجابتها لمن

استنهبوها، حتى قالوا: خلأت القصواء، خلأت
القصواء. فقال ﷺ: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها
بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل. والذي نفسى بيده
لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم
إياها (١).

ولأن أمر الحديدية كان كذلك كان كله خيرا وبركة
على الإسلام والمسلمين، كما استحق اسمهم: الفتح المبين!
٤ — ومن أقوى حججهم استمساك الصديق بقتال
المرتدين، وقتال مانعى الزكاة.

وفى الحق أن هذا الموقف من روائع التجديد الذى
أحدثه الإسلام فى البشرية فكرا وسلوكا. ففى الوقت
الذى كانت الشعوب لا تملك من أمرها نقيرا ولا قطميرا
أحدث الإسلام هذا المنهج الفكرى فى أسس التحاور:
يبدى عمر شبته فى رفض رأى الحاكم مستندا إلى ظاهر
نص صحيح من دستور المسلمين: حديث الرسول.

١ — د. نادية محمد عياد. المرجع السابق

فبرد عليه الصديق كاشفا له من المصدر الدستوري
ماخفى عليه من نصه، ومن دلالاته! وتتفاعل العقول،
وتتصارع الفهوم، ثم ينتهى الأمر إلى وجهة واحدة، اتفق
عليها المتحاورون، رأيا وتنفيذا فأى دليل على الشورى
مبدأ وتنفيذا أدل من ذلك؟!!

وأى سمو بالناس، منذ ذلك الزمان، إلى نظام للحكم
جديد على عالمهم، فوق ذلك السمو؟!!

٥ — والأمر كذلك في خلاف عمر مع من خالفه
في سواد العراق.

لادلالة، إذن، في ذلك على عدم الالتزام بنتيجة
الشورى. إنما كان رجوعا بالتنازع إلى دستور الجماعة:
الكتاب والسنة، واجتهاداً من المتحاورين للتعرف على
حكمه في واقعة بعينها، فلما تبين الاجتهاد الصحيح التزم
به جميعهم مؤيدين ومعارضين. وكلهم كان في رتبة
الاجتهاد العام، ولم يمنع المخالفين مخالفتهم، ولا اجتهادهم
من الالتزام بنتيجة الشورى بعد أن صارت رأى الغالبية.

وهذه السنة المباركة التى تكمل مبدأ الشورى العام
تعتبر فى وقتنا الحاضر العلاج الناجع لفشل الديمقراطية .
فمن المسلم به أن البلاد الديمقراطية فشلت فشلا ذريعا
فى تطبيق مبدأ الشورى . والسبب الأساسى فى هذا
الفشل أنهم يسمحون للأقلية أن تناقش رأى الذى أقرته
الأغلبية بعد انتهاء دور المناقشة ، وأن تشكك فى قيمته
وصلاحيته أثناء تنفيذه ، بل إنه يظل موضع الانتقاد
والسخرية ، حتى بعد تمام تنفيذه . ولما كانت القاعدة أن
فريق الأغلبية هو الذى يتولى الحكم فإن آراء هذا الفريق
وأعماله لاتقابل بما يجب لها من الاحترام ، بل تكون دائما
محل تشكيك وسخرية (١) .

يظهر من ذلك أن القائلين بعدم التزام (الإمام) بتنفيذ
رأى أهل الشورى نظروا إلى عدم (الالتزام) من منظور
تاريخى وفقهى كان فيه « الخليفة » على رتبة الاجتهاد ،
الذى جعله علماء الفقه الدستورى الإسلامى أحد
شروط تولي منصب الخلافة .

١ — الأستاذ عبد القادر عودة : التشريع الجنائى الإسلامى ج ١ ص ٣٩

وتطبيق ذلك اليوم تطبيق لحكم تاريخي على واقع
معاصر مع الفارق؛ إذ ليس حاكم اليوم في هذه الرتبة من
الاجتهاد. وهذا مرفوض بمنطق (أصول الفقه) التي
تجرى العلل في القياس.

على أن القائلين بعدم الالتزام لا يقصدون أن للحاكم أن
يستبد، وأن يظلم، وأن يرى الحق فلا يعمل به، وأن
يفعل ما يشاء.. وأن على الأمة أن تسمع وتطيع لحاكم هذه
حاله... إذ لو كان الحاكم كذلك لدخلت تصرفاته هذه
في دائرة المنكر الذي تجب على الأمة مقاومته، كما يجب
عليها التعاون على هذه المقاومة؛ لأنه إثم وعدوان، ولا
مشاحة في وجوب هذا التعاون.

وبذلك لا يكون - اليوم - خلاف حقيقي بين العلماء
في وجوب التزام الحاكم بالشورى مبدأ وتنفيذاً.

وعلى هذا الأساس كانت فتاوى العلماء بمقاومة
الظالمين، وكانت فتاوى مالك وأبي حنيفة، فكان مالك
يرى أن البيعة لا تتم بالإكراه؛ إذ ليس على مستكره يمين،

وكانت هذه الفتوى سبب الاعتداء عليه . وأبو حنيفة أيد
الخارجين على الخليفة، وقال عن خروج (إبراهيم بن
الحسن) على المنصور: ضاهى خروجه خروج المسلمين
يوم بدر . والشافعي يرى أن الإمام ينزل بفسقه . ولا
فسق فوق الظلم .

ولكن لئلا نلجأ إلى المراء للذين يرون حقائق التاريخ
الإسلامي، فلا يقصدونها، ويدورون حول رعاها،
ويحملونها . فلا تحملونها .

وليرتقوا في الأسباب، الساخرون من عظمة الاجتهاد
وليسروا النجوى، الذين ظلموا، الذين يتناجون
بالإثم والعدوان

وليقلوا: إن خلاف العلماء اليوم في الالتزام برأى
الجماعة خلاف حقيقي، لالفظي .
ليكن .

أليست نصوصنا الوضعية، في نظم حكوماتنا المدنية،
يختلف في تفسيرها؟

«هل النص الدستوري خطاب للمشرع وحده؟ أو للمشرع والقاضي؟... من العسير وضع قاعدة دستورية عامة للإجابة عن هذا السؤال... وإذا كان صحيحاً أن نصوص الدستور تحتل مكان القمة في البناء القانوني، وأنها ملزمة لسلطات الحكم جميعاً، إلا أن منها ما هو نافذ بذاته في حق السلطات، جميعاً، ومنها ما يحتاج نفاذه، والالتزام به إلى تدخل واحدة من هذه السلطات، تفصل ما أجمل النص، وتجعل الالتزام به ممكناً في حق سائرهما...» د. كمال أبو المجد - أهram الثلاثاء ١٩٨٥/٧/٢ م

فليس الاختلاف إذن لازماً للنص الديني وحده.
وليس الاتفاق إذن لازماً لغيره

أولست نظمنا المدنية، التي يراها صاحب السقوط عاصماً من مآل الجحيم الذي ينتهي إليه الحكم الديني - أولست هذه النظم تعطى للحاكم - حق السيادة - سلطة إصدار قوانين، في بعض الحالات من غير الرجوع إلى الهيئة التشريعية؟ فلماذا؟

فهل نهدم هذا النظام كله هذه ؟
أم المقصود هدم النظام الإسلامى وحده ؟

لقد صدر قانون الأحوال الشخصية الملغى ، فى ظل هذه النظم المدنية ، بهذه الصفة التى من أجلها ألغته المحكمة الدستورية العليا ، والتى عبّر عنها الأستاذ صلاح منتصر فى أهرام ١٩٨٥/٧/٢ م بقوله : (كان من عيوب قانون الأحوال الشخصية الذى ألغته المحكمة الدستورية العليا الشكل الدكتاتورى غير الديمقراطى ، الذى صدر به ... ورغم أن البعض كان قد استفاد من بعض قواعد هذا القانون ، إلا أن الملايين أحست براحة نفسية من إلغائه ؛ لأنه صدر بطريقة غير ديمقراطية .. اهـ .

- الحاكم ، إذن ، أصدر قانونا بشكل دكتاتورى .

- الملايين فرحت بإلغائه

- كان هناك من يؤيد هذا القانون

وهؤلاء وهؤلاء لم يكونوا من علماء الدين
والحكم الذى صدر فيه هذا القانون حكم مدنى
فأى التزام بتنفيذ الشورى ههنا ؟

• وهل هناك مجال إذن لقول صاحب السقوط : « من المنطقي مادامت الدولة دينية والقرارات دينية ، أن تعرض القرارات على أهل الحل والعقد .. وما يصدر عنهم ليس أكثر من شورى ، والشورى في رأى بعض الفقهاء - بل قل أغلبهم - غير ملزمة .. وهو - الحاكم - إن اتفق مع أهل الحل والعقد فله أن يأخذ برأى القائلين بأنها ملزمة ، وإن اختلف أخذ بقول القائلين بأنها غير ملزمة ، وكل من الفريقين له أسانيده .. ١٥

لا مجال إطلاقاً ، عند صفاء النية لمثل هذا التردد بعدما يثبت من ضرورة الالتزام الإسلامى وبعد بيان واقع الحكم المدنى . أفنسكت عن محاسن الحكم الإسلامى ونلتمس له المعايير ؟ فإذا ذكرت معايير التنفيذ فى الحكم المدنى ما بهتشنا إليه بقصبة ؟!

فإذا كنا لانهدم هذا النظام المدنى ، مع وقوع ماوقع ، فلماذا نُحل له ما نحرم على غيره ، أو على الأقل لماذا لا يرتفع صوت النعى به ، كما نرفعه بنعيان غيره .

وإذا قيل إن ههنا محكمة عليا تقضى على بعض الصور
غير الديمقراطية، قلنا: ولا مانع من مثلها في النظام
الإسلامي، كما أنه لا مانع، من قبلها - من هيئة تشريعية
من أهل الذكر تصنف قوانين الإسلام الأساسية،
وقوانينه التشريعية ...

* * *

آفة الفهم السقيم

يقول الأستاذ سيد زهرة في جريدة الأهالي
١٩٨٥/٥/١م في تأييده لاتجاهات د. فرج: وكان
بوسع د. فوده أن يضيف إلى هذا (عدم الاتفاق على
الشورى) أن الشورى مصدرها الحاكم بحكم النص
(وشاورهم فى الأمر) وليس مصدرها الشعب، ولا
حتى أهل الحل والعقد.

يا حسرة على العقول !!

أى فهم هذا

تعالوا، إذن، نلغى الحق، والعدل، والصدق،
والأمانة.. وكل القيم، وكل مبادئ الأديان؛ لأن
مصدرها النص، وليس مصدرها الشعب.

«وتلك شنشنة نعرفها من أخزم» الشعب . الأرض .
المادة .. البيورجوازية .. وأين نص (وأمرهم شورى
بينهم) صفة خيرية للمؤمنين؟
ثم ما المصدر؟ ومن هو؟
أهو الحاكم المأمور؟ أم الله الأمر؟
إذا أصدر رئيس الجمهورية - بحكم السيادة - أمرا
إلى من دونه، لمصلحة الدولة، أيكون من دونه، وهو
المأمور، هو مصدر الأمر؟ أم يكون مصدره رئيس
الجمهورية؟

أم وراء هذا أن القرآن ليس بوحى؟
أم أن الكاتب يقصد بقوله (مصدرها الحاكم) أنه هو
الذى يقوم بها؟ .

ليكن، فهو يقوم بها فرضا مفروضا، والأمة هى
المستشارة. وهذا حقها، (حقها الإلهى) الذى له من
قوة التقبل والالزام مالا يرقى رقيه أى حق آخر، مهما
كان مصدره. وعليها أن تستمسك به، ولا تفرط فيه؛
فإن فرطت فهى مؤاخذة عند الله والناس .

إن قوله ﴿وَأمرهم شورى بينهم﴾ صفة تالية لصفة الاستجابة الإيمانية ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم...﴾ رفع لقيمة الشورى ومزيد اهتمام بشأنها، وتنبيه على مكانها من الإيمان، وأن مجالها ممتد إليه، فكانت استجابتهم الإيمانية عن رؤية وبصيرة ومشاورة. وهذا هو ثبت التاريخ يشهد بأن الأنصار حين سمعوا بالنبي ﷺ تشاوروا بعد ورود النقباء إليهم، واجتمع رأيهم، في دار أبي أيوب، على الإيمان بمحمد، والنصرة له، فامتدحهم الله بها، وأخبر بأنها صفتهم الدائمة (١).

فهل هناك في الدنيا إلزام بالشورى يدانى ذلك؟
 وهل هناك من (الصفات السياسية) ما يصير (طبيعة)
 لأهلها، كطبيعة الشورى عند المؤمنين؟

فإذا استحضرنا بما كانت عليه الدنيا كلها عند نزول

١- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين. المعروف بخاشية الجمل

هذه السياسة الإسلامية ففي أي سبائك توضع سياسة
الإسلام؟

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم

الشكل

الإسلام دين عام خالد

ومن أجل هذه الصفة اللازمة كانت فيه (الثوابت) الباقية، والتعاليم (الكلية) وكان فيه (المتغيرات) - له (مبادئ السياسة) التي يختلف شكلها، ويثبت جوهرها.

والشورى من ثوابت السياسة الإسلامية، ومبادئها التي لا فكاك منها، وهى كذلك من صفات المسلمين، وأخلاقهم التي طبعهم بها الإشراف الإسلامى، والتوجيه القرآنى.

وهى من لوازم قيام الأمة المسلمة، التي تقوم

حكومتها على سياسة الإسلام .
أما (كيف) تقام الشورى ؟
بأى (شكل) تكون ؟

فهذا ماتركه الإسلام للمسلمين ، يتدعون منه
ما يحقق المبدأ ، ويناسب الحال .

أوجب الله الشورى على المسلمين ، ولم يبين كيفيتها ؛
لأن تفصيل النظم الشورية ، والطرق التى تكون بها لما
يختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية ، فمن العدل أن
تقرر الشورى ، وأن يترك لكل أمة أن تضع نظمها
التفصيلية بما يلائم حالها ويتوافق ومصلحتها (١) .

على أن عصر الراشدين قد سجل التطبيق الأول
لتعاليم الإسلام الكلية فى بناء الدولة الإسلامية ؛ فقد
تمسكوا تمسكا متينا بتعاليم الإسلام الكلية فى فصولها
الثلاث : الخلقية ، والاقتصادية ، والحكومية ، فلم يعزلوا
إحداها عن الأخرى ، ولم يترددوا فى أن يعرضوا من

١ - غصيف عبد الفتاح حمادة : روح الدين الإسلامى . ط سابعة

التعاليم الحكومية مايلائم احتياجات عصرهم، ومستوى البيئة التى كان يعيش فيها المجتمع الاسلامى يومئذ... قيدوا الخليفة، فى تصريف شئون الدولة بالشورى وهى مايقابل (البرلمان الحديث)، ولمن يذهبوا وراء ذلك فى تفصيل أوضاع الشورى وإجراءاتها؛ ذلك لأن التعاليم الكلية فى فصائلها الثلاث تغنيهم عن هذه التفاصيل؛ إذ كانت تفى كل الوفاء بحاجات زمانهم فى ظل مساهمة مجتمعهم من صدق العبودية لله وحده، ومن التزام المساواة بين أفراد المجتمع، مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم، وتباينت دياناتهم وأقدارهم. ومن تعاون وتكافل بين الطبقات جعلها بمثابة طبقة واحدة. ومن عدل مطلق لا قيد عليه. ومن حرية فى القول، والرأى، والنقد، نقد الحكام فى سبيل المصلحة العامة، إلى حد تبرير المتأومة النائرة.

هذه التعاليم الكلية التى أتى بها الإسلام فى فصائلها الثلاث، ونزل بها الوحي هدى ورحمة للبشر كافة - كان لعمومها حكمة مقصودة، هى أن التعميم الذى لا ينزل

إلى التفصيلات الجزئية لا يقيد الأجيال المقبلة بهذه التفصيلات والتطبيقات، بل يتركها حرة تقتبس الوضع الذى تتوافر فيه الملاءمة العملية لحاجات كل زمان ومكان، مادامت تسود التعاليم الكلية بوجه عام ينبثق من توجهاتها. وهذه هى المرونة اللازمة للمبادئ التى يراد لها الخلود؛ لتكون ملائمة لتطور احتياجات البشر^(١).

وبهذا وذلك اشتمل الإسلام على العنصرين الضروريين لسعادة البشر: عنصر الاستمرار الذى يربط حاضر البشرية بماضىها. وعنصر الانشاء والتجديد الذى يُعدّ الحاضر للتطور والرقى، اتجاهاً إلى مستقبل أفضل وأكمل.

وليس خطأ القائلين بقطع صلة الحاضر بالماضى بأقل من خطأ القائلين بقطع الماضى عن الحاضر، كما يفهم من تصرفات كثير من (دعاة ردّ الفعل) ومن كتابات كثير

١ — أستاذنا الدكتور محمد عبد الله العرنى: محاضرات فى النظم الإسلامية

من المناهضين للفكرة الإسلامية، أو (دعاة الأسلوب
الغربي الكامل) (١) ..



٢ — راجع د. زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر مقال
الحضارة وقضية التقدم. وكتابه خرافة الميتافيزيقا. وراجع مقدمه
الإشارات لآبى سينا تحقيق أستاذنا د. سليمان دنيا ص ١٥ ٢٧

الإسلام والدولة

المبدأ :

لا يمتري منصف يتغى وجه الحق فى أن الإسلام بما حوى من نظم تتعلق بصلات المسلمين بغيرهم، وبمن جاورهم، تنظم العلاقات الخارجية. ونظم تتعلق بسياسة المال تخصيصا، وإنفاقا، وتوزيعا، وما يتصل بذلك من حقوق وواجبات. وما فى الإسلام من نظم تتعلق بالقانون الجنائى. ونظم تتعلق بالمعاملات المادية بين الناس كالبيع، والإجارة، والرهن، والمضاربة، والدين. وما فى الإسلام من نظم تتعلق بالعلاقات المعنوية والأدبية والاجتماعية. وما فيه من مبادئ الحكم، وواجبات الحاكم وحقوقه، وعلاقته بالمحكوم... - لا يمتري منصف ينشد الحق، يعلم هذه الحقائق فى أن الإسلام: دين ودنيا، وأنه دين

ودولة، وأن هذه خاصته التي لوفصلناها لا يكون هو الاسلام في حقيقته كما أراده منزله، وكما تحقق هو في وقائع تاريخه. وأن هذه القرينة من أخص ما يميز الاسلام عن سواه.

وأدلة هذه القضية من حيث النظر، ومن حيث الواقع فوق كل جحود، إلا جحود من ينكر ضوء الشمس من رمد، وطعم الماء من سقم. وما كان لدين حوى كل هذه النظم إلا أن يكون دولة، مع كونه عقيدة.

- لقد أخذ الرسول يعد (شعب) هذه الدولة منذ فجر الاسلام. فلما تم له ذلك أخذ يهيئ (الأرض) التي تجمع هذا الشعب الذي آمن بهذا الدين، وتمكنه من أن يقوم بشعائر دينه ونظامه، وتحقيق سلطانه؛ ولذلك تمت الطعجة الدائمة إلى المدينة. وحرّم على من آمن به المقام في أرض مسنعة، ودار مذلة تمنع حرية الاعتقاد، وتشعل الفتنة، وتقول بين المسلم وإقامة سلطان دينه...

وقور وصول الرسول إلى المدينة أخذ يبنى (مقر الدولة) : فأقام المسجد .

- وكانت المسألة الأولى ، التي شغلت المسلمين ، إثر موت الرسول ، وقبل دفنه ، هي : اختيار الحاكم . وقال أبو بكر : لا بد لهذا الأمر من يقوم به ؛ فانظروا وهاتوا آراءكم^(١) . فكان نظرهم ، وتحاورهم حول من يتولى الدولة ، لاعلى الدولة وقيامها وأسسها ومبادئها .

- وكانت المسألة الثانية بعد موت الرسول ، والأولى بعد تولى الصديق هي (جيش الدولة) وهل يمضى إلى وجهته لحماية (حدود الدولة) أو يتمهل الصديق في إنفاذه .

فأى معنى للدولة إذا لم يكن هذا هو معناها ؟!

الخصائص :

- بعد أن استقر المقام للمسلمين بالمدينة ، واجتمع « المهاجرون والأنصار » في « أرض » آمنة ، والتفوا

١ - سعد الدين التفتازانى : شرح المقاصد ج ٢ ص ٢٠٠ . وهو أكبر كتب علم الكلام

حول نبينهم، (وقائدهم وزعيمهم) - عقد الرسول
(معاهدة) مع اليهود، كان من بنودها: كفالة حرية
الاعتقاد، والتعاون على حماية المدينة.

- ولزيادة الترابط بين أفراد هذه الدولة الناشئة آخى
الرسول بين المهاجرين والأنصار على (المواساة والحق).
وكان صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين بعضهم وبعض قبل
الهجرة على (المواساة والحق) أيضا، مؤاخاة كاشفة عن
«بدأ من مبادئ دولة الاسلام في وقته الباكر؛ إذ آخى
بين أشراف وسوقة: آخى بين حمزة وزيد بن حارثة
مولى الرسول، وبين الزبير وعبد الله بن مسعود، وبين
عبيد بن الحارث وبلال، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي
حذيفة (١)».

- ولتوكيد هذا الإخاء، وتلك المعاهدة كتب
الرسول - في ابتكار حضارى دولى - كتب كتابا
يتضمن تفصيل هذا التآخى وذاك التعاهد. قال ابن
١ - أبو عمر بن عبد البر: الدرر في اختصار المغازى والسير. تحقيق
د. شوقي ضيف

اسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم.

ومن الرد الجميل على منكرى دولة الإسلام، وعلى الظالمى أنفسهم بزعم أنها دولة ظلم وقهر... أنقل فقراتٍ من كتاب النبى هذا، لعلها تكون فاقرة لكل شبهة: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس... كل طائفة تفدى عانيها (=أسيرها) بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا (=المثقل بالدين، والكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف... وإن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم، أو ابتغى دَسِيعَةَ ظلم (=دفعاً على سبيل الظلم) أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.. وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض

دون الناس . وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر
والأسوة غير مظلومين ، ولا متناصرين عليهم .. وإنه
لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ... وإنه لا يحمل
للمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر
أن ينصر محدثا ، ولا يؤويه .. وإنكم مهما اختلفتم فيه من
شيء فإن مردّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد ﷺ . وإن
اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يهود بنى
عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ..
وإن لليهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف .. وإن لليهود
بنى الحارث مثل ماليهود بنى عوف وإن لليهود بنى
ساعدة مثل ماليهود بنى عوف .. إلا من ظلم وأثم .. وإن
على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم
النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم
النصح والنصيحة والبر دون الإثم ... وإنه ما كان بين أهل
هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن
مردّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ ...
وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح

يصالحوونه ويلبسونه؛ فإنهم يصالحوونه ويلبسونه... (١).

أقول: لاتعليق. وهل يخفى القمر؟!

- ولذلك اتفقت كلمة علماء المسلمين على وجوب نصب الإمام (حاكم الدولة العام):

قال الإمام الغزالي في كتابه: (الاقتصاد في الاعتقاد): نقيم البرهان القطعي الشرعي على وجوب نصب الإمام، ولسنا نكتفي بما فيه من إجماع الأمة، بل ننبه على مستند الإجماع، ونقول: نظام أمر الدين مقصود لصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام قطعاً.. ولا يحصل نظام الدين إلا بإمام مطاع إذن.. وجب نصب الإمام.. ولهذا قيل: الدين أس والسلطان حارس، ومالا أس له فمهدود، ومالا حارس له فضائع... فكان وجوب الإمام من ضروريات الشرع الذي لاسبيل إلى تركه...

١ - السيرة النبوية لابن هشام، القسم الأول ص ٥٠١-٥٠٤ تحقيق مصطفى السقا وآخرين

وقال الإمام ابن تيمية في رسالته: (السياسة الشرعية): يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للمدين إلا بها.. قال ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» وقال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم» فأوجب عليه السلام تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر؛ تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع... وإن انفرد السلطان عن الدين، أو الدين عن السلطان فسدت أحوال الناس.

وقال ابن خلدون في المقدمة.. وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها، ولم يتم استيلائها.. فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية. وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية، نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة... والخلافة هي: حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية... فهي في الحقيقة خلافة عن

صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا ... ثم إن
نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع
الصحابة والتابعين ...

وفى في نيل الأوطار بعد ذكر أحاديث التأمير في
السفر: وفيها دليل على أنه يشرع لكل عدد ثلاثة
فصاعدا أن يؤمروا عليهم أحدهم؛ لأن في ذلك السلامة
من الخلاف، الذي يؤدي إلى الإتلاف.. وإذا شرع هذا
لثلاثة يكونون في فلاة من الأرض، أو يسافرون
فشرعيته لعدد أكثر يسكنون القرى والأمصار،
ويحتاجون لدفع الظالم، وفصل الخصام أولى
وأخرى (١).

١ - نيل الأوطار شرح متقى الأخبار ج ٨ ص ٢٥٦

أسس الحكومة الإسلامية

بالرجوع إلى بحث الشورى، الذى سبق، تتبين الأسس التى تقوم عليها حكومة المسلمين، ويتبين منها - بالنصوص والوقائع - أنها على أرقى ما وصلت إليه البشرية بعد دهور دهاير، وتجارب ابيضّت لها لم الدنيا.

والآن أعود لتفصيل هذه الأسس فى بنود تبين بأدلتها حقيقة هذه الدولة، وتقنع من يستشرف إلى الحق والحقيقة:

١ - إقرار القرآن لفكرة الدولة والسلطان :

أ - ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره﴾

ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴿سورة

الحديد: ٢٥

بين فيها دستور الأمة ﴿وأنزلنا معهم الكتاب
والميزان﴾

وغايتها ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾

بوسيلة حفظها ﴿وأنزلنا الحديد...﴾

فدولة الإسلام: حق وعدل: ومصحف وسيف.
لامراء، وإن كره الجاحدون، أو غالطوا ففسروا
السيف: بالشغب والفتن والاضطهاد...

ب — ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا
الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين
من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم،
وليدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي
شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾

سورة النور: ٥٥

وعندهم على الإيمان والعمل الصالح :

- قيام الدولة المكيّة، التي تراث ملك السابقين .
- وأن يكونوا ولاة الناس
- وعلو دينهم وظهوره على الدين كله .
- وإذهاب خوفهم، واستبدال الأمن به .
- وقد فعل .

٢ — رئيس الدولة :

وهناك آيات تضمنت خطاب النبي بممارسة شئون متنوعة : قضائية، وحربية، وإدارية، وإجرائية، مما يدخل في نطاق مهام الدولة، منها :

- أ — ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم، واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزم فتوكل على الله...﴾ سورة آل عمران: ١٥٩
- ب — ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين

الناس بما أراك الله .. ﴿ سورة النساء : ١٠٥ ﴾

ج — ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء .. إن الله لا يحب الخائنين ﴾ سورة الأنفال : ٥٨

د — ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله .. ﴾ سورة الأنفال : ٦١

هـ — ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض .. ﴾ سورة الأنفال : ٦٧

و — ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلفه مأمنه ؛ ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ سورة التوبة : ٦

٣ — آيات تقر النبى على ممارسة شئون الدولة :

أ — فهو المرجع فى شئون الحرب ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال ﴾ سورة آل عمران : ١٢١ هـ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم .. ﴿ سورة آل عمران : ١٥٣ ﴾ عفا

الله عنك لم أذنت لهم ﴿ التوبة: ٤٣ .

ب — وهو المرجع في شئون الأموال العامة:
﴿ومنها من يلمزك في الصدقات﴾... ﴿ولو أنهم
رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ سورة التوبة: ٥٨-٥٩
﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى قلله﴾ الرسول
ولذى القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل... ﴿
سورة الحشر: ٧ وبذلك يكون القرآن جميع للرسول
صفتي النبوة ورياسة الدولة .

٤ — تقييد سلطة الحاكم :

جاءت الشريعة الإسلامية، من يوم نزولها، بنظرية
تقييد سلطة الحاكم، فكانت أول شريعة قيدت سلطة
الحكام، وحرمتهم حرية التصرف، وألزمهم أن يحكموا
في حدود معينة، ليس لهم أن يتجاوزوها. وجعلتهم
مسؤولين عن عدوانهم وأخطائهم.

وتقوم النظرية على ثلاثة مبادئ أساسية: أولها:
وضع حدود لسلطة الحاكم. ثانيها: مسؤولية الحاكم عن

عدوانه وأخطائه. ثالثها: تخويل الأمة حق عزل الحاكم^(١).

المبدأ الأول :

كان سلطان الحاكم قبل الإسلام على ماسبق به البيان مطلقا من غير قيد، إلى حد رفعه، أحيانا عند كثير من الأمم، إلى درجة الألوهية. يأتى، فى سلطانه مايشاء ويدع مايشاء دون حسيب.

وجاءت شريعة الإسلام فاستبدلت بهذه الأوضاع أوضاعا جديدة تتفق والكرامة الإنسانية، والحاجات الاجتماعية، فجعلت أساس العلاقة بين الحكام والمحكومين تحقيق مصلحة الجماعة، لاقوة الحاكم، ولا ضعف المحكومين، فى حدود ماأنزل الله على رسوله. وهو فيها فرد من الأمة، اختير لقيادتها، وعليه للأمة القيام بهذه الشريعة، وله على الأمة حقوق.. وهو فى أداء واجباته، واستيفاء حقوقه مقيد بالشريعة، وذلك لقوله تعالى :

١ — عبد القادر عودة : التشريع الجنائى — مرجع سابق

﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ سورة المائدة: ٤٩ .
وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا
تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الجاثية: ١٨
المبدأ الثاني :

﴿يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ
تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ سورة المائدة: ٦٧ ﴿قُلْ
إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ۖ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ﴾ سورة الأنعام: ١٤-١٥

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ
مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة يونس: ٩٥ .

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ،
فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ سورة يونس: ١٠٦
﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِنَ تَابِ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سورة هود: ١١٢

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾
الأحزاب : ١

﴿ وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ الأحزاب : ٣٧

﴿ .. لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من
الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾

الزمر : ٦٥ — ٦٦

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ

مِنْ ذُنُوبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. ﴾ الفتح : ١ — ٢

وكان ﷺ يقول مرات : « إنما أنا بشر مثلكم »

وخرج في مرض موته يستبرئ الناس في ما لهم وأعراضهم
وأبشارهم .

أهذا الدين يرمى بالكهانة ، ويقال : إن الحكم به يرد
الناس إلى الحكم بالحق الإلهي ؟!

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا
كذبا ﴾

المبدأ الثالث : تخويل الأمة حق عزل الحكام :
التكليف القانوني لمبايعة المسلمين إمامهم : أنها عقد
كسائر العقود : الطرف الأول : الأمة ، وهي ملتزمة
بالسمع والطاعة . الطرف الثاني : الحاكم ، وهو ملتزم
بامتثال الشريعة .

وقد بحث الأستاذ الدكتور « السهوري » طبيعة عقد
الإمامة فقال : إنه عقد طبيعي^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : لو قدر أن عمر وطائفة
معه بايعوا أبا بكر وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يصر
إماما بذلك ، وإنما صار إماما بمبايعة جمهور الصحابة ،
الذين هم أهل القدرة والشوكة . وكذلك عمر لما عهد إليه
أبو بكر إنما صار إماما لما بايعوه وأطاعوه ، وإن قدر أنهم لم
ينفذوا عهد أبي بكر ، ولم يبايعوه لم يصر إماما ...
ومطاعة ذوى الشوكة تم للبيعة القدرة والسلطان .

فالدین الحق لا بد فیہ من الكتاب الہادی، والسیف
الناصر^(١).

وینبئنی علی هذا التکیف القانونی أن الحاکم الذی
یقوم بمہمته فی الحدود المقررة لها یجب له علی الشعب
السمع والطاعة. أما الحاکم الذی لا یقوم بالتزاماته، أو
یخرج علی حدودها فلیس له أن ینتظر من الشعب السمع
والطاعة. وعالیہ هو أن ینتجی عن مرکزہ^(٢).

قال ابن قتیبہ: لما تمت البیعة لأبی بکر أقام ثلاثة أيام
یقیل الناس ویستقیلہم، یقول: قد أفلتکم من بیعتی،
هل من کارہ؟ هل من مبغض؟ فیقوم علی فی أول الناس
فیقول: والله لانقیلک، ولا نستقیلک أبداً^(٣).

ولذلك لما أحس أبو بکر بغضب فاطمة؛ لمنازعتها فی
میراث النبی، اجتمع والناس وقال لهم: بیئت کل رجل
منکم مسروراً بأہله، وترکتونی وما أنا فیہ، لا حاجة

١ — ج ١ ص ١٤٢ طأولی بالمطبعة الأمیریة — مرجع سابق

٢ — التشریع الجنائی ج ١ ص ٤٤ — مرجع سابق

٣ — الأمانة والسیاسة ج ١ ص ١٤، ١٦

لى فى بيعتكم، أقبلونى بىعتى . قالوا ياخليفة رسول الله ،
إن هذا الأمر لا يستقيم، وأنت أعلمنا بذلك ، إنه إن كان
هذا لم يقم لله دين . فقال : والله لولا ذلك وما أخافه من
رخاوة هذه العروة مابت ليلة ولى فى عنق مسلم
بيعة (١) . .

وقد فرض الشرع على الأمة الأمر بالمعروف .
وأوجب عليها إزالة المنكر، وجعل النصيحة واجبة ؛
ولذلك قال علماء المسلمين بجواز تقويم الحاكم بالقوة ، إذا
لم يجد القول . قال إمام الحرمين : إذا جار والى الوقت
فظهر ظلمه وغشمه ، ولم يرعَ لزاجر عن سوء صنيعه
بالقول ، فلاهل الحل والعقد التواطؤ على
ردعه ... (٢) .

وقد أجمل الإمام : الشيخ محمد بن حيت . فى كتابه :
حقيقة الإسلام وأصول الحكم الصادر سنة ١٩٣٦ سنوات
الحكومة الإسلامية فقال فى علاقة الحاكم بالمحكومين : إن

١ — الإمامة والسياسة ج١ ص ١٤ ، ١٦

٢ — شرح المقاصد ج٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠ - مرجع سابق

كتب الكلام... كلها مطبقة متفقة على أن منصب الخليفة والإمام إنما يكون بمبايعة أهل الحل والعقد، وأن الإمام إنما هو وكيل الأمة، وإنهم هم الذين يولونه ملك السلطة، وإنهم يملكون خلعة وعزله. وشرطوا لذلك شروطاً أخذوها من الأحاديث الصحيحة. وليس لهم مذهب سوى هذا المذهب...

وقال العقاد في كتابه: الفلسفة القرآنية:

إذا وصفت الحكومة التي نص عليها القرآن الكريم بصفة من صفات الحكومة العصرية فهي الحكومة الديمقراطية في أصلح أوضاعها؛ لأنها حكومة الشورى، والمساواة، ومنع السيطرة الفردية.. وجملة ما يقال: إنها هي الحكومة لمصلحة المتكرومين، لا لمصلحة الحاكمين.. بل هي الخاتم ما أطاع الله، فإن لم يطعه فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

٥ — قيود طاعة المسلمين لأولى الأمر منهم:

أ. — ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

دعائكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون. واتقوا فتنة لا تصين الذين ظلموا منكم خاصة.. ﴿ سورة الأنفال: ٢٤-٢٥ .

وفي عدم جواز انفراد الآحاد بالأعمال المتصلة بالدولة يقول: ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم.. ﴿ سورة النساء: ٨٣ .

٦ - إقرار القرآن لفكرة استمرار الدولة والسلطان بعد موت النبي:

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ سورة الحديد

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض.. ﴾ سورة النور

﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ سورة الحج

وهذه آيات مقصود بها المسلمون إطلاقاً، وبدون تعيين زمن. وهذا يعنى أن ما قره القرآن من فكرة الدولة والسلطان، وما قرره من غاياتها - مطلق وغير محدود بزمان، ونحوّل للمسلمين، وملزم لهم بإقامة الدولة والسلطان، وممارسة مختلف شعونهما، فى كل زمان ومكان وجدوا فيه.

وهذا المعنى منطوق فى آيات عديدة أخرى. مثل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ..﴾ سورة البقرة: ١٧٨

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ سورة البقرة: ١٧٩

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا..﴾ سورة البقرة: ١٩٠

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ سورة النساء: ٥٨

وكل هذا متصل بشئون الدولة والسلطان ، ولا تتأتى ممارسته إلا فى نطاقهما ، كما هو المتبادر .

وفى سورة آل عمران آية مهمة فى هذا الباب ، هى هذه : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾ سورة آل عمران : ١٤٤ .

حيث حذرت المسلمين من الانحراف عن الطريق التى ساروا فيها تحت راية النبى بعد موته المحتمل ، واختلال ماكان من نظام واجتماع من شمل تحت رئاسته . وبالتالى حيث احتوت حشا على متابعة الطريق التى ساروا فيها ، والشئون التى مارسها ، ومنها شئون الدولة والسلطان (١) .

٧ — وحدة المسلمين فى نطاق الدولة :
أ — ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول

١ — أستاذنا د . محمد عبد الله العرى — مرجع سابق

وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون * واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴿ سورة الأنفال: ٢٧-٢٨ .

فخيانة المسلم للأمانة العامة خيانة لنفسه ، ولو كان ذلك بسبب أو حجة المال أو الولد .
ب — والشورى . وتقدم بحثها .

٨ — قيام ببيان الدولة على الرجل والمرأة :

أ — أجب بيعتها ﴿ يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ﴾ سورة الممتحنة : ١٢

ب — كل ماخطوب به المؤمنون والمسلمون شامل للمرأة ، ما لم يكن فيه دليل على التخصيص وهذا يدل على اعتبار القرآن لشخصية المرأة ، واستقلالها ، وأهليتها

للوّجوب والأداء. وأكّدتَه نصوص مثل ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ سورة النحل: ٩٧

﴿لأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض﴾ آل عمران: ١٩٥

٩ — صلات الدولة الإسلامية، والمسلمين، بغيرهم:

وقد عني القرآن الكريم بهذا الموضوع عناية كبيرة، ورسم له ضوابط في غاية الحكمة والروعة، والحق والإنصاف. فغير المسلمين إما أن يكونوا:

١ — أعداء للمسلمين، يحاربونهم، ويكيدون لهم، ويطعنون في دينهم، ويصدون عن الدعوة إليه، وينقضون أيمانهم وعهودهم... وواجب المسلمين إزاءهم في كثير من الآيات منها: — ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم...﴾

سورة البقرة: ١٩٠

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ سورة البقرة: ١٩٣.

.. ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم..﴾ سورة النساء: ٩١.

﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون﴾ سورة الأنفال: ٥٥-٥٦.

٢ — أو معاهدين :

إما أن يكونوا معاهدين بدءاً، أو بعد حرب، ثم قامت بينهم وبين المسلمين حالة عهد وسلام، فهؤلاء يوفى لهم بالعهد، ويستقام معهم على شروطه ما استقاموا.

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف،

وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴿ سورة
الأنفال: ٣٨

﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم
شيئا، ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى
مدتهم... ﴾ سورة التوبة: ٤

٣ — وإما محايدين مسلمين :

﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم
فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ سورة النساء: ٩٠
٤ — وإما خاضعين :

وهم الذين رضوا العيش مع المسلمين، وقاموا بأداء
ضريبة دفاع المسلمين عنهم فهم من جهة مسلمون، ومن
جهة أخرى معاهدون، فلهم مالمسلمين والمعاهدين
وعليهم ماعليهم. ولهم مالمسلمين وعليهم ماعليهم.

من كل هذه الأدلة يستقر في الوجدان أن الإسلام
دين ودولة، وهو مااستقرت عليه الفكرة الإسلامية منذ

أول عهد لها بالإسلام . وهذا أيضا ماتأكد منه الكثير من المستشرقين ، والباحثين الغربيين ، الذين درسوا هذا الموضوع ، و انتهوا إلى أن الإسلام دين ودولة ، وأن الرسول ﷺ لم يكن رسولا فحسب ، بل كان حاكما ، ورئيسا للدولة أيضا .

ولعل فيما تقدم من أدلة من الكتاب والسنة ، وإجماع المسلمين أبلغ الرد على القائلين بأن الإسلام دين لادولة ، وبوجوب فصل الدين عن الدولة ، أو القول : لاسياسة في الدين ، ولا دين في السياسة (١) .

ولا ضير على من يكتب اليوم عن الإسلام وحكومته أن يسمى سمات هذه الحكومة بالأسماء المستحدثة . وليس معنى ذلك أنها ، لذلك ، لم تكن معروفة في الحكومة الإسلامية ، فتلك شواهدا ، وتلك حقائقها ، كما سلف ، ولا مشاحة في الأسماء .

ولكن من الناس من لا يؤمن ولو نزلت إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحُشر عليهم كل شيء قبلا .

١ — نادية محمد عياد : بين الحاكم والرعية . رسالة دكتوراه لم تطبع . مرجع

مولانا الذى فى مصر الجديدة

يقول كاتب السقوط فى رده على الأستاذ خالد محمد خالد، الذى وضع معالم الحكومة الإسلامية ومنها أن الأمة مصدر السلطات، وحرية تعدد الأحزاب، وإصدار الصحف، واختيار أعضاء البرلمان، وحق نوابه فى المعارضة، وإسقاط الحكومة.. يقول كاتب السقوط: «فهى إجابة تحتل القليل من التعجب، والكثير من الإعجاب: أما الإعجاب فبالرجل، وأما التعجب فمصدره أنه لا يوجد نص دينى واحد فى القرآن أو السنة يؤكد صراحة على بند واحد من البنود السابقة. غير أن المنطق أن نقول: إنها روح الإسلام وليست شريعته، تلك الروح التى لاتناقض عدلا، ولا تنقض حقا... وطرح الأمر بهذه الصورة ينشئ مأزقا، ويطرح

تساؤلا، ويدفع إلى دعاء: أما المأزق-فيتمثل في خروج
نظم حكم مجاورة... وأما التساؤل فعن الإصرار على
نعت المبادئ السابقة بمسمى إسلامي، وهي مبادئ إن
التقت مع روح الإسلام وجوهره فإنها بالقطع نشأت في
غير دياره، وتسمت بغير مسمياته...

وأقول: إنه ردّ يحتمل الكثير من التعجب والقليل من
الإعجاب: أما التعجب فمن نفيه مالا علم له به،
والمنطق والعقل يقول: عدم العلم بالشئ لايعني العلم
بعدم وجوده. فقد كان الأخرى بموقفه أن يسأل عن
النصوص. وقد سلف بها الذكر والتفصيل.

وعلى سبيل التسليم الجدلي بأنه (لايوجد نص واحد
في قرآن أو سنة) فسيدنا الشيخ فرج، العليم بالقرآن
والسنة، على هذا النحو الشامل، ويرى أن هذه الصفات
للحكومة الإسلامية تتفق وروح الإسلام - يعلم، بحكم
إحاطته بالقرآن والسنة، وتاريخ الإسلام، ومبادئ
التشريع - يعلم أن من (سياسة الإسلام) مايتفق

وروحه . وأرجوه أن يرجع إلى ما لا حاجة له فيه ، لمنزلته
من علوم القرآن والسنة - إلى بحث (سياسة الإسلام)
الذى سبق ، وإلى وثيقة الرسول التى وضعها دستوراً
للمدينة .

وأما الاعجاب ، فإنه الاعجاب المعكوس برجل له
مثل هذه الجرأة (العلمية) التى تمنحه هذا التعميم
المؤكد ، الذى يتحرّز منه العلماء ، الذين يتخرجون من
إبداء الرأى ، أو معارضته بغير دليل ، ويحرصون على إبراء
الذمة فى كل قول يأخذون به ، أو ينقدونه !!

* * *

الشكل

ومثل هذا فى التعجب والإعجاب دعوة صاحب السقوط دعاة الإسلام إلى : (وضع برنامج للحكم، بل إلى ماهو أهون: وهو شكل نظام الحكم فى الإسلام، وأسلوب تولية الحاكم، هل يتم بالانتخاب كما تولى أبو بكر؟ أو بالاستخلاف كعمر، أو بالاختيار من مجموعة كعثمان، أو ببيعة أغلب الأمصار كعلی، أو بالغلبة ك معاوية، أو بالوراثة كيزيد.. فهم إن رفضوا كل ما سبق واستبدلوه بشكل حديث (يقصد: استبدلوا به شكلا حديثا) - أثبتوا على أنفسهم أن أسلوب اختيار الحاكم ليس له قاعدة إسلامية تتصل بالصدر الأول للإسلام، وأفقدوا نظام الحكم الدينى ركنا جوهريا من أركانه. وهم إن اختاروا شكلا من الأشكال السابقة

لاحتج البعض مناصراً شكلاً آخر ينطبق على أحد الخلفاء الراشدين ... وفي كل من الحالين يصعب أن تحصل منهم على رد مقنع ص ٧٦-٧٧ .

ويقول في رده على الأستاذ خالد محمد خالد في أهرام ١٩٨٥/٧/١ م: ... نتساءل: هل الدولة الإسلامية جزء من العقيدة فيصبح أحد الطرفين خارجاً عن صحيح الدين .. أم أنها لزوم مالا يلزم فتتردد أمام مقولة: الدين والدولة؟

وأقول :

أما من حيث البرنامج والأسس والخصائص فأرجو أن يكون فيما سبق بيان كاشف عن معالم الدولة الإسلامية، كما تضمنها القرآن والسنة .

وبدهى أنني لم أستقص . فما زال في مدلولات القرآن، وبرامج السنة الكثير من ذلك يرشد إليه الرجوع إلى أبواب الولاية، والأفضية، والأحكام في كتب السنة وشروحها .

وبدهى، أيضا، أننى لأدعى أن ما فصلت أو أجملت هو غاية الغايات؛ فذلك أمر أعرف قدره، وقدرى من قدره. له رجالاته، وهم - بحمد الله كثير، من علماء الدين، وغيرهم من علماء المسلمين.

وأما من حيث (شكل نظام الحكم) وأسلوب تولية الحاكم، فأعود ههنا لأذكر بما هو: دين، وما هو سياسة الدين، وما هو سياسة، وما أوضحت من اتساع نطاق العقل والتجربة كلما انتقلنا من دائرة الدين، إلى سياسة الدين، إلى السياسة الإسلامية. وأن ذلك أمر مقصود للشارع، لما يحقق للمبادئ البقاء ويحقق للإنسان المصلحة والتطور. وفي ذلك: عموم الإسلام وخلوده، وكرامة الإنسان، كما فيه خصيصة من خصائص الإسلام.

وكل ذلك سبق توضيحه. غير أن ما يجب التنبيه عليه هو عناية الإسلام بتحقيق المبادئ، فمهما تحققت فلا ضير في الشكل، ومهما فقدت فلا نفع فيه.

فترديد أن (أسلوب تولية الحاكم) إن كان على غير ما كان عليه الصدر الأول يفقد ركناً أساسياً من أركان الحكم الدينى... - هذا التردد فيه غفلة عن حقيقة الفواصل بين هذه الأمور الثلاثة؛ إذ أسلوب تولي الحاكم من السياسة التي ترك الإسلام (شكلها) لاختيار المسلمين بحسب أحوالهم، وتغير ظروفهم، وتغير هذا (الشكل) في عصر الراشدين دليل على ذلك. فالخروج عليه إلى ما يناسب الزمان والحال ليس خروجاً على (ركن جوهرى من أركان الحكم الدينى) كما أن الرجوع إلى بعضه - إذا كانت المصلحة فيه - ليس (ردة سلفية) تستلزم العراك حولها.

ومن هنا لا يستلزم النظام الإسلامى أن يظل المسجد - كما زعم الكاتب - ص ٤٥ على عهده أيام الرسول: وما قال ذلك أحد من علمائه، ولن يقول. لكن ليس معنى هذا أن تقتصر رسالة المسجد على الوجدانات التي يصر كاتب السقوط على حصر الإسلام فيها. --

وكذلك هذا (السُّبْر والتقسيم) والترديد بين هل الدولة الإسلامية جزء من العقيدة، أم أنها لزوم مالا يلزم؟

فالدولة الإسلامية، قطعاً، ليست جزءاً من العقيدة، ولكنها جزء رئيس من (سياسة الدين وشريعته) لا تتم هذه السياسة إلا بإقامتها، ولا تحفظ العقيدة إلا بها، فهي واجبة وجوب الوسائل لتحقيق المقاصد التي لا تتم إلا بها.

وتعدد صورها، الذي يتخذ منه كاتب السقوط وسيلة للكر والفر، وابداع فريد إذا نظر إليه في زمانه. وسبق معجز إذا نظر إليه في زماننا:

أما في زمانه، فقد سبق لهذا البحث أن أعطى صورة مجملة عن حال الدنيا قبل الإسلام بان منها مدى النقلة الكبرى التي أحدثها الإسلام في البشرية، والتي كان منها اختيار الأمة لحاكمها، بعد أن كان في الأمم قبل الإسلام مفروضاً على الشعب، باعتباره من معطيات الطبيعة مثل

الشمس والهواء، وأن الله هو الذى اختاره، وأودعه السلطة. ومن ثم لم يكن لبني البشر مناقشة حكامهم، أو البحث فى أساس سلطاتهم^(١).

وأما فى زماننا: فإنه لم يعرف نظم الاختيار، التى تحققت فى الإسلام إلا بعده بأحد عشر قرناً، فى النظام الإنجليزى فى القرن السابع عشر، وقانون الولايات المتحدة بعد منتصف القرن الثامن عشر. أما القانون الفرنسى فلم يعرف الاختيار والشورى إلا فى آخر القرن الثامن عشر.

ومع ذلك، فما زال العالم اليوم يعرف - مع النظام الديمقراطى - النظام (المطلق) الذى يحول دون تدخل المحكومين فى اختيار حكامهم. ومنه نظام الوراثة، الذى يعد أقدم النظم فى إسناد الحكم، وأخطرها. والذى مازال يجد تبريره فى قياسه على توزيع الأموال، ودعوى

١ - سليمان عبد الهادى الطنطاوى: رسالة ماجستير لم تطبع - مرجع سابق

الاستقرار، وسهولة انتقال السلطة، وتوفير الوقت، والجهد، والمال. والذي مازال يحتفظ فيه (الملوك) بمجموعة من الحقوق لم تستردها الشعوب بعد تسمى: (امتيازات التاج. كذلك تقرر الدساتير الملكية عادة (أن ذات الملك مصونة لاتمس)، فلا يسأل أية مسؤولية سياسية أو جنائية، حتى لو كانت الخيانة العظمى^(١).

ومن صور النظام المطلق اليوم أيضا (الاختيار الواقعي) كما يحدث في الاستيلاء على السلطة بالقوة.

وفي العالم اليوم أيضا النظام (المختلط) الذي يجمع في طياته بين الأساليب المطلقة والديمقراطية.

ومع ذلك تتعدد أساليب أى من هذه الطرق من دولة إلى أخرى.

وكما لم يسلم النظام المطلق بصوره المتعددة، من النقد، لم تسلم النظم الديمقراطية في أحدث صورها من

١ - د. محمد حلمي مصطفى: نظام الحكم الإسلام. د. نادية محمد

عياد - مرجع سابق

نقد مرير، يكشف عن عوراتها، يوجهه إليها ذوو الاختصاص، الذين مايزالون يبحثون عن الجديد.

وقد آن الأوان للحكام الدول الإسلامية أن يتحملوا مسئولياتهم أمام الله، ثم أمام رعاياهم، وأن يجدوا - في الإسلام وسياسته، وتجارب الحياة - حلا لهذا الشئ الواقع ويتفقوا على صيغة ونظام تعود به للمسلمين وحدتهم، وليكن القائم على هذا النظام أيما كان، وليس هذا النظام أى اسم، مادام يتفق وشرعة الإسلام وروحه. المهم أن يكون هذا النظام قائما على قواعد الإسلام الأساسية فى نظام الحكم، مطبقا لمنهجه...

وإن هذا لسهل ويسير إن خلصت النوايا، واتحدت الهمم لإقامة دولة الاسلام التى تحكم بقانون الله. الدولة المثالية الواقعية (١).

* * *

١ - د . نادية محمد عياد - مرجع سابق

حياة الصحابة

أراد صاحب السقوط أن يشوه حياة الصحابة، وعصر الراشدين، فإذا ماتم له، بكلامه، إسقاطه من سماء التقدير فقد مهّد لنفسه الطريق إلى غايته وهي: استبعاد الإسلام عن الحكم.

لم يجد مبتغاه في عهد الصديق، فهُرِعَ إلى خبر مجهول، من مجهول، عن موت الصديق مسموما، حين طعم (حريرة) مع الحارث بن كلدة، وأنه ظل عليلا بالسم سنة! (ص ١٤).

مدة خلافة الصديق سنتان وثلاثة أشهر :

أنفذ جيش أسامة لإزعاج دولة الروم عن حدود الجزيرة. وما أخطره من عمل.

وقضى على الردة . وما كان أخطرها وأشدّها لمن
يعلم .

وأفاء إلى الإسلام مانع الزكاة . وما كان أعقدها لمن
خير .

وزعزع ملك كسرى وقيصر ، وجيش لهما الجيوش ،
وأمدّها بالأمداد ، وتابع الهزائم والانتصارات ، ونقل
المعارك من مكان إلى مكان ... وكل ذلك كالمعجزات .

وجمع المصحف . وما أجله وأدقه من عمل .

وتكفيه واحدة : أنه ردّ المسلمين إلى عقولهم بعد
ذهولهم لسماع خبر موت الرسول ، وإيالتها من فجيرة ،
قال أنس : خطبنا أبو بكر عقب وفاة النبي ﷺ وإنا
لكالثعالب ، فما زال يشجعنا حتى صرنا كالأسود .

وظل عليلاً سنة ، فيما يختاره ، ويرجحه صاحب
السقوط ، فيكون الصديق قد حقق هذه العظام في سنة
وبضعة أشهر .

ولا عجب، مادام ذلك يرضى صاحب السقوط،
الذى يرى (أن الإسلام لم ينتزل على ملائكة، وإنما على
بشر مثلنا).

فليترك من أجله كل يقين من البرهان، وكل حق من
الأعمال، وكل عظيم من أثر الإسلام فى تكوين الرجال،
لأن كل هذه الآيات البينات لاتساعده على غرضه،
وتقف حائلا دون مبعثه. فليترك اليقين إلى الشك،
والحق إلى الباطل، والعظام إلى الصغائر - مادام ذلك
يوصل إلى الهدف.

وليصغر (ماكيا فى) أمام د. فوده. وليسقط كتابه
(الأمير) أمام كتابه (قبل السقوط).

إن حقائق التاريخ لاتعالج بالواهيات، ولا
بالتخمينات، (ارفع يدك ياخليفة رسول الله... إن فيها
لسم سنة، وأنا وأنت نموت فى يوم واحد... فلم يزالا
عليين حتى ماتا فى يوم واحد عند انقضاء السنة)
هكذا: فى يوم واحد بالضبط الدقيق !

علم بذلك ابن كلدة والصدىق !
علما أجلهما قبل موعدة بسنة !
لقد فات الراوى أن يحدد الساعة والثانية ! أو لعله
تجاوز ذلك ! فياله من علام للغيوب !
وتجد هذه الرواية من ينتفها ويبنى عليها أحكاما كلية
قاطعة !

فاللهم لا تطمس على أعيننا لنستبق الصراط المستقيم .
واللهم لاتزغ قلوبنا لنرى الحق القويم !
واللهم عياذا بك من كل قصر فى العلم والدين باعه ،
وطال فى الجهل وأذى عبادك ذراعه !

لقد سمّت يهودية ذراع شاة لمحمد ﷺ ، وأخذ
الرسول منها مُضغّة ، وعاش يأتية أثرها أحيانا ، وما درى
يوم موته منذ غزوة خيبر ، حيث قامت اليهودية بجريمتها
فى السنة السادسة ، إلى أن مات فى ربيع الأول سنة
إحدى عشرة تمام عشر سنين من هجرته . عاش ولم يعلم
دنو أجله إلا بعد أن نزلت عليه سورة النصر . فلما مرض

مرض موته قال لعائشة: مازلت أجد ألم الطعام الذى أكلته بخير، مازالت تلك الأكلة تعاودنى، فهذا أوان قطعت أنبهرى. كل ذلك وأهله، والمسلمون لا يعلمون يومه. ولكن ابن كلداء، وكاتب السقوط يعلمان يوم أبى بكر! والله فى خلقه شئون!

قال الدكتور محمد حسين هيكل، بعد أن خلص من تفصيل أعمال الصديق: أليست هذه بعض معجزات التاريخ؟! فى سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أُمم نائرة، وتصبح أمة متحددة قوية مرهوبة الكلمة، عزيزة الجانب، حتى لتغزو الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم، وتوجهان حضارته؛ لتنهض يعبء الحضارة فى العالم قرونا بعد ذلك.

هذا أمر لم يسجل التاريخ مثله، فلا عجب أن يقتضى من أبى بكر مجهوداً تنوء به العصبة أولو القوة... وقد تخطى السنتين يوم بويج.. عجلت عظمة المجهود، وتقدم السن وفاة الخليفة الأول. وإن جرت رواية فى تعليل

وفاته بأن اليهود دسّوا له السم في طعام تناول منه عتاب بن أسيد معه ، كما تناول منه الحارث بن كلدة لقيمات ثم كف ، وأن هذا السم كان بطيء الأثر يقتل بعد عام من تناوله ؛ ولذلك مات عتاب بمكة في اليوم الذي قبض فيه أبو بكر بالمدينة . وهذه الرواية لم تؤيد بسند جدير بالثقة ، ومما يزيد تهافتها أن أبا بكر لم يكن بينه وبين اليهود في خلافته نزاع ، وأن اليهود جلّوا منذ عهد الرسول عن المدينة . والرواية الراجحة في مرض أبي بكر ووفاته تسند إلى ابنته أم المؤمنين عائشة ، وإلى ابنه عبد الرحمن قالوا : كان أول ما بدأ مرض أبو بكر أنه اغتسل في يوم بارد فحُمَّ خمسة عشر يوما لا يخرج إلى الصلاة ، وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يصلى بالناس (١) .

ثم لنسلم - جدلا - بصحة الرواية . فهل تنتهي إلى ما يريده كاتب السقوط من ترك حكومة الإسلام ؟ إذن فلنترك الإسلام كله ديناً ودنياً ؛ لأن اليهودية سمت الطعام

١ - الصديق أبو بكر ص ٣٤٥ - ٣٤٦ ط الأولى

لِلرَّسُولِ ﷺ عَلَى يَقِينٍ ؟
أَيُّ مَنْطِقٍ هَذَا ؟

مرة أخرى ، ويحكم ! مالكم ؟ كيف تحكمون !
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ،
أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى
عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾
سورة آل عمران : ١٤٤

وعلى هذا النهج - من ضعف الرابطة بين المقدمات
والنتائج ، وتحسس الثغرات ، وابتداع العيب ، والطيران
فرحاً بالريب - يسير كاتب السقوط من عهد الصديق
لينظر في عهد عمر ، فلا يجد إلا عدله ، الذي تحدثت به
الدنيا ، وكان مثار عجب العالمين ، وإعجابهم ، فليات إليه
كاتب السقوط من أي جانب ، ولو كان العدل نفسه .

أَيُّ وَاللَّهِ عَدْلُ عُمَرَ :

عدل عمر الذي لم يحقق له - في رأى السقوط -

الأمان، وانتهى إلى قتله بيد مجوسي (مثبتاً أن مافعله عمر إنما كان قصوراً في إجراءات الأمن، وأن العدل ليس دائماً وسيلة الأمان... والحركة دون حراسة أمر لا يصلح نموذجاً لحاكم... وكل ذلك في أزهى عصور الإسلام إسلاماً، وأكثرها اقتراباً من أصول العقيدة، ورسوخاً لمبادئها ص ١٣-١٥).

فليسقط العدل؛ لأنه لم (يحقق الأمن الذي يقود إلى الأمان)!

بل لتسقط عقيدة الإسلام نفسها؛ لأن (اغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين؛ وظن اغتيال الخليفة الرابع، كل ذلك قبل أن تمر ثلاثة عقود على وفاة الرسول، وكل ذلك أيضاً في أزهى عصور الإسلام، وأكثرها اقتراباً من أصول العقيدة ورسوخها) والتي كان من (سخریات القدر فيها، ومفارقاته - أن عبيد الله بن عمر قتل ثلاثة ظن بهم التآمر على قتل أبيه) - كل ذلك شاهد قاطع على أن عقيدة الإسلام لم تثمر ثمراً، ولم تؤت أكلاً!!

إذن، فلنترك حكم الإسلام، بل وعقيدته. وهو المطلوب

لا أريد أن أقول: كيف تُركت عظمة الحكم الإسلامي، ونظامه، في اقتراب الحاكم من المحكومين، الذي لم تعرفه الدنيا قبله، مما أذهل (الهرمزان)، وهو الخبير، يومئذ، بنظام الدنيا، فقال مقالته تلك. عدلت فأمنت فنت! ثم تأمر على قتل عمر

ولا أريد أن أقول: إن الدنيا قد تتحدث عن ملكة إنجلترا وهي تنزل تشتري بنفسها بعض حاجاتها.

وتحدثت عن عطل سيارتها في الطريق، ونزولها منفردة، لاحاشية معها - مائتي متر، إلى أن وجدت (تلفون) تخبر به خبرها.

ولا أتحدث عن الأميرة (آن) وهي تشترك دون حراسة في حلبات السباق؛ لتجعل دخلها في الخدمات الاجتماعية.

لا أريد أن أتحدث عن ذلك ؛ لأن الكاتب السقوطى
سوف يجعله من فضائل الحكم المدنى . بينما يجعل عدل
عمر من نقائص الحكم الدينى وسياسته !

ولا أريد أن أتحدث عن الحكم الفقهى فى قتل
الجماعة بالواحد (١) .

ولا أريد أن أتحدث أن عثمان سلّم ابن عمر إلى أولياء
(الهرمزان) ليقتلوه به ، ولكنهم ، بعد تسلمه ، أبوا ؛ لما
رأوا من عدل الإسلام ، وتسويته بين الناس جميعا فى
الأحكام ، وجعلهم سواسية أمام القانون ، وهو مالم يكن
فى بلادهم .

ولا أريد أن أتحدث عن المؤامرات القيصرية ،
والكسروية ، واليهودية ، التى تزعمها (عبد الله بن سبأ)
لمحاولة القضاء على الإسلام .

لا أريد أن أتحدث عن كل ذلك . إنما أريد أن أنبه على

١ — على أن عبيد الله لم يقتل سوى «الهرمزان» . وهو مدير قتل الإمام ؛
ولهذا الجرم حكمه . منهاج السنة ج ٣ ص ١١٩ - ٢٠٢

الخلط بين ماهو من الدين وسياسته ، وبين ماهو سياسة
يجهل فيها أصحابها ، والتي لا يصح - عند الفهم - أن
ندعو إلى ترك مبادئها وأصولها ؛ لما قد يترتب عليها من
نتائج ليست لازمة لتلك المبادئ والأصول .

كما لا يصح أن نحكم على سياسة ما ، في زمانها ،
بأحكام أحوال وزمان غير زمانها ؛ فنقول : (إنها أمر
لا يصلح نموذجاً لحاكم . إلا أن يكون من هواة
الاستشهاد) .

العدل مبدأ من أسس الحكم الإسلامي .

أما كيف يحمى الحاكم نفسه ، فأمر من السياسة
الصرف ، يسوسه بما يناسب الحال .

وقد كان الرسول يسير في حراسة إلى أن نزل قوله
تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ سورة
المائدة : ٦٧ .

وقد اتخذ معاوية حرس الليل ، وأمر بقيام الشرطة على
رأسه إذا سجد . وكان أول من عمل ذلك في الإسلام .

وحين دخل عمر الشام، ورأى معاوية قال: هذا كسرى العرب.

وكان معاوية تلقاه في موكب عظيم، فلما دنا منه قال له: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم. يا أمير المؤمنين. قال: مع مايلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك؟ قال معاوية: مع مايلغك من ذلك. قال عمر: ولم تفعل هذا؟ قال معاوية: نحن بأرضي جواسيس العدو بها كثيرة؛ فيجب أن نظهر من عز السلطان مانرهبهم به. فإن أمرتنى فعلت، وإن نهيتنى انتهيت. فقال عمر: لكن كان ماقلت حقا إنه لرأى أريب، وإن كان باطلا، إنه لخدعة أديب. فقال معاوية: فمرنى يا أمير المؤمنين، قال عمر: لا أمرك ولا أنهاك.

وكان إلى جانبيهما عبد الرحمن بن عوف، فقال يا أمير المؤمنين: ما أحسن ماصدر الفتى عما أوردته فيه. فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جشمناه ماجشمناه!

اتخذ معاوية الحراسة فما خرج عن الإسلام.

ولم يتخذها عمر، فما خرج عن الإسلام.
ولم يتخذها عثمان ولا علي - رغم قتل عمر؛ لأن
العدل كان محققا، والأمن كان غالبا، رغم الفتنة!
وتتخذ في أيامنا الحراسة، على صورة أشبه بالصياصي
والقلاع، فما منعت قتلا، وما حققت أمنا!.
ولا ضير، فليس زماننا هو مقصود الكاتب السقوطي
بالذم.

إنما عهد الراشدين !!

ونخله ذم !!

ولنختتم الحديث عن عصر الشيخين بشهادة معاصر
شاهد وخبر:

خطب معاوية الناس فقال: أيها الناس، والله لثقل
الجبال الراسيات أيسر من اتباع أبي بكر وعمر في
سيرتهما، ولكنني سالك بكم طريقا تقصر عن تقديمي،
ولا يدركني فيها من بعدى.

يقول كاتب السقوط بفيه إنه يقدر الراشدين،
ويتظاهر بمعرفة قدرهم: (أتحرز فيما أكتب عن سيرة
الخلفاء بعبارة: بعد الراشدين؛ خوفا من أن يلتصق بهم
رذاذ ما ارتكبه من تلاهم من الخلفاء).

ثم يطعنهم (بشجاعة) من الخلف إذ يقول: (الأمر
المؤكد أن نظرية الحكم بالحق الإلهي تجد تأصيلا قويا في
مقولة الخليفة عثمان، حين طلب منه الثائرون أن يعتزل
الخلافة؛ فأجابهم بالعبارة التي أصلت تصور الحكم
بالحق الإلهي عند من تلاه: (لا والله إني لن أنزع رداء
سر بلنبي الله) وهي العبارة التي وضعت الفكر السياسي
الإسلامي كله عند مفترق طرق بين أغلبية تأخذ برأى
عثمان، في أن الله هو الذى يولى الخليفة. ومن ثم فلا حق
للرعية في نزع الإمام من مكان رفعه الله إليه. وأقلية ترى
الأمة مصدر السلطات وهو الرأى الذى تبناه المعتزلة فيما
بعد ولعل في تسميتهم بالمعتزلة دليلا على موقف الدولة
الإسلامية منهم، وموقفهم منها. ١٠٧٩-٧٠).

وهكذا فهم صاحب السقوط، أو هوى أن يفهم،

من كلمة عثمان مالم يفهمه المسلمون على مدى
عصورهم . وفيهم الصحابة الذين نقدوه ، وعارضوه ، بل
وعابوا عليه بعض ماعمل !!

لقد كان هذا الفهم الذى ورثه صاحب السقوط من
الجاهلية الأولى ، ويحاول رمى الحكم الإسلامى به - كان
مما حاربه الإسلام ، وعارضه ، وحذر منه :

﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا
الله وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا
وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ سورة الأحزاب : ٦٦ - ٦٧

وحرم القول على الله بغير علم :

﴿أتقولون على الله مالا تعلمون﴾ سورة
الأعراف : ٢٨

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس
بغير علم﴾ سورة الأنعام : ١٤٤

وحق التحريم والتحليل ، حذرهم من أن يجعلوه لغير

الله، كما فعل من سبق :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله .. ﴾

سورة التوبة : ٣١

﴿ قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾
سورة يونس : ٥٩ .

أفأمة هذا دينها ، ودستورها يقال إنها ترى أن الله هو
الذى يختار حاكمها ويوليّه ؟ ! وأنها لاحق لها في نزعها !!
ومن الذى أصل ذلك ؟

عثمان !!

وتبعه من بعده !

وأغلب الأمة !!

هكذا في جزم يتحرّز منه العلماء ، شأنه في كل
ما كتب .

لماذا ، إذن ، ثار عليه الثائرون ، مادام الله هو الذى

ولاه؟

ولماذا نقموا منه أمورا أيدهم فيها عدد من الصحابة؟
ولماذا أجاب عثمان الناقمين فأزال كل مانقموه منه :
فعزل من طلبوا عزله ، وأن تعطى مفاتيح بيت المال لمن
يرتضونه ، وألا يُعطى أحد من المال إلا بمشورة الصحابة
ورضاهم . ولم يُيق لهم طلبا ؛ ولهذا قالت عائشة :
مصصتموه كما يمص الثوب ، ثم عمدتم إليه
فقتلتموه (١) .

كيف يتفق كل ذلك وزعم أنه أصل نظرية الحكم
بالحق الإلهي؟

ولماذا لم يذكر الكاتب السقوطى هذه الحقائق؟
بل لماذا لم يذكر كيف تولى عثمان وكيف انتهى؟
نعلم عن يقين ، لاعن تحريف ، من الذى ولاه .
لقد بذل من استخلفهم عمر على الشورى فى اختيار

١ — منهاج السنة ج ٣ ص ١٩٠

الخليفة كل مافى وسعهم ليتم هذا الاختيار برضا الناس ،
حتى العامة منهم . حتى كان عبد الرحمن بن عوف يتلقى
الناس فى أنقاب المدينة ملثما لا يعرفه أحد ، فما ترك أحدا
من المهاجرين والأنصار ، وغيرهم من ضعاف الناس
ورعاعهم إلا سألّه واستشاره . أما أهل الرأى فأتاهم
مستشيرا ، وتلقّى غيرهم سائلا ، يقول : من ترى الخليفة
بعد عمر ؟ فلم يلق أحدا يستشيرّه ولا يسألّه إلا ويقول :
عثمان (١) .

ولما حوصر عثمان أبى أن يقاتل ، وأبى أن يدفع عنه
أحد ، وقال لغلمانه : من ألقى السلاح فهو حر . وجاءه
الحسن بن عبي ، وقال له : أنت إمام القوم ، فمرنى أن
أدفع عنك بلاء هؤلاء القوم ؟ فقال له عثمان : يا ابن أخى
ارجع واجلس فى بيتك ، حتى يأقّى الله بأمره ، فلا حاجة
لنا فى إهراق الدماء (٢) .

١ — الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٦

٢ — كشف المحجوب للهجویری . ترجمة د . سعاد عبد الهادى فندیل

ج ١ ص ٢٧٢

قال في منهاج السنة (١): ومن المعلوم بالتواتر أن
عثمان كان من أكف الناس عن الدماء، وأصبر الناس على
من نال من عرضه، وعلى من سعى في دمه، فحاصروه،
وسعوا في قتله، وقد عرف إرادتهم لقتله. وقد جاءه
المسلمون من كل ناحية ينصرونه، ويشيرون عليه
بقتلهم، وهو يأمر الناس بالكف عن القتال، ويأمر من
يطيعه ألا يقاتلهم. وقيل له: تذهب إلى مكة؟ فقال: لا
أكون ممن أُلحِد في الحرم. فقيل له: تذهب إلى الشام؟
فقال: لأفارق دار هجرتي.. فقيل له: فقاتلهم. فقال:
لأكون أول من خلف محمدا في أمته بالسيف.

أُفِيَقال عمن وُلِّي الأمر بهذا الاستقصاء في مشورة
الناس، واستطلاع رأيهم، ومن كف عن قتل الثائرين
عليه، ولو أراد لغضبت له سيوف مُصمِّمات - أنه أصل
الحكم الإلهي؟!

وأما قولته (لأنزع رداء..) فإنها كلمة مؤمن عظيم

الثقة في الله. أبنى عليه إيمانه، وحرصه على الأمة حاضرا ومستقبلا أن يستجيب للغوغاء والرعاع، الذين استهوتهم فتنة ابن سبأ، فأشعلوا هذا الشغب على عثمان، والخروج على عليّ، واستبقوا السلاح يوم الجمل لما سمعوا عليا يخبر الزبير بالبحث عن قتلة عثمان عندما يستقر الأمر... - أبنى عثمان أن يستجيب لهؤلاء الرعاع فتكون سنة سالفة لكل من يشغب على الحق والنظام، ولم تكن - كما زعم صاحب السقوط - بمعنى أن الله هو الذى يولى الحاكم، فيفعل الحاكم ما شاء، وليس على الرعية إلا الإصغاء وإنما معناها: أنهم يطلبون لأنفسهم ما ليس لهم بحق.

والمسلم عندما يسند فعلا إلى الله إنما يؤمن بالمشيئة العامة لله سبحانه، التى تسيطر على الوجود، والتى لا تتعارض، فى دين المسلم وعقله ووجدانه من فريضة الشريعة فى القيام بالأسباب المعنوية والمادية. وليس معناها التفويض المطلق، ولا السلبية الناعسة، ولا الجبرية المعارضة للتكليف الشرعى.

إنها المشيعة التي يهزمها ويلزمها كاتب السقوط، فلا يرى إلا أن تفسر الوقائع الاقتصادية، والهزائم والانتصارات العسكرية - تفسيراً مادياً بحتاً (إن أحداً لم يتنبه حين اندفعت الأفلام بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ مصورة ما حدث وكأنه انتصار أتى من السماء على مؤمنين صادقين هتفوا بأن الله أكبر.. ص ١١٢).

هذا هو فهم المسلمين لمنصب الإمامة، يفصله ماسلف في موضوع الشورى، وموضوع الدولة. ويجمله إباء أبى بكر أن يقال له: خليفة الله، وقال: بل أنا خليفة رسول الله وحسبى ذلك (١).

ويأباه قول أبى بكر عن نفسه: إن لى شيطاناً...

وتأباه خطبة أبى بكر عندما ولى الخلافة، وألقى بيان حكومته (بيان الثقة) وقال: إني وليت عليكم ولست بخيركم.. إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني..)

والعجب من كاتب السقوط إذ يغفل هذا المنهج

١ - منهاج السنة ج ١ ص ١٣٨

البديع على دنيا الناس في زمانه، المعجب المونق للناس في زماننا - لا يذكره؛ لأنه لا يساعده على هواه ويذكر خطبة المنصور، لما يجد فيها مما يهوى.

ويأباه قول عمر لكاتبه وقد كتب بين يدي عمر: هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقال له عمر: لا، احبه واكتب: هذا ما أرى عمر بن الخطاب؛ فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمن عمر، والله ورسوله منه بريء^(١).

ويأباه أن ما حدث من قتال لم يكن لقاعدة دينية، ولا على قاعدة من قواعد الإمامة، ولم يكن أحد يقاتل طعناً في إمامة أحد، حتى معاوية نفسه لم يكن يدّج لنفسه الإمامة، ولا قال إنه يقاتل علياً لأن إمامته غير صحيحة، أو لأن الله لم يختره، ولا قال أحد من الصحابة الذين نصرُوا علياً إن الله ولاه واختاره، حتى ولا أن الرسول ﷺ نص على إمامته، ولم يقل أحد من المقتلين: إن معه

١ — مدارج السالكين ج ١ ص ٤٠

نصا دينيا يؤيده . فلم يقتل المسلمون على قاعدة من قواعد الإسلام ، بل لم يختلفوا مجرد اختلاف على قاعدة من قواعده .

فدعوى أن عثمان أصّل نظرية الحكم الإلهي دعوى كاذبة ، ظاهرة الكذب ، يُعرف كذبها بأدنى تأمل ، مع العلم بمبادئ الإسلام وسياسته الشرعية ، وبما وقع من المسلمين في الصدر الأول من التشاور على اختيار الخليفة .

ثم بما كان بعد الصدر الأول : فمعاوية أخذ البيعة ليزيد ابنه .

ومعاوية بن يزيد لما استخلفه أبوه يزيد بن معاوية لبث شهرين وليالي محجوبا لا يرى . ثم خرج بعد ذلك ، فجمع الناس ثم قال : أيها الناس ، إني نظرت بعدكم فيما صار إليّ من أمركم ، وقلّدته من ولايتكم ؛ فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربي أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير مني ، وأحقهم بذلك ، وأقوى على ماقلّدته ؛

فاختاروا منى إحدى حصلتين: إما أن أخرج منها،
وأستخلف عليكم من أراه لكم رضا ومقنعا، ولكم على
ألا آلوكم نصحا في الدين والدنيا، وإما أن تختاروا
لأنفسكم وتخرجوني منها.

وفى عهد الرشيد، لما رغب أهل أفريقيا عن (محمد
بن مقاتل) نصّب عليهم (إبراهيم بن الأغلب) استجابة
لطلب أهلها. ولم يرم الرشيد الأمر إلا بعد أن استشار
أصحابه، وعلم أن إبراهيم يصلح للقيام بالولاية وضبط
الأمر^(١).

والمؤرخون يعرفون أن الذى أدخل مقولة (الاختيار
الإلهى فى تاريخ المسلمين هم الفرس، تأثرا بوثنية دياناتهم
القديمة، وأن هذه المقولة تأبأها العقلية الإسلامية فى فهم
وظيفة الحاكم^(٢)).

١ — تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٦. راجع أستاذنا عبد الفتاح

السرنجاولى: الخلافة العباسية

٢ — د. مصطفى الرافعى: الإسلام نظام إنسانى - مرجع سابق

وكان ذلك من وسائلهم لتحويل السلطان إليهم، ولعل (جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى) وزير الرشيد، إنما أشار على الرشيد بالعهد إلى ابنه المأمون، بعد أن عهد إلى الأمين؛ لأنه كان يرمى إلى سياسة بعيدة المدى، هي أن تكون بين الأخوين حرب تمزق الوحدة العربية، وتنتهى بظهور الفرس، على حساب ضعف الخلافة (١).

هذا، ولكن كاتب السقوط يأبى عليه (حياده العلمى) ذكر الحقائق والحق، وما يذكره من ذلك يحرفه من بعد مواضعه، ويتلمس للباطل صورة من صور الحق!

وأكذب من هذه القضية: قضية تأسيس عثمان لنظرية الحكم الإلهى - الزعم بأن هذه النظرية كانت رأى الأغلبية.

وتلك مواقف المسلمين، وتلك أقوال علمائهم التى سلف الكثير منها، تشهد بغير مازعم. وكاتب السقوط

١ - أستاذنا عبد الفتاح السرنجباوى - مرجع سابق ص ١١

نفسه زعم أن البيعة كانت (غالباً) تؤخذ بحد السيف .
وهو يناقض دعوى الأغلبية في الحكم الإلهي .

ومن الوقائع الشاهدة أن الحسين خرج ، ومعه ،
بالفعل أو بالقوة (على حد تعبير الفلسفة) أكثر المسلمين
على ولاية يزيد . تلك الكثرة التي عبّر عنها الفرزدق حين
قال للحسين : تركت الناس قلوبهم معك ، وسيوفهم
عليك .

• وخرج عبد الله بن الزبير على أمراء بنى أمية ، من
ولاية يزيد ، ومن بعده . وأيد عبد الله بن الزبير على
ذلك ، وبايعه ، أهل العراق ، والحجاز ، ومصر . ولو
كان غداراً ، وسياسياً مخادعاً ، ومشترياً التأييد بالمال .. لثم
له الأمر .

ولما بويع لعبد الملك بالشام ، ولم يختلف عليه أحد من
أهلها ، ولم يختلف عليه أحد من قریش - أرسل (حبش
بن دلجة القيسی) إلى أهل المدينة لأخذ بيعتهم فقال لعبد
الله بن عمر : تبایع لعبد الملك ؟ قال ابن عمر : إذا

اجتمع الناس عليه بايعت له إن شاء الله (١) .

أين في هذا، وكله بعد كلمة عثمان، الزعم بالحق
الالهى؟ وأن كلمة عثمان وضعت الفكر السياسى
الإسلامى كله على مفترق طرق بين أغلبية تأخذ برأى
عثمان، وأقلية ترى أن الأمة مصدر السلطات؟

وتلك أمثلة ذكرتها من عهد بنى أمية، الذين حولوا
الخلافة إلى ملك عضود. وكان هذا الزعم أولى بهم،
وهم الذين أيدوا عثمان، وتسببوا له فى المآزق، وحرصوا
على الملك بالحق وبالباطل.

ويزيد دعوى كاتب السقوط بطلانا أن أحزاب
المسلمين جميعا لم يدع منهم أحد هذه الدعوى:

١ — فالأنصار كانوا، أولا، يرون أنفسهم أحق
بالخلافة، ولهم فى ذلك حججهم العقلية. ثم اتفقوا على
رأى المهاجرين، إلا سعد بن عبادة الذى أبى البيعة لأبى

١ — الإمامة والسياسة ج ٢

بكر، ولم ينله لذلك أذى، ولا قال قائل إنه خرج عن أمر الله. وظل مغاضبا أبا بكر إلى أن مات.

٢ — والمهاجرون يرون الأمر فيهم. ولهم في ذلك حججهم العقلية.

٣ — والهاشميون يرونها في بيت النبي، ولهم في ذلك حججهم العقلية. وظلوا يمثلون المعارضة لرأى الأغلبية التي تولت الحكم بقيادة الصديق، ثم عمر، ثم عثمان. ثم من بعدهم لبنى أمية.

ومن الطريف أن نذكر أن الناس انصرفوا عن بنى هاشم بالخلافة حتى لا يجتمع لهم شرف النبوة والخلافة، فتصبح وراثية على خلاف هدى السياسة الإسلامية، وأوامرها العامة الموجهة للمسلمين.

٤ — وعائشة، كان لها هي الأخرى رأى وتوجيه، لعله كان إلى آل الزبير.

٥ — والخوارج رأيهم معروف مشهور في الاختيار

الحر لمن يصلح لها من جميع المسلمين .

٦ — ولما ظهر الحزب الأموي استطاع أن يحول الأمر إلى نفسه .

٧ — ولما بويع للحسن بن علي ، بعد أبيه ، تنازل طائعا راضيا لمعاوية .

أفكان الحسن يخلع رداء ألبسه الله إياه ، وعارض اختيار الله ؟

٨ — وعارض الحسن بعض رجال حزبه البارزين .

أفكانوا يعارضون اختيار الله ؟

٩ — والمرجئة كان رأيهم يسالم أغلب الآراء .

١٠ — والشيعية وهم القائلون بالنص على الخلافة ، لم يدعوا فيها مادعاه كاتب السقوط . وأقصى ما فعلوه تأويل بعض أحاديث الرسول ﷺ ؛ ليحملوها على الدلالة على خلافة علي ، لم يوافقهم على تأويلها جمهور الأمة . وكانوا يمثلون حزب المعارضة ، بل أحد أحزابها للأغلبية الحاكمة

في العصر الأموي والعباسي^(١).

١١ — والمعتزلة، ولا يحدد الكاتب موقفهم، بل يقول: أقلية ترى الأمة مصدر السلطات وهو الرأي الذي تبناه المعتزلة فيما بعد.

هل تبينتم كذب هذه الدعوى؟ وجرأة (السقوطي) على إطلاق الأحكام والقضايا الكلية من غير سند، ولا توثيق.

ثم زعمه أن (تسميتهم بالمعتزلة دليل على موقف الدولة الإسلامية منهم، وموقفهم منها).

إن صبية الأزهر يعلمون أن تسميتهم بالمعتزلة جاءت من مخالفة (واصل بن عطاء) للحسن البصري في مسألة مرتكب الكبيرة، واعتزاله مجلس الحسن، فقال الحسن: اعتزلنا واصل) ومن هذه العبارة اشتق اسم المعتزلة.

١ — أستاذنا بدوي عبد اللطيف (مدير جامعة الأزهر بعد): الأحزاب السياسية في فجر الإسلام ج ١ ط أولى سنة ١٩٤٨، د. مصطفى الرافعي: الإسلام نظام إسلامي - مرجع سابق

وإن (الصبيبة في علم التاريخ) يعلمون أن الدولة العباسية، من عصر المأمون، والمعتصم، والواثق - كانت تحتضن المعتزلة، وتأخذ بآرائهم، لدرجة الرغبة في الإكراه أحيانا. ولم يخف ذلك الميل إلا في عهد المتوكل.

كانت الدولة العباسية في عهدها هذه تحتضن المعتزلة وفكرهم، وهم كانوا يرون أنه لا يشترط في الإمامة الكبرى أمر النسب القرشي، و(ضرار بن عمرو الغطفاني) أحد زعماء المعتزلة له رأى في هذا، فهو يقول: إذا اجتمع حبشي وقرشي، كلاهما قائم بالكتاب والسنة، فالواجب أن يقدم الحبشي؛ لأنه أسهل لخلعه إذا حاد عن الطريقة^(١).

فكيف تتفق هذه الحقائق مع دعوى معارضتهم واعتزلهم...؟

أرايتم كيف يلوى السقوطي أعناق الحقائق؟

١ - الفصل في الملل والنحل لابن حزم - راجع أستاذنا عبد الفتاح السرنجاوي: الدولة العباسية ص ٣٣

أرأيتم إليه كيف يتعلق بأهداب خلافات اجتهادية.
سياسية؛ ليعيب بها حكم الإسلام، على حين لم يدع
أصحابها، ولا أحد من العالمين أنها خلاف حول شيء
من قواعد الإسلام.

أرأيتم إلى تعلقه بالاجتهادات السياسية للراشدين، في
أسلوب اختيار الحاكم؛ ليتخذ من هذه الفضيلة (مأزقا)
يتحدى به دعاة الاسلام، ويستولده (وليدا غير شرعى)
يعيب به حكم الإسلام.

لقد كانت هذه الاجتهادات الراشدة.
وكانت اختلافات الحكماء غير الراشدة، مع زحف
الإسلام وانتشاره دليلا على قدرة الإسلام الذاتية. فلم
يكن فكرة تعيش بأصحابها، وتموت بموتهم. بل كان
حقا، ودينا، وفكرة.. تحيا بذاتها، ويحيا بها الناس، إن
جاز فيها، أو عنها أناس حيى بها آخرون.

وتلك معجزة من معجزات الإسلام.
إنه على رغم أن المسلم مطالب بأن يتمثل الإسلام في

حياته، وأن تمثل حياته الإسلام إلا أن الإسلام ليس هو المسلمين، حتى الرسول فيما لم يوح إليه. فخطأ المسلم محمول عليه، لا على الإسلام.

والإسلام دين عقيدة ونظام. أما العقيدة فمردّها إلى الإعلام، والعلم، والإقناع. هذا منهج الإسلام.

وأما النظام فينفذ بأهله، بما لهم من بشرية، وما للبشرية من اجتهاد ويحتمل الخطأ والصواب، وبما لتغير المناسبات من تأثير ومتطلبات - كل ذلك، في الإسلام، من غير كهانة ولا وصاية. وهذا سمّو بالإنسان، وتكريم له، وإقرار بحريته، وتقدير لعقله، وإنماء لمواهبه، وإرساء لمنهج التجربة والخطأ، الذى ابتدعته (السياسة الشرعية الإسلامية) والذى ثابت إليه البشرية بعد قرون.

أفنفعل عن هذه المبادئ والقيم، ونقومها بجانبها البشرى السلبى، ثم نحمل هذا الجانب على الإسلام؟! الإسلام (عقيدة ونظام) على هذا النحو. ومن ثم

اتفق مع هذا التأسيس أن يبنى عليه حرية اختيار العقيدة، ثم يبنى على ذلك أيضا أنها لا تنطبق على غير المسلم، وأن يترك للمسلم ضمانات التطبيق والالتزام.

فإذا ما قصر المسلمون فعلى من يكون الوزر؟!

وإذا ما قصر المسلمون فكيف يكون العلاج؟!

أيمكن بإقتلاع القيم؟

أيمكن بالاكْتفاء بترتيلها؟

أيمكن بعزلها عن تفاعلها؟

إن القول بمثل ذلك، في أحد احتمالاته، دليل على عدم الإيمان بها.

إن الرغبة في نوع معين من الحقيقة هي التي توجه صاحبها، وتدفعه إلى تدليل الصعاب التي أمامه.

وإن الشك في نوع معين من الحقيقة، والرغبة عنها لهُو، كذلك، الذي يعدم الرغبة فيها، ويميل بصاحبه عنها، ويدفعه إلى توهم العقبات، والإكثار من التدايعات، ويوجد لها، وله من العقبات مالا وجود له،

أمام الرغبة فيها .

وإن هذا ليّين حتى في أمور الحياة

إن الرغبة في الحق تكشف لصاحبها الشبهات ، وتزيل عنه الغيوم .

إن في مقتل عثمان ، والخروج على عليّ معجزة إسلامية ، جاء بها على خلاف أسبابها المنظورة في بيئة الجزيرة حيث العصبية القبلية ، والحمية للحمى والحى ، ماكان يجرؤ خارج ، ولا دخيل من الكوفة ، أو مصر .. أن يمس الحمى ، أو أن يعتدى على مملوك للقبيل ، أو مستجير بها ، فضلا عن السادة الأشراف ، الذين اجتمع لهم من سوّد النسب والمال ثم الإسلام ما لا مزيد عليه لطالب المزيد .

وفي الإسلام تمكن العبيد ، وتمكن من لا رأى له ، ومن كان في بلده وأهله لا يملك أنفاسه - أن يتناول على السادة .

وكان لذلك وجهان : أما أحدهما فيحمد للإسلام ، في

تقرير المبدأ. وأما الآخر، فيدم به المطبق المنفذ.

فإذا كان التاريخ أخبرنا بالانحراف فعلى من انحراف وزره. ولنا عبرته، وله عمله، ولنا عملنا.

لانتخذ من ذلك حجة لطعن الإسلام (باسم السمّو به عن أخطاء الناس، وسياستهم) ولا نتخذ أحاديث تمزق المسلمين الأولين كل ممزق ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ سورة البقرة: ١٣٤، ١٤١.

ورحم الله عمر بن عبد العزيز عندما سئل عن دم عثمان فقال: تلك دماء كفّ الله يدي عنها، فلا ألغ بلساني فيها.

ولنما الجاهل بمنزلة الذباب، لا يقع إلا على العقر (=الجرح) ولا يقع على الصحيح. والعاقل يزن الأمور جميعا، هذا وهذا!!!.

ومن أجل هذا لا يخوض الدعاة اليوم في جروح هذا

الماضي، ليس عن قصد الجهل، بل عن التأدب بأدب
الاسلام ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم
ما كسبتم...﴾

أنت مؤمن بالاسلام

وأنت مؤمن بشريعته

هذا كلامك .

فاقترب منا، **لأنقول**: اقترب منا إلى نهاية الطريق،
فنحن نحب الإنصاف لغيرنا كما نحبه لأنفسنا .

أنت مؤمن بالشريعة وسموها . ولكن تخشى عثرات
التطبيق، فاقترب منا في نصف الطريق، وتعال نلتقى على
دراسة علمية، تصف المخاوف، وتضع الضمانات؛
لتجنب المخاوف، وضمان سلامة التنفيذ ﴿إن هذا هو
القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز
الحكيم﴾ فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين .

لقد بقى عندى فى ذلك - علم الله - الكثير والكثير،
مما يحيط بالباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق . غير ألى أكتفى

بهذه الإشارات؛ تيسيرا على القارئ؛ خشية الكلال أو
الملال. وإن كان ليس من الحق ونصره كلال أو ملال.
وإن العلم - بحرصه على الحقيقة - يصبح أخلاقا
لاتطبيق الصبر على الخطأ من غير أن يجرى التصحيح
المطلوب عليه!!

* * *

(قبل السقوط) بين التقليد والتجديد

شجرة الشوك :

١ - كتب كاتب هندي بوذى يقول: النبى محمد قد غرس فى أرض البشرية شجرة الإسلام، وهى الشجرة التى لم تثمر غير الأشواك.
وصادرت الحكومة الهندية الكتاب.

٢ - وفى (سيراليون) فى غرب أفريقيا ينظمون خطة لإضلال المسلمين، كان منها الزعم بأن المسيح هو الذى أرسل محمدا رسولا عنه، ومن هذا المنطلق استطاعت المنظمات المعادية للإسلام أن تستوعب عدداً من مسلمى (سيراليون).

٣ - وفى كندا استطاع التنظيم المعادى للإسلام أن

يضمّن بعض الكتب المدرسية والجامعية في مقاطعة (أونتاريو) مغالطات وتهجم على النبي محمد. وقد استنفذت الجالية الإسلامية هناك كل وسائلها، ومازالت الكتب تشتمل على أخطائها وتهجمها على الإسلام ونبيه.

٤ - وفي أسبانيا نشرت صحيفة (لاتيجو آرديا) التي تصدر في (برشلونة) صورة خيالية للرسول ﷺ، وادعت أن هذه الصورة تمثل صفاته الخلقية والجسمية.

٥ - وفي (الكويت) عرض في معرض الكتاب العربي، الذي أقيم هناك قبل إبريل سنة ١٩٨٤م كتاب بعنوان: الثلاثة آلاف سؤال وجواب. وعلى غلافه نشرت نجمة إسرائيل. وقد احتوى على العديد من المغالطات حول العقيدة الإسلامية، وحول الرسول ﷺ.

٦ - وكاتب تركي مسلم اسمه (أها أرسيل) ألف كتابا باللغة التركية بعنوان: القومية العربية والأتراك.

تهجم فيه على الرسول وعلى الإسلام. وادعى فيه أن الأتراك قد تخلفوا عندما طبقوا الشريعة الإسلامية، وتقدموا عندما اتجهوا إلى الغرب^(١).

٧ - وفي أمريكا نشرت إحدى المجلات معلومات غير صحيحة عن الإسلام. وكتبت أمريكية مسلمة ترد على المجلة الأمريكية، ونشر ردها في مجلة الهلال الشهرية، قبل يناير ١٩٨٤م التي تصدرها الجمعية الإسلامية لمقاطعة (أورنج) بولاية (كاليفورنيا). قالت فيه لمحرر تلك المجلة: إن الاعتماد على أسلوب حياة شخص مسلم، في أى بلد، لوصف الإسلام، وسلوك المسلمين فيه مغالطة واضحة؛ لأن سلوك مثل هذا الفرد، وإن كانت مخالفة لتعاليم دينه، لا يمكن اعتباره قاعدة صحيحة لوصف دين معين، أو إصدار حكم عليه. ثم أخذت ترد على الافتراءات حول موضوع الزواج، والمرأة.. ومقارنة في ردها بين شريعة الإسلام

١ - الأستاذ محمود بيومي: مجلة رابطة العالم الإسلامي العدد: ٧ من السنة

الثانية والعشرين

وبين ما عليه الغرب المسيحي من سلوك وتشريع .
واختتمت رسالتها بقولها: إن الإسلام نظام ديني
 واجتماعي وسياسي متكامل (١) .

٨ - وفي أمريكا صدر سنة ١٩٧٨م كتاب :
THE GOSPEL ISLAM وفيه الخطة العلمية
المدروسة لتنصير العالم الإسلامي . وهو مدلول عنوان
الكتاب .

ويعلق على ذلك الأستاذ الدكتور حسان حتحات
بقوله : يشهد الزمن الحاضر صحوه إسلامية لاتنكر ،
واقبالا على الإسلام ، أو عودة إليه . لواء السبق فيها
معقود للجيل الحاضر من شبان وفتيات ، على الجيل
الماضي من آباء وأمهات . فليست إذن تلقين جيل لجيل .
ولكنها بعث حقيقي وأصيل في هذا الجيل ..

والظاهر أن ضمير الأمة ، المتمثل في شبابها قد ضاق

١ - مجلة رابطة العالم الإسلامي العدد الرابع من السنة الثانية والعشرين

ذرعاً بما جربته من (أيدولوجيات) سابقة ولاحقة
تختلف فيما بينها اختلافا شاسعاً، ولكنها تتفق على
استبعاد الإسلام، سگان سفین، ومنهاج حياة، وكيف
أفضت التجارب كلها إلى الهزيمة، والإفلاس، والهوان.
فكان «رد الفعل» أن اتجهت إلى الإسلام، تلتمس فيه
ذاتها وحياتها ونجاحها^(١).

٩ - وفي (بلغاريا) حملة رسمية لحمل الأقلية المسلمة
هناك على تغيير أسمائهم... وقصص المسلمين في أفريقيا،
وما يفعل بهم، والمسلمين في الفلبين معروفة منشورة!
١٠ - وفي مصر يغرس صاحب السقوط شجرة
الشوك في طريق الإسلام.

ولا جديد تحت الشمس.
فهذه صور من حاضر الحملة المنظمة على الإسلام.
حتى تحليل صاحب السقوط لعوامل نماء الحركة

الإسلامية، ومظاهر بعض الشباب في اللحية والثياب..
أخذه من الدكتور حتحات، ولكنه سار به في الاتجاه
المضاد.

والذين فرحوا بمقعدهم خلاف الإسلام، يفرحون بما
كتب، ويكتب صاحب السقوط، ويعتبرونه -
بزعمهم - امتدادا لفكر الشيخ على عبد الرازق، رحمه
الله، في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) وههنا قرين
يجب أن تنتبه عليه، ذلك:

- أن الشيخ على عبد الرازق أخذ في إعداد كتابه
منذ سنة ١٩١٥ إذ كان الحلفاء يعملون على هدم تركيا
والخلافة الإسلامية، حتى من قبل الحرب العالمية الأولى.
وصدر كتاب الشيخ في إبريل سنة ١٩٢٥.

وصدر كتاب د. فوده والحملة العالمية على الصحوة
الإسلامية على ما وصفت.

- وكما كانت القضية الرئيسة في كتاب الشيخ على
عبد الرازق هي قضية الخلافة، والإسلام والدولة،

وبوجه أعم: الإسلام والدنيا. كذلك كانت في كتاب صاحب السقوط.

غير أن الشيخ حاول علاج فكرته من ناحية نظرية بحث. وصاحب السقوط عالجها من ناحية تطبيقية محض.

واجتمع كلاهما - رغم اختلاف المنهج - على تزوير الحقائق، وتغيير الوقائع، وإنكار المعلوم بالضرورة.

واجتمع لكليهما الترحيب، وإطلاق النعوت: بالتجديد. والفكر الحر...

ففى ١٠/٤/١٩٨٥م عرضت جريدة الأهالى فى عددها ١٨٣ من السنة الثامنة ملخصا جامعا لكتاب قبل السقوط تحت عنوان: قبل السقوط. كتاب خطير للدكتور فرج فوده. وفى جريدة الأهالى العدد ١٨٦ من السنة الثامنة فى ١/٥/١٩٨٥م قال السيد/ السيد زهرة: وأهمية الكتاب الأول (قبل السقوط) أنه يفتح منطقة من فكرنا ظلت مغلقة ومحزنة منذ سنوات

طويلة، هي منطقة الدعوة إلى العلمانية. هذا من جانب، ومن جانب ثان، أنه يطرح بقدر غير قليل من الجرأة، وبقدر كبير من الوضوح المبررات التي يقدمها الداعون إلى العلمانية هـ.

وفي جريدة الأهالي عدد ١٩١ في ١٩٨٥/٦/٥ م حوار أجراه السيد/ حسام حافظ (وسط هذا العجب مع الكاتب الكبير الأستاذ محمد عوده) تحت عنوان: الدولة العلمانية هي العلاج لتفزقات الأمة العربية.

يقول الأستاذ محمد عوده: كيف نطبق إسلامهم في دولة ٨٠٪ من أهلها أميون؟ بيننا أول آية في القرآن هي «اقرأ».

ويقول: أنا أعتقد أن الإسلام دين علماني. حيث سئل الرسول في غزوة أحد (هكذا): أهو الوحي أم الحرب والمكيدة؟ فقال الرسول: بل هو الحرب والمكيدة. وغير خطة الحرب تبعا لذلك. وبهذا أقر العلمانية في شئون الحرب والسياسة (هكذا)!

وفى عدد الأهالى ١٨٥ تحت عنوان أحذر كم..
أحذر كم.. أحذر كم كتب الدكتور رفعت السعيد يقول:
إلى العزيز الدكتور فرج فوده.. كتابك (قبل السقوط)
هو أمتع، وأذكى، وأرقى ماقرأت بالعربية منذ زمن
طويل. أتمنى أن تواصل معركتك، ومعركتنا جميعا،
ومعركة مصر كلها، بذات الشجاعة، وذات الأصالة،
وذات الرقى.. ٢٤/٤/١٩٨٥م).

كما استقبل (قبل السقوط) بهذا كله استقبال كتاب
الشيخ على عبد الرازق. بل من العجب أنه بعد مضى
عقود أخذت تحييه بعد مماته صحفه ومجلات:

شرت مجلة (الطليعة) فى عددها الصادر فى أول
نوفمبر سنة ١٩٧١ العدد الحادى عشر من تلك السنة
بحثا بعنوان: الشيخ على عبد الرازق معركة فكرية.
استغرق البحث صفحات من ٩٠ إلى ١١١ ثم نشر
النص الكامل للكتاب فى آخر العدد تحت عنوان:
وثائق: الإسلام وأصول الحكم - بحث فى الخلافة

والحكومة الإسلامية^(١) .

وهنا أمر يحتاج إلى تفسير ، بل هو من الواضح بحيث لا يحتاج إلى تفسير ؛ فكتاب على عبد الرازق لم يعد طبعه بعد طبعه في سنة ١٩٢٥ م ، حتى المؤلف نفسه ، وقد مات في ٢٢/٩/٦٦ م لم يفكر في طبعه بعد ذلك التاريخ . فلماذا تعود مجلة الطليعة (بيروت ص . ب ١٨١٣) والتي نشرت كتاب ألف باء الشيوعية (أ . ب ش) - إلى إعادة نشره ، ونفخ الروح في مواته . مع أن كاتب جريدة المصور (أحمد بهاء الدين) زار الشيخ قبيل وفاته ، وعرض عليه إعادة طبع كتابه فلم يبد موافقة^(٢) .

بل إن الدكتور محمد رجب البيومي^(٣) قد أقام

١ - د . محمد ضياء الدين الرئيس : الإسلام والخلافة في العصر الحديث

٢ - المرجع السابق ص ١٧

٣ - الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي : الأزهر بين السياسة وحرية الفكر ص ١١٤ من سلسلة كتاب الهلال

الدليل على تراجع الشيخ عن رأيه، قال الأستاذ الدكتور: على أن الأستاذ على عبد الرازق، رحمه الله، قد أدرك أخيراً بعض ماتسرع فيه، فحاول الرجوع عنه، وأعلن ذلك في مجلة (رسالة الإسلام) العدد الثالث من السنة الثالثة. وقد صدر في رمضان سنة ١٣٨٠هـ - يوليو ١٩٥٩م إذ قال تعقياً على مقال كتبه الدكتور أحمد أمين في هذا المجلة، قال الأستاذ على عبد الرازق مانصه: قرأت بحثاً قيماً لحضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور أحمد أمين، جاء في صدره أنه كان يتجادل معي، فقلت إن دواء ذلك أن نرجع إلى مانشرته قديماً من أن رسالة الاسلام روحانية فقط، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل. وقد وقفت أمام نظري كلمة: رسالة روحانية. ولم تشأ أن تمر من غير أن تثير ذكرى قديمة لهذه الكلمة معي، فقد زعم الباحثون أنني في ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا. أما أنا فقد رددت عليهم أنني لم أقل ذلك

مطلقا لاني هذا الكتاب ولا في غيره...

يقول الدكتور رجب البيومي: هذا تراجع صريح، لأن الأستاذ على عبد الرازق قال في ص ٦٩ من كتابه: (إن ولاية الرسول على قومه ولاية روحية منشؤها إيمان القلب، وولاية الحاكم ولاية مادية. تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية.

وللأستاذ أحمد بهاء الدين (وله ميول طليعية) كتاب اسمه «أيام لها تاريخ» كتب فيه فصلا عن الإسلام وأصول الحكم من ص ١٥٣ إلى ١٧٣ يدور حول أراجيف كتاب الإسلام وأصول الحكم وكأنها حق لاشبهة فيه، ويصور الشيخ على عبد الرازق بطلا يتحدى كل القوى...

وكما تكلم صاحب السقوط عن (الكهانة) تكلم عنها الأستاذ بهاء الدين في هذا الكتاب وقال: (ورجال الدين ثاروا لأنهم رأوا في هذا مايزعزع سلطانهم، ويعطل منافعهم في الاتجار بالدين.

وكما تكلم الأستاذ بهاء الدين عن اتهام العلماء، وأن كتاب على عبد الرازق (يكشف عن هذه العمام الضخمة التي لا ترتفع إلا لتستر وراءها الظلم والاستبداد) - كذلك تكل صاحب السقوط عن رغبة (رجال الدين) - بزعمه - في التسلط على الحكم بطريق مباشر أو غير مباشر.

وكما قال صاحب السقوط باستبداد الخلفاء، قال بهاء الدين (وخلف عباؤها الواسعة تنكرت أنواع من المظالم والخطوب، وهى قد خرجت من (مكة) (هكذا) وتنقلت بين دمشق وبغداد والقاهرة... يمتطيها الحاكم الذى يستبد بالمسلمين..

وكما زعم صاحب السقوط أن «دولة عظمى» وراء المد الإسلامى - زعم أحمد بهاء الدين فى كتابه (أيام لها تاريخ) أن الإنجليز كانوا من وراء فكرة إحياء الخلافة فى مصر!

لقد كان الأستاذ خالد محمد خالد أديبا شجاعا عندما

كتب كتابه: (من هنا نبدأ) سنة ٥٠ م والذي طبعت منه روسيا مليوني نسخة وزعتها بالمجان على الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي.

وبالمنهج العلمي رد عليه فضيلة الشيخ محمد الغزالي بكتابه (من هنا نعلم) الصادر سنة ١٩٥٠ م وكان فيه كالعهد به إلى اليوم: عالما أديبا.

ولكن شجاعة الأستاذ خالد محمد خالد بلغت غاية مدى الإعجاب عندما رجع عن فكرته في كتابه (من هنا نبدأ) وكتب مقالا تحت عنوان: دين ودولة، وعبادة وخلافة في جريدة الأخبار بالقاهرة في ٢٣/٨/١٩٧٧ م قال فيه: وإني لأرجو أن يجيء كلامي هذا تصحيحا لرأى أبديته من قبل في كتابي من هنا نبدأ.

وقد ضمن آراءه هذه كتابا أصدره بعنوان الدولة في الاسلام سنة ١٩٨١ (١).

١ - د . نادية محمد عباد. مرجع سابق ص ٩ - ١١ هامش

وفي حديث أجراه معه الصحفي أحمد السيوفى في
جريدة الشعب نشر بعددها ٢٨٥ في ٢١/٥/١٩٨٥ م
قال الأستاذ خالد محمد خالد:

في رأى أن د. فرج فوده قد واجه نفس المأزق
الفكرى الذى واجهته منذ خمسة وثلاثين عاما حين
أرتأيت يومئذ، وناديت بفصل الدين عن الدولة. وهذا
المأزق يتمثل فى نقطتى ضعف تعرض لهما تفكيرى فى
ذلك العهد البعيد، كما أصيب بهما تفكيره اليوم:

النقطة الأولى: هى: جهلنا الفارق بين الحكومة
الدينية والحكومة الإسلامية، ثم تأثرنا الشديد بما قرأناه
عن الحكومة الدينية التى كانت تهيمن عليها الكنيسة...

أما نقطة الضعف الثانية فى المأزق الفكرى الذى
واجهه فى كتابه، كما واجهته أنا سنة ٥٠ م فهو أنه جعل
بعض المواقف المشجوبة لبعض الذين حكموا تحت راية
الإسلام - جعل هذه المواقف مصدر تفكيره.. وأعجب
ماتورط فيه د. فرج فوده أنه جعل كل مثالب ومآسى

تطبيق الشريعة في السودان مصدراً لتفكيره ولأحكامه،
لاموضعا لتفكيره، كما ينبغي أن يكون... ١٩٨٠هـ.

والآن بعد هذا العرض :

كم من توافق في الغرض والغاية، بين مايكتبه أعداء
الإسلام وبين مايكتبه صاحب السقوط؟

وكم من تشابه في الأفكار، وتقليد فيها بين هذا
وذاك؟

إني لأرجو للرجل - مخلصا - أن يعود إلى الرشيد،
والإيمان بالحق كما عاد المرحوم الشيخ على عبد الرازق،
وكما عاد الأستاذ خالد، أطال الله في عمره.

ومن قبل قال عمر

مراجعة الحق خير من التماذى في الباطل .

* * *

خاتمة ووصية :

أيها الأخ ،

إلى قد مخضت لك في هذه الإشارات عن زبدة الحق، وألصمتك قفى الحكم فى لطائف الكلم .

فصنه عن المبتدلين والجاهلين ، ومن لم يرزق الفطنة
الوقادة ، والدربة والعادة ، وكان صبغاه مع الغاغة ، أو
كان من ملاحدة هؤلاء المتفلسفة ، ومن همجهم .

فإن وجدت من تثق بنقاء سيرته ، واستقامة سيرته ،
وبتوقفه عما يتسرع إليه الوسواس ، وبنظرة إلى الحق
بعين الرضا والصدق ؛ فآته مايسألك منه ، مدرجاً ،
مجزأً ، مفرقاً ؛ تستقرس مما تسلفه ، لما يستقبله .

وعاهده بالله، وبأيمان لاخراج لها، ليجرى فيما تؤتيه
مجرأك، متأسياً بك، فإن أذعت هذا العلم وأضعته، فالله
بينى وبينك، وكفى بالله وكيلاً.

الرئيس ابن سينا

إن العلم - بحرصه على الحقيقة - يصبح أخلاقاً
لاتطبيق الصبر على الخطأ من غير أن يجرى التصحيح
المطلوب عليه.

مالك بن نبي

* * *

اعتراف بالجميل، وشكر لصاحبه

لا يسعنى إلا أن أشكر للسيد الأستاذ أحمد عاطف إبراهيم رئيس مجلس إدارة بنك الدقهلية الوطنى للتنمية جميل صنعه، حين بادرنى بإهداء كتاب (قبل السقوط) لأرى فيه رأى، وأحاول إبداء هذا الرأى.

ولولا هذه المبادرة الباكرة لتأخر علمى بالكتاب، ولصعب الوصول إليه.

كما أشكر لدار الوفاء بالمنصورة حرصها على طبع الكتاب، وإخراجه فى صورته هذه خدمة للعلم والحق والإسلام.

ولا يفوتنى أن أشكر لابنتى الآنسة لميس جهدها معى فى الإملاء، واستخراج المراجع وقراءتها علىّ.

ثم شكرى لكل من عرف الحق ، واستمسك به . ثم
دعا إليه .

عبد المجيد حامد صبح

العالمية من كلية أصول الدين
العالمية مع إجازة التدريس من كلية اللغة العربية
دبلوم دراسات إسلامية عليا - وزارة التعليم العالى
م: ماجستير فى الدراسات الإسلامية والعربية

المنصورة فى ٢٨ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ
١٦ يولية سنة ١٩٨٥ م

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٣
قبل السقوط : تلخيص الكتاب	٧
القصد والثمره : بيان لمقاصد الكتاب، ونتائجه ووسائله إلى مقاصده	٢٠
الجاهلية الأولى : تلخيص لما قبل الإسلام	٨٠
شاهد من الغرب	١٢٧
د . جارودى ود . زكى نجيب محمود	١٣٧
الدولة اليهودية وشريعته	١٥٥
الدولة النصرانية — حظ مصر	١٦٩

الموضوع	الصفحة
دولة الإسلام	١٨٦
حقائق إسلامية : الدين	١٩٢
الدولة والدين — الإيمان	٢٠٠ ، ٢٠٢
الدعوة	٢٠٧
المرتد	٢١٥
حوار	٢٢٠
سياسة الدين	٢٢٥
الحسنة المقلوبة	٢٣٤
صورة المجتمع الإسلامى	٢٦١
لماذا الآن ؟	٢٧٥
الدولة المدنية	٢٧٩
ليس إلهنا معزولا !	٢٩٤
السياسة	٣١٢
درجات المصالح	٣١٩
الثابت والمتغيرات	٣٣٠

الموضوع	الصفحة
الشورى	٣٣٦
الإلزام بين المبدأ والشكل	٣٦١
آفة الفهم السقيم	٣٨١
الشكل	٣٨٥
الإسلام والدولة	٣٩٠
أسس الحكومة الإسلامية	٣٩٩
مولانا الذى فى مصر الجديدة	٤١٩
الشكل	٤٢٢
حياة الصحابة	٤٣٠
(قبل السقوط) بين التقليد والتجديد	٤٦٨
خاتمة ووصية	٤٨٤
اعتراف بالجميل	٤٨٦
الفهرس	٤٨٩

تصويب الخطأ

الخطأ	الاصواب	صفحة	الخطأ	الاصواب	صفحة
المقصورين	المقصورين	٩	١٢٥	الذي	٣
أرباب	أرباب	٩	١٣٢	العقل	٨
روايت	نزولات	١٢	١٦٠	الخداع	١٥
لا يقضي	لا يقضي	٩	٢٧٤	ليس غير	١٦
وهو	وهو	٩	٢٧٥	وبينها	٤
لا	إلا	٥	٢٧٧	أنا	١٤
أحدها	أحدها	١٢	٣٣١	خصمون	١٤
ويصبح	ويصبح	١١	٣٣٤	ألج	٦
رؤ لم	رؤ من لم	١٣	٣٣٩	لزمه	١٥
تردد	تردد	١	٣٤٠	يكون	٩
بمطها	بمطها	٣	٣٤٥	مطلب	١١
فألمها	فألمها	٩	٣٥٦	إلى حد يد	٩
ما	فما	١٦	٣٥٦	بلازم	١٤
حتى من لم	حتى لم	١٢	٣٥٩	حملك ولم يرك	١١
ملا تحملها	فلا تحملونها	٨	٣٧٦	الاستسلام	١٠
ما	بما	١٤	٣٨٣	كتابه	١٥
ابداع	وابداع	١٠	٤٢٦	الجزيرة	١٣
بتقيا	بتقيا	٥	٤٣٣	والحدود	٢
بمتمل	بمتمل	٧	٤٦٢	الوشيجة	٩
هذه	هذا	٧	٤٧٨	كان	٣
ألممتك	ألممتك	٣	٤٨٤	بأخوة	٧
ملحوظة : ص ٤٨ س ١٣ (الثاني مانصه) سقط النص وهو في ص ١٦٠ - ١٦١ س : ١٤ - ١٦			تجأت	تجأت	١٦
			تمير	تمير	٩
			غفلة	غفلة	١
					١١٨

سلسلة نحو عقلية اسلامية واعية :

- ١ — جذور العلمانية د. سيد فرج
- ٢ — الدولة والسياسة في فكر حسن البنا جابر رزق
- ٣ — تمهات قبل السقوط وسقوط صاحبه عبدالمجيد صُبح

تحت الطبع في هذه السلسلة :

- ١ — العصريون معتزلة اليوم يوسف كمال
- ٢ — مستقبل الحضارة يوسف كمال
- ٣ — الدولة الإسلامية والحكومة الدينية محمد علي قطب
- ٤ — نظام الإسلام السياسى محمد علي قطب
- ٥ — الزواج الثانى عبدالحليم خفاجى
- ٦ — قوى الشر المتحالفة فضيلة الشيخ
(الاستشراق — التبشير — الاستعمار) محمد محمد الدهان
- ٧ — شبهات حول العصر العباسى الأول د. مؤيد فاضل ملاً
- ٨ — كفوا أيديكم عن نسل المسلمين عبد القادر أحمد

من مطبوعات دارِ الوفاء بالمنصورة

اسم المؤلف	اسم الكتاب
الشيخ محمد الحضرى	١ — اتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء
تحقيق د. محمد الحفناوى	٢ — أخبار أهل الرسوخ بمقدار المنسوخ من
إمام النوى	الحديث (لابن الجوزى)
عبدالمعنى صالح العلى العزى	٣ — التزيين النبوية وشرحها
عبدالمعنى صالح العلى العزى	٤ — أصول العقيدة الإسلامية للإمام الطحاوى
عبدالمعنى صالح العلى العزى	٥ — تهذيب مدارج السالكين (مجلد)
عبدالمعنى صالح العلى العزى	٦ — العلم والإيمان
عبدالمعنى صالح العلى العزى	٧ — من فيض سورة الكوثر
د. أحمد متولى	٨ — الإيمان بالله (للأطفال)
مجموعة من العلماء	٩ — دقائق الأخبار فى دقائق الأخبار
د. محمد محمد خليفة	١٠ — الحمد فى القرآن الكريم
تحقيق د. أبو اليزيد العجمى	١١ — الذريعة الى مكارم الشريعة
الإمام الشهيد حسن البنا	للراغب الأصفهاني
الإمام الشهيد حسن البنا	١٢ — رسالة المؤتمر السادس
د. محمد رجب البيومى	١٣ — هل نحن قوم عليون
صفى الرحمن المباركفورى	١٤ — قضايا إسلامية " الجزء الأول "
د. يحيى اسماعيل	١٥ — الرحيق المختوم
د. سيد فرج	١٦ — مقدمات النبوة وإعداد الرسول
محمد أحمد الراشد	١٧ — المؤامرة على المرأة المسلمة
	١٨ — منطلق شباب الإسلام

١٩ — التعارض والترجيح عند الأصوليين وأثرها في
الفقه الإسلامى

٢٠ — نشيد الكتاب

٢١ — المرشد الإسلامى فى الفقه الطبى

٢٢ — الخروج من المأزق الإسلامى المراهن

سلسلة نحو أدب اسلامى عالمى

١ — الفائز من يدرك دوره (مسرحية)

٢ — همة فتاة (قصة)

٣ — محمد عواد الشاعر الشهيد

(تراجم وسير)

٤ — فوق القمة (رواية)

تحت الطبع فى هذه السلسلة :

١ — الحلبة والمرأة (مجموعة قصصية)

٢ — فى غيابة الحب (ديوان شعر)

٣ — عودة الغائب (ديوان شعر)

د. محمد الحفناوى

مجموعة أناشيد أبو مازن

د. توفيق الواعى وآخرون

عمى التلمسانى

علاء المزين

د. محمد رجب البيومى

جابر رزق

عطية زهرى

محمد الحسناوى

محمد الحسناوى

محمد الحسناوى

سلسلة أضواء على الاقتصاد الإسلامى :

الاقتصاد الإسلامى بين الرأسمالية والشيوعية
الزكاة وترشيد التأمين المعاصر

سلسلة أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ

١ — منهج كتابة التاريخ الإسلامى

لماذا وكيف

٢ — الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء

٣ — إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام

والبيت العتيق

٤ — ذرية إبراهيم عليه السلام والمسجد الأقصى

٥ — استخلاف أبوبكر الصديق رضى الله عنه

٦ — شبه الجزيرة العربية

٧ — إفريقيا التى يراد لها أن تموت جوعاً

محمد على قطب

يوسف كمال

للدكتور جمال عبدالهادى

رقم التسجيل بدار الكتب ٥٣٤٧ / ١٩٨٥

٩٧٧ — ١٢٤٠ — ٢٧ — ٥

